المترجمة

ليلى أبو العُلا

مدونة ابو عبدو

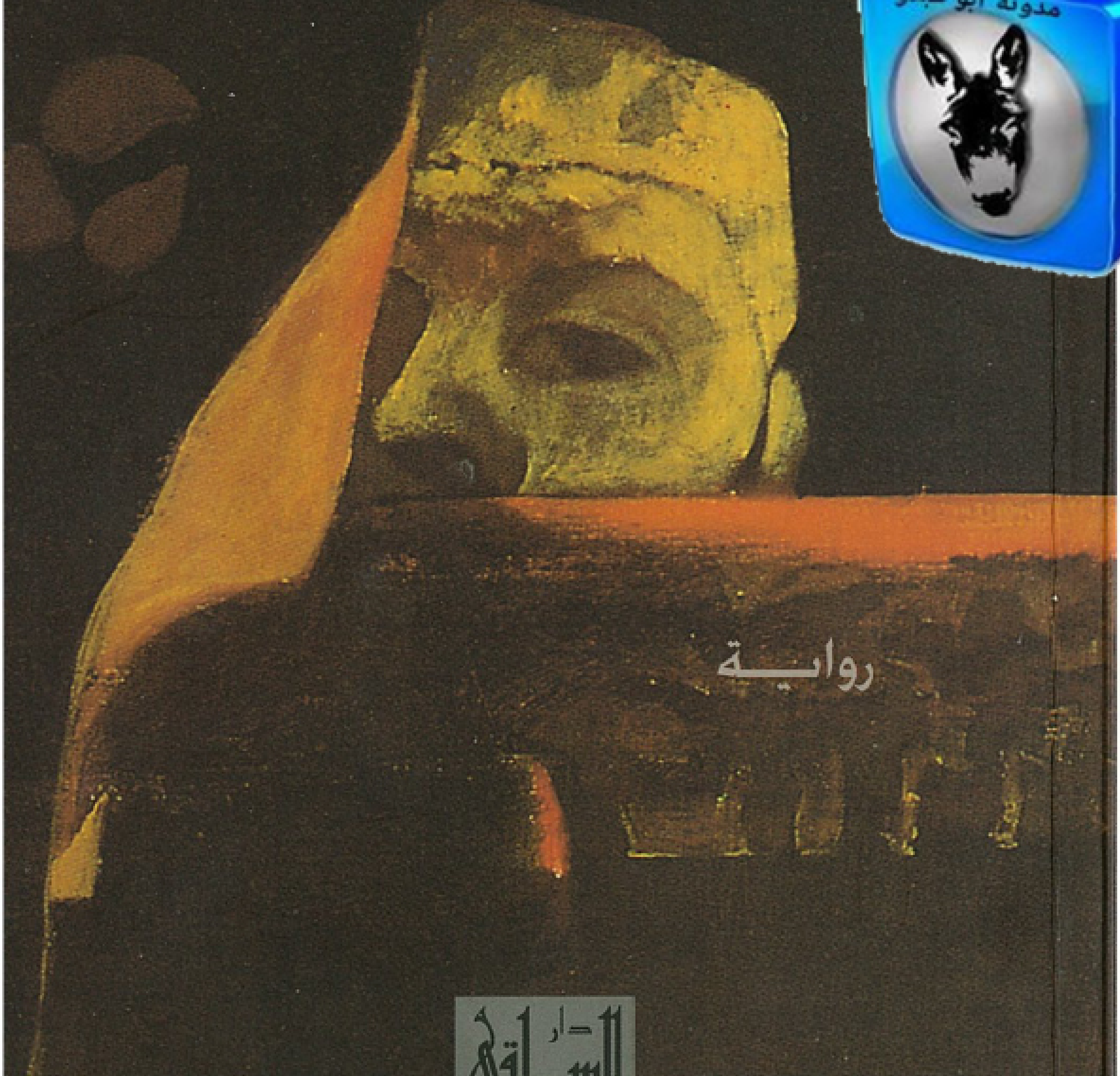

رواية

دار الساقي

ليلى أبو العلا

المترجمة

(روايـــة)

ترجمة

الخاتم عدلان

دار الساقي

Leila Aboulela, *The Translator*, Polygon, Edinburgh, 2002
© Leila Aboulela, 1999

الطبعة العربية
© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٣

ISBN 1 85516 435 3

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

DAR AL SAQI
London Office: 26 Westbourne Grove, London W2 5RH
Tel: 020-7-221 9347, Fax: 020-7-229 7492

الجزء الأول

ولكنّي أقول ما يوحيه إليَّ عقلي
وتُنكره عيناي

أبو نواس (٧٥٧ـ٨١٤)

١

رأت في الحلم أن الدنيا أمطرت، وأنها لن تتمكن من الخروج للقائه كما كانت تعتزم. ليس بإمكانها أن تخوض في المياه الغزيرة المعادية. لا يمكنها أن تغامر بطمس حبر الأوراق التي كلّفها بترجمتها. كما أن القلق الذي اعتراها لشعورها بأنها جعلته ينتظر، تخلل كل الحلم، مما أضفى عليه إلحاحاً قريباً من الأسى. إنها تخشى المطر، تخشى الضباب الذي يغطي هذه البلاد، تخشى حتى الرياح. تفضل في مثل هذه الأجواء البقاء في منزلها، مكتفية بمشاهدة الناس من نافذتها وهم يجترحون معجزات لا تستطيعها: أطفال يخفّون إلى مدارسهم وهم يتسللون من بين الأشجار الملتفة؛ وعجائز يسحقون الجليد على الأرصفة بعصيهم. لابد من أن يكون هؤلاء قد جُبلوا من طينة مختلفة، لا بد من أن يكونوا من العمالقة الذين لا يسمحون للأنواء بالوقوف في طريقهم. العام الماضي عندما كانت المدينة ملفوفة في الضباب، لاذت بمنزلها أربعة أيام، وأتت على آخر أكياس المعكرونة التي كانت تحتفظ بها، وتحتسي الشاي من دون حليب، وعندما انقشع الضباب في اليوم الخامس، أسرعت

خارجة، تبحث عن محال الطعام، والمسغبة تجتاحها اجتياحاً، والجهد يهدُّ ما تبقّى لديها من قوى، ويصيبها بالدوار.

لكن حلم سمر لم يكن واقعاً. لم تكن الدنيا ممطرة عندما استيقظت ذلك الصباح. كان ذلك في أكتوبر وكانت السماء رمادية، يغطيها ذلك الضباب الاسكتلندي الخفيف الآتي من بحر الشمال. وهي قد خرجت بالفعل للقاء راي آيلز كما كانت تعتزم، ممسكة بقوة بالملف الأزرق الذي يحوي بيان «النداء» الذي كلّفها بترجمته.

كان المدخل إلى الونتر غاردنز، هذا البيت الزجاجي الممتد والواسع، مغطى باللافتات: عفواً، يرجى عدم إدخال مقاعد الأطفال وعرباتهم، عفواً، يرجى عدم اصطحاب الكلاب؛ ساعات العمل من التاسعة والنصف صباحاً وحتى المساء. في هذه البلاد كل شيء له لافتة، كل الأشياء لها أسماء. وهي تعوّدت على هذه الدقة في التصنيف. تعوّدت على اللافتات والقواعد المهذَّبة. كانت الساعة التاسعة والنصف فعلاً، وعندما دلفا إلى الداخل كان هناك بستاني واحد يدفع عربة يدوية بين الفجوات الفاصلة بين الشتول. نباتات مدارية متزاحمة في هذه الرطوبة الدافئة، وأسماك برتقالية تندفع مع المياه المنسابة. الطيور المغرّدة تشقشق في الداخل والسماء الرمادية تتطفّل على المشهد البديع من فوق السقف الزجاجي.

المقاعد المنثورة. اللوحات المعدنية البيضاء ذات الشواهد المتنوعة: في ذكرى هذا الفقيد العزيز أو ذاك. كأنما كان من المفروض أن يموت بعض الناس حتى يتمكن الآخرون من الجلوس داخل الونتر غاردنز! لا مفر من الموت... علامتها الخفية تحرّكت، تنفست معبّرة عن وجودها. إنها خفية بالنسبة إلى راي، مثلها مثل

شعرها وذراعيها، ولا يملك أن يراها إلا بعين الخيال. ظهرت هذه العلامة قبل أربع سنوات. كوَّنها الحزن، شكَّلها الأسى، فاتخذت هيئتها الماسية، وامتدت زواياها الأربع بادية بجبهتها، نازلة إلى كتفيها فأعلى بطنها. هي تعرف أن ماسة الحزن هذه بالغة الشفافية، وتعلم أنها تحتوي على سائل يبقى يترجرج هبوطاً وصعوداً مع كل حركة تأتيها. أصبح هذا الشكل الماسي للحزن مفهوماً لديها: فجبهتها موضع الألم حينما يدهمها البكاء؛ ذاك الفراغ القابع خلف عينيها وكتفيها لأنهما تنحنيان وهما تنوءان بحمل القلب المحزون. أما تلك الزاوية فوق البطن، فذلك هو موضع الألم ومستقره.

أصبح السائل مع الزمن، يتحرك بحذر داخل مستودعه الماسي. ولذلك كانت مهيَّأة، ولم تستغرب عندما سألها راي عن طارق.

- هو ابن عمتي، ولكنني لم أقابله إلا عندما صرت في السابعة. أنا وُلدت هنا كما تعلم ولم أذهب إلى الخرطوم مع والديّ إلا عندما بلغت السابعة.

كانا يجلسان على مقعد في غرفة مليئة بنباتات الصبَّار، المصطفة ككائنات من كوكب آخر، متشحة بالخضرة العميقة، ومشرئبة بأعناق تفاوتت في الطول، وهي تصغي إلى الحديث. حولها من كل جانب، نثار من الرمال، يضفي على الغرفة جواً صحراوياً. الأضواء نفسها كانت مختلفة: أكثر اصفراراً، أكثر رِفقاً بالهواء.

«إلا عندما بلغتُ السابعة.» هذه كانت كلماتها. كأنها ما تزال تعبّر عن حسرتها على تلك السنوات السبع التي عاشتها بدونه! مرَّت عليها أزمان أكثر سعادة كانت تخترع فيها بدايات مختلفة لحياتها. كانت

تتظاهر بأنها وُلدت في السودان، بمستشفى الراهبات، على يَدَي راهبة ترتدي زياً ناصع البياض. تحب أن تتخيل أن طارقاً كان في انتظارها خارج غرفة الولادة، ممسكاً بيدي والدته، متشوقاً إلى ظهورها، قلقاً تحت عبء الانتظار. ربما كانت ستحمل اسماً آخر إذا وُلدت في الخرطوم، اسماً عادياً، ستختاره عمتها التي لها رأي في كل الأشياء. كانت سمر هي سمر الوحيدة في المدرسة وفي الكلية لاحقاً. عندما كان الناس يتحدثون عنها لم يكونوا يحتاجون إلى ذكر اسمها الأخير.

- هل تنطقينه مثل فصل الصيف في اللغة الإنكليزية؟

سألها راي في أول لقاء بينهما.

- نعم، ولكن ليس بالمعنى نفسه.

وعندما أحست بأنه يرغب في معرفة المزيد، قالت:

- إنه يعني الأحاديث الحميمة بين الأصدقاء، أواخرَ الليل. هذا ما كان يهواه البدو في الصحراء، إذ يتبادلون الأحاديث في ضوء القمر، على نسمات الليل الرقيقة وقد أنجزوا أعمالهم النهارية.

يعرف راي الصحراء، ويعرف أن أغلب الأسماء العربية ذات معان مألوفة. فهو مؤرِّخ مختص بشؤون الشرق الأوسط، ومحاضر في العلوم السياسية للعالم الثالث، وقد ألَّف مؤخراً كتاباً بعنوان **الخطر الإسلامي الموهوم**. وعندما تجري معه المقابلات التلفزيونية أو الصحافية يشار إليه بـ«الخبير الإسلامي»، وهو لقب لا يحبه معلِّلا ذلك، كما قال لسمر، بأنه لا يوجد مثل ذلك العملاق الأصم، الذي يعرف كل ما يتعلق بالإسلام! سمر هي المترجمة في شعبة راي،

وتعمل في عدة مشاريع في الوقت نفسه: نصوص تاريخية، مقالات في الصحف العربية. وهي الآن منهمكة في ترجمة بيان سياسي أعطاها إياه راي، يخص مجموعة متطرفة بصعيد مصر تسمي نفسها «النداء.» الوثيقة نفسها مكتوبة باليد، وهي مصوَّرة تصويراً رديئاً ومليئة بالأخطاء الإملائية. وعلاوة على ذلك، متسخة بآثار الشاي وملطخة بما خمَّنت سمر أن يكون فولاً مخلوطاً بالزيت! سهرت كل ليلة البارحة وهي تحاول نقل الخطابة العربية إلى اللغة الإنكليزية، بينما تتسلل إلى أنفها عبر السنين رائحة الفول ونكهة الشمار وزيت الزيتون. كانت طوال الوقت تصرف ذهنها عن التفكير في لقاء الغد، محاولة ألا تضفي عليه أهمية أكثر مما تسمح به طبيعته.

بين شجيرات الصبار استفسر راي: «طارق؟.»

قال ذلك وهو يركز على القاف التي حوَّلها إلى كاف.

- نعم، هو يُكتب بالقاف، لكننا ننطقه بصورة مختلفة نوعاً ما، مثل حرف g في الإنكليزية.

هز رأسه موافقاً، فهو يعرف الحروف العربية، وقد عاش في ذلك الجزء الذي تنتمي إليه من العالم. كان يمكن اعتباره تركياً أو فارسياً. لونه كان غامقاً بعض الشيء. قال لها إنه عندما ذهب إلى المغرب ذات مرة أحس وكأنه يسير متخفياً. لم يطرأ لأحد أنه ربما يكون اسكتلندياً إلا عندما يتحدث فينتبه الناس إلى لكنته. هنا، في حضرة الآخرين، يبدو لها غريباً بعض الشيء، ليس من ناحية الشكل، ولكن من حيث المسلك. هذا هو بالضبط ما شجعها على الحديث معه، وهذا هو ما أعطى العالم لأول مرة منذ عدة أعوام، شيئاً من

الحيوية، والألق. عندما التقت به لأول مرة عادت إلى شقتها وهي تشعر بالمرض: جفنان ثقيلان كقطعتين معدنيتن، المطارق تسحق رأسها وأشعة الضوء الواهنة تصوِّب وخزاً جارحاً للعيون. تفاقمت حالتها حتى أُغمي عليها. ولكنها عندما أفاقت ألفت نفسها خفيفة ومشرقة حتى توهمت أنها ربما دخلت في حالة من الجذب.

- والدة طارق، عمتي، اسمها محاسن.

ترددت قليلاً، وهي تفكر في تلك الأجزاء من الحكاية التي يمكن تحويرها، وأيها يجب حذفه كلياً! أي قدر من الحقيقة يمكنه أن يتحمل من دون أن تشب الدهشة في عينيه؟ لم تقل حتى الآن شيئاً يثير دهشته. تريد أن تكون الأشياء دائماً هكذا. ففي هذه البلاد يبدو في عيون الناس بعض القلق، يعتريهم حذر ما بأنها، عندما تبدأ بالحديث، ربما تقول شيئاً غير مناسب، شيئاً محرجاً بصورة ما! لكنه لم يكن كذلك. كان يبدو متفهماً. ليس بتلك الطريقة الحديثة، التي تتعمد النأي عن إصدار الأحكام على الآخرين، بل كأنما يوشك أن يقول: «هذا حدث لي أنا أيضاً.»

عندما تَسلُقُ الدجاجةَ تصعد الرغوة إلى سطح الماء المغلي فتكشطها بالملعقة. حبيبات من الأوساخ بلون حبيبات الفول. سخم لا ينبغي أن نأكله. داخل سمر مثل هذه الرغوة، تصعد كلما شرعت بالكلام. حينها يمكن أن يراها وربما يبتعد. وهي تريد منه أن يزيحها، يشطفها ويطهّرها منها. هي تشعر بأنه يستطيع أن يفعل ذلك، وأن ينقذها من سطوتها الرغوية، وأنه يمكن أن يقوم بذلك بالسهولة نفسها التي يفك بها شريطاً معقوداً!

حدثيه، قالت لنفسها، حدثيه عن محاسن وطارق وحنان. عن الأم والابن والبنت. حدثيه كيف نبذتِ أسرتك وارتبطتِ ارتباطاً كاملاً بهم، بثلاثتهم! كيف قدمت نفسك هدية لهم! طفلة تريد أن تُشكَّل كالعجينة الطيّعة! حدثيه عن منزلهم الذي حلمتِ بالعيش فيه في يوم من الأيام، عن الميدان الحالي أمامه، وعن السكون الذي يلف كل الأشياء بعد نزول المطر، بينما تغمر الميدان تلك الفضة القمرية الباهرة. حدثيه عن درّاجة طارق، عن غرفته، عن غنائه لمكبرات الصوت الوهمية، بغيتارات وطبول وهمية. حدثيه عن ابنة الأخ المطيعة وهي تترك لمحاسن تحديد ما ترتديه، والتسريحة التي تلائم شعرها ومحيّاها. كنتِ سعيدة بذلك كله، راضية بتفاصيله، رابضة تنتظرين ذلك اليوم الذي تنتزعين فيه ابنَها الوحيد من بين يديها.

- خذي بالك من طارق يا سمر.

هكذا همسَتْ في أذنك لحظةَ الوداع. ولكنك أعدته إليها، كفناً ملفوفاً في مؤخرة الطائرة، مع العفش.

- عمتي امرأة قوية. قائدة في الواقع. إنها ترعى ابني الآن. لم أرهما منذ أربع سنوات.

كانت قد تركت الطفل لمحاسن، ولم يكن ذلك يعني شيئاً بالنسبة إليها. لم يكن يعني شيئاً مطلقاً. كأنما لم يكن في يوم من الأيام جزءاً منها، ملتصقاً بها في الحِلّ والترحال! لم تكن قادرة على الاضطلاع بدور الأم. ذلك الجزء منها الموكل بالأمومة خبا وتلاشى، حتى أنها قالت لابنها:

- ليتك كنت أنت. إنني أكرهك! أكرهك!

في تلك الطائرة نفسها المحمَّلة بالموت، كان يريد أن يلعب، أن يتمايح بين الممرات والمقاعد. الابتسامة على شفتيه. يصحبه ذلك اليسر الذي كان لوالده في التعامل مع الغرباء. كان يريد طعاماً. كان شرهاً للطعام. وضعته على حجرها. صينية الطعام أمامهما في وضع غير مستقر، وهو يلتهم قطع الخبز والجبن، ويدلق العصير على ثيابها. قالوا إنه ممتلئ بالحياة. قرصته بعنف بعدما استغفلت الآخرين، ولكنه رد عليها بضربة لا تقل عنفاً. وفي الحمّام نظفته وهو لا يكف عن الصراع. يحاول الإمساك بمطفئة السجائر، ويتشابى ليضغط على زر استدعاء المضيفة.

- أَوقِفْ هذا العبث! أوقفه الآن!

هذا الطفل لا يتركها لنفسها. لا يتركها تغرق في أعماق الحزن. لا يعطيها الفرصة لتنكفئ على ذاتها المثقَلة بالآلام. يريدها كلَّها. يصادرها كلَّها لصالحه!

- كان طارق طالباً بكلية الطب هنا. جئنا بعد الزواج، وكنا نقيم بالقرب من فورسترهيل. يوم الحادث، عندما نقلوه إلى المستشفى، كان بعض أطباء الوردية يعرفونه شخصياً. كانوا لطيفين معي إلى أقصى الحدود. وقد اتصلوا بموظفة الأقليات القومية... ربما تكون منسقة الأقليات القومية...

توقفت لأنها لم تكن متأكدة تماماً من وظيفة تلك المرأة. هزّ راي كتفيه، ليس مهماً ماذا تُدعى. مسح وجهه براحة كفه، أنزل يده حتى الذقن، ثم رفعها ليضغط بأصابعه على صُدغيه.

كانت المنسقة امرأة هائلة النشاط، شعرها قصير جَعْد. في تلك اللحظات البيضاء، لحظات الفزع إلى التكذيب، ومغالطة الوقائع الكثيفة الحضور، تناولت الطفل المشاكس، ووضعته في حضنها، ثم ذهبت به إلى الحانوت واشترت له قطعاً من الشكولاتة.

- هذه القطعة لكِ ماما.

قال ذلك عندما عاد. أسنانه ملطخة بالسائل البني. وضع القطعة بين شفتيها المزمومتين، وخاطبها بصوت شبيه بصوتها عندما تريد أن تحمله على الأكل.

- لا. ليس الآن، هذه لك أنت، كلها لك.

تقع عيناها على المرأة وهي تتحدث عبر الهاتف، مرسلة إشارات بيديها. الطفل يئن في غضب، يضرب الأرض بقدميه، ويدفع الشكولاتة داخل فمها. تنشب رغماً عنها أسنانها في هشاشتها السكرية، عسل يختلط بالدموع!

«تلك المرأة هي التي اتصلت بالمسجد، فأرسلوا رجلاً ليقوم بـ. . . غسل الجثمان.»

مر عليها أسبوع كامل لتوصله إلى التراب الأفريقي. استغرقت الإجراءات كل هذا الوقت وتمت كلها من خلال السفارة: الكرنتينة، الحجز. . . الناس ساعدوها، رفعوا الحمل عن كتفيها. غرباء، نساء كانت تناديهن بغير أسمائهن، جئن إلى شقتها، أعددن لها ولأنفسهن الطعام، وتعهدن بالطفل الذي لا يهدأ كي تتفرغ هي للبكاء. كن يصلين ويرتلن القرآن وينمن على المقاعد ويفترشن الأرض. لم يتركنها وحدها، لم يخلين بينها وبين وحشتها العميقة الغور. كانت

تتحرك وسطهن، تشكرهن وهي غارقة في الذهول، وشعور غامض يقول لها إنهن أقوى منها، وأكثر منها عطاءً، مع أنها كانت تعتقد أنها أفضل منهن تعليماً وهنداماً. كانت تغطي رأسها بوشاح من الحرير الإيطالي، ويديها بألوان مَدارية. تريد أن تكون في أناقة بنازير بوتو، وفي سحر تلك الأميرة الأفغانية التي ظهرت ذات يوم على شاشة التلفاز وهي ترتدي الحجاب. كانت ابنة واحد من المجاهدين. يسندها وجود هؤلاء النسوة، ويساعدها على الصمود، ويعصمها من الجنون. كانت تشكرهن، وهي تشعر بأنهن لا يفعلن ذلك من أجلها أو من أجل طارق، بل يقمن به لأنه الواجب، ولأنه الصواب.

كان أطفالهن يجرون هنا وهناك. كان ابنها بينهم، فَرِحاً برفقتهم، منفعلاً بجمهرة الناس. هذا اليتيم المسكين، لم يبلغ الثانية بعد.

- إنه لا يفقه شيئاً.

هكذا كانت تقول النسوة، وهو يتقافز وسطهن وفي يديه لعبتان، ينادي على أسماء أصدقائه الجدد. ولكن سمر كانت تشعر بحركته الدائمة التي لا تتوقف، كنوع من القسوة التي لا تُحتمل، وتضاعف شعورها بالصدمة، وهو مع ذلك مصرٌّ على حماسته وشغفه: يريد أن يلعب ويأكل ويهدهد حتى ينام.

تتشابك ملابس طارق مع ملابسها داخل الغسالة بين اللَّف والتنشيف. عندما نشفت ملابسه وضعتها مع أشيائه الأخرى في كيس أسود للقمامة. عليها الآن حزم الأشياء والتصدق بها. ملأت كيساً وراء كيس. عملية إخلاء كاملة يجب القيام بها: تمزيق الرسائل؛ وضع المجلات الطبية في الأكياس؛ التفتيت الفظ للحياة التي عاشاها

هنا؛ الهدم القاسي للبيت الذي شيّدا قوائمه. البقاء لله وحده، لله وحده البقاء. الصور، الكتب، البشاكير، الملاءات؛ كلها نُزعت من أماكنها ووُضعت في كيس أسود. هذه الحياة فانية، زائلة، دار للعبور. هكذا هي. لماذا يصعب استيعاب هذا الدرس؟ الأقلام، الأحذية، الجِزَم، المصابيح الليلية وأدوات تصفيف الشعر، والبطاقات التي كان يستخدمها.

هل تستطيع أخذ هذه الأشياء إلى المسجد؟ ربما يحتاج بعض الناس إليها... زوج من الأحذية، معطف طارق يكاد يكون جديداً، المسجل، السجادة الصغيرة... انزعي الأشياء من مواضعها، تصدَّقي بها، احزمي أمتعتك. نحن راجعون إلى الوطن، انتهينا من هذا المكان. نحن راجعون إلى الرمال الإفريقية، ذاهبون للذوبان فيها والتفتت مع ذراتها.

كيف استطاعت الاتصال بمحاسن؟ كيف استطاعت أن تبلغها الخبر الأكثر سوءاً؟ هاتف محاسن لم يكن يعمل. اتصلت بهاتف الجيران. صورة محاسن وهي تجري، لاهثة، ثوبها الملفوف فوق فستان النوم، ملفة الشعر الوحيدة أعلى رأسها بلونها البنفسجي. هي دائماً هكذا في المنزل، بهذه الملفة البنفسجية الوحيدة أعلى رأسها. وهي تنام بها لأنها تريد عندما تخرج من البيت أن تطل هذه الخصلة من تحت الثوب، معلنةً هذا القَدْر من جمالها المحتشم.

- أحب أمّك أكثر منك.

هكذا كانت تقول له، في محاولة لإغاظته. تقولها وهي تقبل عمتها على خديها، وتضع يديها حول كتفيها. تقول وهي ضاحكة:

- اذهب يا طارق، نريد أن نتحدث وحدنا. نريد أن نقطع فيك!!

وتضيف محاسن:

- قطعة... قطعة.

هذه هي محاسن نفسها التي تقطِّب حاجبيها الآن عندما يُذكَر اسم سمر وهي تقول:

- تلك البلهاء!

٢

«يوفوربيا هيريمنتيانا، سيريوس بيروفيانوس، هويا كارنوسا.»

كان راي يقرأ أسماء شتيلات الصبار بصوت عال. أسماء لا تستطيع سمر أن تنطقها.

- كلايستوكاتوس ريناي، زرعتها سيلفانا سواريز، ملكة جمال العالم عام ١٩٧٩، حقاً؟

رسم على وجهه تعبيراً ساخراً، جعل سمر تبتسم. كانت تلك هي المرة الثانية التي تراه خارج العمل ومع ذلك اعتراها شعور غريب، شعور بالسعادة والتجدد، كأنما كانت ترى طفلاً يمشي للمرة الأولى.

المرة الأولى كانت يوم السبت عندما ذهبت إلى المكتبة العامة مع ياسمين. ياسمين هي سكرتيرة راي. يفصلها عن مكتب راي حائط زجاجي، ولذلك عندما تذهب لمقابلته، وأثناء تبادلهما الحديث، كانت ترى ياسمين منكبة بتركيز على ماكينة الطباعة، وشعرها الأسود المرسل يغطي وجهها. جاءت أسرة ياسمين من باكستان، ولكنها وُلدت وعاشت في أجزاء مختلفة من بريطانيا. كان من عاداتها إطلاق التعميمات الكاسحة التي تبدأ بكلمة «نحن،» للدلالة على كل العالم

الثالث وسكانه جميعاً. كانت تقول مثلاً:

«نحن لسنا مثلهم،» أو «نحن لنا علاقات أسرية مترابطة، ليست كعلاقاتهم.»

كانت بالشعبة سكرتيرتان في حجرة ياسمين نفسها. سيدتان مرحتان، تفوح منهما رائحة القهوة، بشعرهما الذي خطه الشيب وفستانيهما ذوي الثنايا الناعمة. عندما ربتت إحدهما يوماً على ثنايا بطنها، وعلَّقت بأنها لا تستطيع الالتزام بوصفات الريجيم، سارعت ياسمين إلى القول:

- أطفالنا يموتون من الجوع والأغنياء يفاخرون بسعراتهم الحرارية!

ناظم، زوج ياسمين، يعمل بعض الأحيان في آبار النفط في عرض البحر. وعندما يكون غائباً كانت زوجته تلتقي سمر في العطلات الأسبوعية. كانت تملك سيارة، وكانت سمر تحب التجوال بالسيارة، وهي تستمع إلى المذياع، وتستمتع برؤية تلك الأجزاء من المدينة التي لم ترها من قبل. كانت تتمنى أن تمتلك سيارة تحميها من قسوة الجو.

ذلك السبت ذهبتا إلى المكتبة. كانت ياسمين حبلى في أسبوعها العاشر. تريد اختيار بعض الكتب عن الأطفال. أرفف عديدة حول الحمل والولادة والرضاع. كانت المكتبة دافئة، مكتظة بالناس، مليئة بالكتب. كُتُب حول العمليات القيصرية، والإجهاض والعقم والإسقاط. أسقطت سمر ذات مرة، بعد عام من ولادة ابنها. تذكر تلك الليلة. سيلها كان قد بلغ الزبى، وتخطّى قلقها الحدود. تولّد

لديها بالتدريج شعور بأن هذا الحمل ليس على ما يرام. تذكر أن طارقاً كان هادئاً، وودوداً. كان يعرف ماذا يفعل. تذكره وهو يقعي على يديه وركبتيه ينظف أرضية الحمام، يشطف الدماء التي سالت غزيرة من رحمها الذي انشطر نصفين!

كان يربطهما شعور متبادل بالرضى، بالعرفان بالجميل. وكان ذلك الشعور هو صمام الأمان أثناء الخلافات، العميقة والسطحية، الجدية والتافهة. كان يملأ فجوات المشاعر، يرفع مؤشراتها الهابطة. هذا العرفان بالجميل كان يفاجئها في لحظات الجذب وفي الأحلام. أحلام بلا إطار محدَّد أو سياق منطقي، بل هي مشاعر نقية، وخالصة.

- لا أستطيع أن آخذ أكثر من ستة كتب. لو كان لديك بطاقة مكتبة لكنت استلفت عليها. أوه! هذه فكرة جيدة، دعينا نستخرج لك بطاقة.

- لا! ليس الآن. مرة أخرى ربما!

لم تكن تحب التصرفات العفوية والاقتراحات التي تجيء من دون مقدمات. . . نظرت إلى الصفوف الممتدة، إلى موظفي المكتبة وهم يؤشرون بأقلامهم على أرقام تسجيل الكتب. كل هذا يثير أعصابها. حاولت إقناع ياسمين بالعدول عن فكرة البطاقة.

- لن تتمكني من قراءة أكثر من ستة كتب في الشهر. ستة كتب تكفي.

ولكن ياسمين أصرت، وحاضرتها حول أن الحصول على بطاقة المكتبة واحد من حقوقها:

- أنت تدفعين الضرائب، أليس كذلك؟

لم تنتظر ياسمين إجابتها، بل راحت تحدثها عن سيدة نيجيرية لها ثلاثة أطفال، عاشت في أبردين سبع سنوات قبل أن تكتشف أن من حقها الحصول على إعانة لأطفالها!

همست ياسمين في أذنها:

- لم يخبرها أحد بذلك.

اثنا عشر كتاباً حول الحمل شقت طريقها إلى نقطة التسليف. كانت ياسمين هي التي تتحدث طوال الوقت، بينما كانت سمر تشعر بأنها مجرد مهاجرة لا تجيد الإنكليزية. تصورت الكلمات الإنكليزية وهي تفر من ذهنها، تتبخر وتحوِّل نفسها إلى ضباب خفيف. هذا ما قالته لها محاسن في ليلة الصدام الكبير. كانت ترتجف، مشحونة ببلاغة الطرف المصيب! جاءت سمر تستأذنها في الزواج من أحمد علي ياسين.

- فتاة متعملة مثلك ليست في حاجة إلى الزواج؟ أنت تتحدثين الإنكليزية! تستطيعين الاعتماد على نفسك وإعالة ابنك. لماذا تحتاجين إلى الزواج؟ ماذا تفعلين به؟ فاتحني في هذا الموضوع وأفحمته. أسكتُّه تماماً. جعلته يخجل من نفسه، هذا العجوز الأبله!

كادت سمر تشرق بدموعها. كادت تبتلع كلماتها:

- الرجل متدين، ويشعر بواجب نحو الأرامل. . .

- يمكنه أن يستغل تدينه في بناء المساجد، إنما عليه أن يبتعد عنا. كانت الأرمل في الماضي يحتجن إلى الحماية. . . الزمن تغير الآن.

كانت تريد أن تقول شيئاً، ولكن الكلمات التصقت بحلقها كالعجينة.

قالت لها ياسمين وهما تغادران المكتبة:

- هل رأيتِ كتاب راي؟ أنا متأكدة من أنه هنا. لا أحد يقرأ مثل هذه الأشياء.

حملن دزينة الكتب وذهبن إلى قسم التاريخ يفتشن هناك. أخيراً وجدنه: **الخطر الإسلامي الموهوم**، مرفوفاً في قسم السياسة. قرأت سمر التعليقات التي كُتبت عنه في الصفحة الأخيرة من الغلاف.

> «يطرح فهما جديداً للأوضاع المضطربة في الشرق الأوسط... **الإندبندنت أون صنداي**»؛
>
> «يحاول آيلز أن يبرهن هنا أن خطر استيلاء الإسلاميين على السلطة في الشرق الأوسط أمر مبالغ فيه... وتتميز حججه بالجرأة، ورؤاه بروح التحدي... **ذي سكوتسمان**.»

تحدثتا عنه بعد مغادرتهما المكتبة، صوتاهما يرتفعان فوق جلبة المواصلات وأزيز الرياح الباردة. كانت سمر تريد أن تعرف عن زوجاته السابقات. أخبرتها ياسمين أن الزوجة الأولى متزوجة الآن وتعيش في ويلز. إنها تنتمي إلى الماضي البعيد ولم ترها ياسمين مطلقاً. أما الثانية، والدة البنت التي تسكن الآن في مدرسة داخلية في إدنبرغ، فهي تعمل بمنظمة الصحة العالمية بجنيف. كانا يسكنان بكلتس، في منزل أنيق كبير... ثم رحل هو إلى شقة بالمدينة.

تقود ياسمين السيارة مطوحة ذات اليمين وذات الشمال. الكتب

في المقعد الخلفي انزلقت وتفرقت. أوقفت السيارة في شارع تحفه الأشجار المتشابكة في جزء من المدينة ليس مألوفاً لدى سمر.

- هنا يسكن راي. جئت مرات عديدة إليه مع نظام. من حسن الطالع أنك معي. أستطيع أن أعطيه هذه الفاكسات التي جاءت أمس بعد ذهابه. أكيد أنه ينتظر على أحر من الجمر أخبار البرنامج الإرهابي.

- لا نستطيع أن نفعل ذلك. هذا ليس مناسباً... ربما تُرسلين إليه الفاكسات يوم الاثنين، ولكن ليس اليوم...

ولكن ياسمين كانت قد فكت حزام السيارة، وأوقفت التدفئة، ورفعت فرملة اليد:

- نحن معاً... وهذا يختلف عما لو كانت أي منا وحدها.

قالت سمر وهي ما تزال مستقرة يحيط الحزام بوسطها:

- ولكنه ربما لا يكون موجوداً.

ولكن ياسمين كانت قد خرجت من السيارة. الدنيا بدأت تظلم، السماء ملبدة بالسحب الملونة وبدت الشمس بعيدة كما لم تكن من قبل.

عندما فتح راي الباب، شعرت سمر بفرو يلامس ركبتيها. كانت تلك قطة ضخمة سوداء دخلت معهم إلى البيت. لم تكن سمر تحب القطط. في صغرها كانت القطط الخلوية تتسلل إلى الداخل وتفاجئها وهي تنط خارجة من الدواليب أو من تحت السلالم. كانت تلك قططاً متوحشة، ضلوعها بارزة تحت جلودها المجلوطة المتسخة. بعضها كانت لها ثقوب سوداء بدل العيون. بعضها مجذومة السيقان

أو مبتورة الأذناب. وبينما تنخرط هي في الصراخ، تثير القطط حركة محمومة في الغرفة باحثة عن مخرج النجاة. وتتصورها وهي تتسلق الحيطان، وتكشط الطلاء بمخالبها، صارخة مثلها تماماً، محاولة الإفلات من شرك نصبته لنفسها باختيارها.

طارق كان يحكي قصة عن القطط الخلوية، تلك التي كانت تعيش قرب المستشفى. كان يقول:

- وجبتها المفضلة، تأتي كل يوم مع كل طفل جديد يولد... ترابض هذه القطط قرب موضع القمامة في انتظار المشيمة الريّانة بعصارتها المركزة... وعندما تأتي الوجبة المفضلة، يمكنك أن تشاهدي أجمل المعارك في حياتك كلها!!!

كان يحب إغاظتها بالقصص الدموية التي تحدث في المستشفيات. ويضحك على التعابير المذعورة التي ترتسم على وجهها عندما تستمع إليها.

قطط راي جيدة التغذية وبطيئة الحركة. كانت تتجول حول الغرفة، لامعة ورزينة، أثناء استقبال راي لياسمين وسمر ودعوتهما للدخول.

بادرت ياسمين بالسؤال:

- ماذا حدث لشعرك؟

كان شعره حليقاً، وقصيراً جداً، لدرجة أن بقاياه انتصبت كالأشواك!

ضحك وسرّح أصابعه في شعره وقال:

- أعتقد أن الحلاّق كان متحمساً أكثر من اللازم هذه المرة!

كان مختلفاً نوعاً ما عن مظهره في العمل. لم يكن يضع ربطة العنف ولم تكن ذقنه حليقة. لم تكن الشقة كبيرة، في نظر سمر. الغرفة التي جلسوا فيها متصلة بالمطبخ. النوافذ الواسعة البارزة إلى الخارج، تطل على الشارع. وعلى الجانب الآخر من الغرفة هناك نافذة مغطاة بستارة صفراء. الكتب مرصوصة تحت النافذة، والملحق الأسبوعي لإحدى الصحف منشور على الأرض.

نطت القطة وجلست في حضن سمر. لم تعرف ماذا تفعل؟! فهي لم تنظر إلى قطة من قبل بهذا القرب، لم تر هذه النقاط الصفراء في حدقاتها، ولا هذا الفراء اللامع الصقيل الذي يحتويها. أخذت تربت عليها بتكلف أخرق، وهي تستمع إلى راي وياسمين يتحدثان عن الفاكسات والجو في الخارج، والعناوين العريضة في الصحيفة التي تناولها راي وطواها. قالت ياسمين:

- أنا أمقت هذه الزوبعة المثارة حول الأسرة المالكة.

«أمقت» هي واحدة من مفردات ياسمين المحببة!!

- أمقت هذا الجو البريطاني السالح!

ذهب راي لتحضير الشاي. نزلت القطة من حضن سمر، فبدأت تنظر حولها إلى السجاجيد المعلقة على الحيطان، والزهريات النحاسية الموضوعة على الأرض. هناك صورة فوتوغرافية لابنة راي فوق أحد رفوف الكتب. تبدو في العاشرة أو الحادية عشرة وهي تركب الحصان وتلبس حذاء عالياً وقبعة بحزام حول ذقنها. تخيلت سمر أن الطفلة لها هذا الشعر الطويل الضارب إلى السمرة. تصورتها شجاعة كذلك وهي تعمل بمنظمة الصحة العالمية. وظيفة كبيرة،

ناجحة وتساعد بني الإنسان في كل مكان.

طرأ لها وهي تحتسي الشاي أنها في بيت حقيقي. لم تدخل بيتاً حقيقياً لفترة طويلة. فهي تعيش في غرفة واحدة. لا شيء على الجدران، لا شيء ذا ملمح شخصي، لا صور، لا كتب. بالضبط كحجرة المستشفى. ولا غرو أنها تصدقت بكل شيء. لم تتصور أنها تعود، لم تتصور ذلك الصدام مع محاسن. وعندما عادت واستقرت، لم تكن لديها الرغبة ولا الإمكانيات للشراء. بالكاد تدفع إيجار الغرفة. صحن واحد، ملعقة واحدة، فاتحة للعلب، طوّتان، سخان للماء وقدح للشاي والقهوة. وما عدا ذلك لا يهم، ولا يُفتقد. ظلت لأربع سنوات مريضة في مستشفى شيدته لنفسها. مريضة، سقيمة بمرض اسمه السلبية، وقت تضيعه سدى. دوامة الحزن تبتلع الزمن. الساعات تتفلّت كالدقائق. أيام لا تزيد فيها على أداء الصلوات الخمس. هذا كان هو التحدي الأخير، الخيط الوحيد الذي يشدها إلى السلامة والرشد. من دونه، من دون الصلاة، كانت ستنهار، كانت ستفقد الوعي بتعاقب الليل والنهار.

تذوقت الشاي الذي صنعه لها راي وأخذت تستمع إلى الشخصين الوحيدين الذين تعرفهما حقاً في هذه المدينة. ياسمين... وجهها مدفدف في هذه المراحل المبكرة من الحمل. ظلال غامقة تحت عينيها. هذا كله طبيعي. ستكون منتفخة ومعافاة في خلال أشهر قليلة، مستديرة في ثياب الأمومة الوشيكة. وراي... غريب أن ترى شخصاً لم تره إلا في العمل، في عقر داره! لا يحلق ذقنه في العطلات الأسبوعية.

كانت إحدى المجلات على الأرض مفتوحة وبها خرائط لمختلف

أنحاء العالم. إنها مقالة عن الخرائط التقليدية وكيف كانت تُرسَم القارات بنسب خاطئة قياساً إلى بعضها البعض، فتظهر أوروبا أكبر من أميركا الجنوبية، وأميركا الشمالية أكبر من أفريقيا، وغرينلاند أكبر من الصين، مع أن العكس هو الصحيح في كل هذه الحالات. في الخريطة الأخيرة، الصحيحة النسب، تظهر أفريقيا كامتداد أرضي أصفر هائل، وتظهر بريطانيا نقطة من الضآلة المزهرة. في بقعة ما من هذه الصفرة المديدة، قرب هذه الخضرة التي تشير إلى النيل، توجد الحياة التي نُفيت من حماها. انحنت وجلست على كعبيها لتتملى الخريطة. أسماء المدن والأماكن المألوفة، المكتوبة بالأسود على الخلفية الصفراء، أثارت حنينها. كسلا، دارفور، سنار، كادوقلي، كريمة، واو. في أعماقها غبار هذه المدن ورقة حالها... شمسها وفقرها. في أذنيها أصوات أولئك الذين صبروا وتحملوا لأنهم لم يطلبوا إلا القليل. لم يتوقعوا الكثير من الحياة. على الصفحة الأخرى من المجلة هناك إعلان عن توريد مواد تعليمية. صورة طالبات صوماليات، مبتسمات، متشابكات الأيدي. يرتدين القمصان البيضاء، القصيرة الأكمام، تحت الفساتين الزرقاء الفضفاضة، والأحزمة البيضاء حول الخصور. كانت تلبس هكذا في يوم من الأيام، كان وجهها مثل هذه الوجوه. الشعر المصفف بعناية، الجوارب البيضاء والحزام الأبيض. تذكر مشيتها مع صديقاتها، أصابعها مشبوكة في أحزمتهن. يتجاذبن:

- هيا! أسرعي! البزيانوس سينفد إن لم تسرعي!

الزجاجات لها نتوءات لطيفة مستديرة. البزيانوس بنفسجي وحلو، وليس بارداً بما فيه الكفاية! ابسطي الأرض تحت قدميك، اضغطي

حتى تستوي الأرض استواءً كاملاً. أمسكي الزجاجة الفارغة، لا تحاولي الخداع، لا تحني ركبتيك، وأسقطي زجاجتك. إذا انتصبتِ واقفة، فهذا يعني أن دعوتك ستُستجاب، رغبتك ستتحقق، وربما تعني، أيضاً، أنه يحبك!!

عندما رفعت عينيها كان راي ينظر إليها. شيء كالعطف يطل من عينيه. شجعتها نظرته:

- كنت أرتدي زياً كهذا في المدرسة الثانوية.

- أما نحن فكنا نرتدي الأردية القصيرة، حتى في الشتاء... كان شيئاً فظيعاً أن نذهب إلى المدرسة في ذلك البرد، ولذلك شعرت بسعادة كبيرة عندما فصلوني من المدرسة.

- فصلوك من المدرسة؟ ماذا ارتكبت من جرم عظيم؟

كان يضحك، ولذلك لم تكن سمر واثقة إن كان يمزح أم لا...

- كتبت مقالة قلت فيها إن الإسلام أفضل من المسيحية.

بدأت ياسمين تضحك... قالت:

- كذّاب... أنا لا أصدقك... أنت تختلق الأشياء.

- لا، هذا صحيح. كان ذلك في الخمسينيات... ربما كانوا يريدون فصلي في كل الأحوال، وكانت تلك هي القشة الأخيرة...

- ولماذا تكتب شيئاً كهذا؟

- كان لي خال ذهب إلى مصر أثناء الحرب العالمية الثانية... عندما ذهب إلى هناك صار مهتماً بالصوفية... اعتنق الإسلام وترك الجيش. تستطيعين تصور ما حدث بعد ذلك... اعتبروه خائناً

للوطن وهارباً من الجيش. كانت جدتي تقول للناس إنه مفقود في العمليات. . . وظلت تردد ذلك حتى صدَّقت فكرة اختفائه وصدَّقها معها أفراد الأسرة الآخرون! ولكن خالي ديفيد كتب لها، وكتب لأمي أيضاً، شارحاً لماذا فعل ما فعل.

أغلقت سمر المجلة. تراجع راي في جلسته. سعل ونفخ أنفه في منديل كبير أزرق. يبدو أنه يحكي هذه القصة كثيراً، ويرتاح إلى ذلك.

- قرأت تلك الرسالة. أعتقد أنها المرة الأولى التي تمر عليّ فيها كلمة «إسلام،» وأستوعب ما تعني. كنت واعياً بالطبع أن خالي أتى عملاً فاضحاً، وأثار هذا فضولي. وكان عليّ أن أكتب مقالة مدرسية. أتمنى لو كانت معي الآن رسالة خالي ديفيد، أو حتى تلك المقالة، لأنني اقتبستُ منها فقراتٍ كاملةً. ما عدا العنوان فأنا وضعته. لم يقل ديفيد مطلقاً إن الإسلام «أفضل» من المسيحية. لم يستخدم تلك الكلمة. قال شيئاً من قبيل أنه خطوة تالية. . . بالطريقة نفسها التي تلت فيها المسيحيةُ اليهودية. وقال إن محمداً كان آخر الأنبياء في سلسلة بدأت بآدم، مروراً بإبراهيم وموسى وعيسى. وإن كل هؤلاء الأنبياء مسلمون، وإن عيسى كان مسلماً بمعنى أنه سلّم لله، لم يكن ذلك مقبولاً . . . لا في الرسالة ولا في المقالة!

ضحك راي من جديد.

- وماذا حدث لخالك بعد ذلك؟ هل عاد بعدها من مصر؟

- لم يكن بإمكانه أن يعود، حتى ولو كان راغباً في ذلك! كان سيُعتقل. الخيانة، والهروب من الجيش، جريمتان خطيرتان. ظل

يكتب لأمي لعدة سنوات. كان قد غير اسمه وتزوج بامرأة مصرية وأنجب أطفالاً. أصبح لي أقارب مصريون، أقارب في أفريقيا. كان ذلك أمراً مثيراً، ورومانسياً جداً. ولكن والدتي لم ترد على رسائله مطلقاً، أو ربما كانت ترسل له رسائل وقحة، ولذلك توقف عن الكتابة. ذهبت إلى مصر وبحثت عنه لخمس سنوات، بين ١٩٧٦ و١٩٨١ عندما كنت بالقاهرة أدرّس بالجامعة الأميركية، ولكني لم أجده. ولا أمانع أن أذهب إلى هناك مرة أخرى لأبحث عنه مجدداً.

ظلت سمر وياسمين صامتتين عندما فرغ من الحديث. شعرت سمر بأنهما مكثتا في منزله أكثر من اللازم. زيارتهما إلى المكتبة بدت بعيدة. . . كأنها حدثت في يوم آخر. قطرات الشاي الأخيرة في قدحها اتخذت شكلاً عسلياً. حينها بدأت ياسمين تتحدث عن انعدام التسامح لدى البعض، وقامت سمر لتغسل الأقداح في المطبخ.

طلب راي منها أن تترك ذلك، ولكنها قالت:

- لا تزيد المسألة عن دقيقة واحدة.

ولكنها تباطأت وأمعنت النظر في ما حولها. . . زجاجة زيت الزيتون من «سيفواي.». . كيس مفتوح من أقراص الأسبرين السريعة الذوبان. . . صور أخرى لابنته، وهي أصغر عمراً وأوسع ابتسامة، معلقة على باب الثلاجة. . . على الحائط هناك صورة لمسجد «أوليغ بيع» بسمرقند، تغطي واجهته الزخارف الدقيقة، المتشابكة للفن الإسلامي. تقول اللافتة إنه بُني عام ١٤١٨، وكان مسجداً ومدرسة لا تدرس العلوم الدينية وحدها، بل الفلك والرياضيات والفلسفة أيضاً. رفعت سمر الستارة، فظهرت لها مظلة الحديقة، الأنوار في

البنايات الأخرى، والهالات المحيطة بحيوات الناس الآخرين... المياه الدافئة... الرغوة التي تفوح منها رائحة الليمون... صوت راي...

قال راي:

- في بعض الأحيان تُظهر المحاكم نوعاً من الحساسية الثقافية... وكل قضية تضع سابقة لما يأتي بعدها. في إحدى القضايا حكم أحد قضاة المحكمة العليا، بغرامة بلغت آلاف الجنيهات، ضد زوج آسيوي طلق زوجته، وذلك تعويضاً لها عن الأضرار التي لحقتها. وتمثلت تلك الأضرار في اتهام الزوج لها بأنها لم تكن عذراء عند الزواج. استند القاضي إلى أن مزاعم الرجل تمثل إساءة خطيرة إلى المجتمع الذي ينتميان إليه.

ردت ياسمين مباشرة:

- نعم، نحن نحرص على العذرية، وعلى العفة. ومن الصعب عليّ أن أصدق أن قاضياً بريطانياً، ومحلّفين بريطانيين، يمكن أن يتفهموا هذه الحقيقة... دع عنك التعاطف مع أصحابها... الناس يتفهمونها، ولكن في سياق المكان الذي تنتمي إليه، في سياق ذلك الجزء من العالم الذي يتبناها... أما هنا، فالأمور تختلف، وأعتقد أن المفهوم العام هو: «عندما تكون في روما افعل ما يفعله أهل روما.»

- هذا تفكير امبريالي نمطي.

- ربما... ولكن تغيير هذه الأشياء يستغرق وقتاً، ولا أعتقد أنه سيحدث في حياتنا.

- بل في حياتك أنت!! نحن صغار، أليس كذلك يا سمر؟

التفتت إليها سمر، يداها المرفوعتان فوق الحوض يغطيهما الصابون، قالت لياسمين:

- أنت أصغر مني.

- سأبلغ الثلاثين الأسبوع المقبل... يأتي عيد ميلادي هذا العام أيضاً وناظم غائب كعادته.

سألها راي:

- أما يزال يعمل في عرض البحر؟

- في جزر شتلاند... إنه يتجمد هناك... المسكين! ولكن الهدوء رائع في غيابه!

قالت لها سمر:

- دائماً تقولين أشياء لا تقصدينها يا ياسمين.

عندها أقفلت الحنفيات وغسلت الحوض. هناك بعض البقع حول السدادة وبين الحنفيات.

قال راي:

- اعتبر تشيخوف ذات مرة أن المرأة تتحرق شوقاً عندما تُحرَم من صحبة الرجل... ويصبح الرجل غبياً عندما يُحرَم من صحبة المرأة.

قالت ياسمين:

- هذا هراء... أنا لا أتحرق شوقاً ولا من يحزنون!!

نظرت سمر حولها بحثاً عن منشفة. وجدتها على ظهر الكرسي، عليها صورة دلفين. القطة لا وجود لها. ذهبت إلى الخارج. قد آن

لهما أيضاً أن تذهبا. . . قالت مخاطبة ياسمين:

- أنا مرهقة. . . لدرجة أنني لا أستطيع الوقوف.

كانتا تضحكان. عندما فتح راي الباب الأمامي ونزل معهما الدرجات قالت لها ياسمين وهي تحاول إغاظتها:

- كيف تكون هيئتك بعد أشهر قليلة؟

في الخارج ألمت بسمر نوبة من الهذيان. . . وربما الغيبوبة. . . أم أنها كانت حالة الجذب؟ انقلب العالم رأساً على عقب. الوطن شد الرحال وجاء إلى هنا. . . شوارعه الهزيلة الإضاءة، سماؤه ونكهته. . . أبصرت السماء خالية من السحب. . . مرصعة بالنجوم التي لا يحصيها العد. . . تخيلت الليل دفئاً. . . أكثر دفئاً في الخارج منه داخل البيوت. . . استنشقت رائحة الغبار، وسمعت عواء الكلاب الضالة والطليقة وهي تتعارك حول أماكن القمامة. . . رنين جرس الدراجة العابرة. . . نقيق الضفادع. . . صوت المؤذِّن وهو ينفخ في الميكروفون ويؤذن لصلاة العشاء. . .

ولكن هذه اسكوتلندا. . . جعلتها عودة الوعي تشعر بالخمول. . . جعلتها غير واثقة من نفسها. حدث لها شيء من ذلك من قبيل، ولكن ليس لهذه الفترة الطويلة، وليس بهذا العمق. الظلال العميقة في بعض الغرف تذكّرها في بعض الأحيان بانقطاع التيار الكهربائي في الوطن. . . ربما تخلط أحياناً بين الأزيز الخافت للتدفئة المركزية وصوتِ المؤذِّن البعيد. . . ولكنها لم تصل إلى مرحلة «الرؤيا» من قبل. الوطن لم يجئ إلى هنا من قبل.

استغرقت وقتاً في استيعاب الأناقة المذهلة للمباني. . . اللمعان

المصقول للشوارع... واستغرق جهاز التدفئة في سيارة ياسمين وقتاً هو الآخر لامتصاص رطوبة أنفاسهما على زجاج نافذة السيارة.

اندفعتا إلى الشوارع اللامعة بأضواء المصابيح، المكتظة بالسيارات... الشباب يندفعون هم أيضاً على «يونيون ستريت» وكأنهم لا يشعرون بالبرد. هذه ليلة السبت... وهذا عالم آخر.

قالت سمر:

- راي مختلف!

حوّل صوتُها الجملةَ المثبتة إلى صيغة السؤال.

سألتها ياسمين:

- كيف يبدو مختلفاً!

- إنه على درجة من الألفة... مثل أهل بلادنا.

- إنه مستشرق. وهذه مهنة محاطة بالأخطار الوظيفية.

لم تستسغ سمر كلمة «مستشرق».

المستشرقون أناس أشرار سعوا إلى تشويه صورة العرب والمسلمين. هذا ما تعلمته من كتب التاريخ والأدب في المدارس الثانوية... ليست متأكدة... ربما يكون المستشرقون المعاصرون مختلفين. تشوشت أفكارها. شعرت بالإرهاق والخواء. أضواء السيارة كانت قوية أكثر من اللازم، دوائر شرسة تتقاطع داخلها السيوف...

- هل تعتقدين أنه يمكن أن يعتنق الإسلام في يوم من الأيام؟

السراب يلمع على الإسفلت.

زفرت ياسمين وهي تقول:

- هذا سيكون بمثابة انتحار مهني.

- لماذا

- لأن شخصاً واحداً لن يأخذه مأخذ الجِد بعد ذلك. كيف ينظرون إليه بعد ذلك؟ أحد الهيبيين يلتحق بطائفة غريبة الأطوار؟ يعتنق دين المتعصبين والإرهابيين؟ هل سيعاملونه بطريقة مختلفة عن هذه؟ ألا يملك حالياً ما يكفيه من الأعداء؟ هناك من يرونه ليبرالياً أكثر مما يلزم... هناك من يتهمونه بالخيانة حتى! وذلك فقط لأنه يقول الحقيقة عن ثقافة أخرى.

- ولكن ما الذي خانه؟

- خان الغرب! ألا تعرفين؟ خان فكرة أن الغرب ليس كمثله شيء!

- ولكنك لا تستطيعين أن تتنبئي دائماً بما يمكن أن يفعله الناس... انظري إلى قصة خاله مثلاً!

- هل تتمنين أن يعتنق الإسلام حتى تتزوجيه؟!

- لا تكوني سخيفة! كنت أتساءل فحسب.

شعرت بأنها تكاد تختنق. ثمة أظافر تنشب في عنقها وتمنعها من أن تأخذ نفَساً. عيناها تؤلمانها... أنفها يؤلمها...

- كنت أتساءل فقط... فهو يعرف الكثير جداً عن الإسلام.

- هذا يزعجه.

- ما الذي يزعجه؟

- يزعجه أن المسلمين يتوقعون اعتناقه الإسلامَ لمجرد أنه يعرف عنه الكثير.

كانتا قد وصلتا إلى سكن سمر. لا تقوى على أن تفتح عينيها لتضع المفتاح في ثقب الباب. كان الضوء مصدراً للعذاب، ثم هذا الصداع، هذا الألم الأفظع من ألم الولادة.

عندما دخلت إلى غرفتها، شعرت برغبة في ضرب رأسها بشيء ما حتى تُفرغ ما بداخله. أما النوم، الذي كان يأتي بيسر في غرفة المستشفى هذه، والذي كان يأتي في سدف وطبقات ويمتد إلى ساعات، ليس راغباً في المجيء الآن. الهدوء، وغيبة الألم، لم يكونا راغبين هما أيضاً في المجيء. يا الله! يا أرحم الراحمين! ولكن حين جاء النوم أخيراً كان نوعاً من الغيبوبة اليائسة.

عندما استيقظت كانت صافية الذهن، خفيفة وهادئة. قالت لنفسها أنها ربما تكون قد أصيبت بشيء بين الصداع النصفي ونوبة الصرع.

٣

دخل آخرون الآن إلى الونتر غاردنز. الصباح كان قد انتصف. العائلات تنادي على بعضها البعض، وهي تتحرك في هدوء بين الزهور والأشجار الخضراء. طفل يجري بين سمر وراي، ممسكاً بكيس أحمر من الكريسب، أيادي جاكتته ملفوفة حول خصره. ابنها صار الآن في مثل عمر هذا الطفل. لم يعد منحنياً كوليد صغير، لم يعد يتعلم الكلام. دخل المدرسة. صار تلميذاً. كتبت لها محاسن تخبرها أن المدارس هناك لم تعد كما كانت في السابق.

- عليك أن تحضري وتأخذيه معك... هذا أحسن وفي مصلحته.

وصلت رسالة عمتها عندما كانت المدينة مغطاة بالضباب. (إلا أن ساعي البريد واصل جولاته في الظلمة الحالكة وكأن شيئاً لم يكن!) ومر عام كامل وسمر ما تزال في حالة الشلل، ما تزال فارغة وغير مبالية إزاء ابنها. الزبد... ذلك الزبد الكريه! تلك الرغوة الطافحة.

لا يمكنها أن تنسى ما قالته عمتها، في تلك الليلة عندما نشبت المعركة بينهما حول أحمد علي سعيد، صديق العائلة القديم.

- لم تمر حتى الآن تسعة أشهر، وأنت تريدين أن تتزوجي مرة أخرى... ومن؟ شبه أُميّ، له زوجتان وأولاد في عمرك بالضبط! لن أوافق مطلقاً على شيء كهذا... من أية طينة خلقت؟! اشرحي لي هذا... وضحي لي ماذا تنوين أن تفعلي؟

خلال طفولتها كان عم أحمد يزورهم وهو قادم من الجنوب، تتبعه سحابة من الغبار... تتبع شاحنته التويوتا نصف النقل... كراتين من المانغو، جوالات من السكر. كان يضحك بسعادة... تذكره سمر دائماً وهو ضاحك... إلا عندما بكى في موت طارق... كانت بطنه تهتز تحت جلابيته مثلما يحدث لها في الضحك... الدكتور... كان يسمي طارقاً دكتوراً منذ أن كان طارق في السادسة عشرة، ينتظر نتائج الامتحانات!

«طارق»! كان راي يسأل عن طارق... هناك دم أثيوبي في أسرته، في لونه البرونزي، في شكل أنفه. كان يحضّر دائماً للامتحانات، يريد أن يصبح طبيباً. طارق يترنم وهو يراجع الملخصات. جاء إلى أبردين لمزيد من الامتحانات. الجزء الأول... الجزء الثاني... امتحانات لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد... كانا وحدهما في المرة الأولى، وحدهما والصدمة الحضارية! لا محاسن ولا حنان! لا أحد في هذه المدينة الغريبة... كانا يحلمان بهذا، يتحدثان عنه طوال الوقت. ولكن مثلها مثل العجائز اللاتي يذكرن الماضي البعيد بوضوح أكثر مما يذكرن أحداث الأمس، عاشت سمر مع طارق صغير يوجد فقط داخل رأسها!

قالت تحدث راي:

- عندما كان في الرابعة عشرة، كسر طارق رجله. سقط من السلم وهو يحاول تعليق صورة في حجرته. السلم انهار هو الآخر. كان صوت الارتطام هائلاً، حتى أنه أيقظ محاسن من نومة الظهيرة. جاءت مندفعة من غرفتها وضربته بحذائها المنزلي، لأنه كان مهملاً، ولأنه أيقظها من النوم. كنت أضحك منه، لم أتمالك نفسي. وضعت يدي على فمي لأنني كنت أعرف أن من الخطأ أن تضحك والكبار غاضبون! ولكنني لم أكن قادرة على التماسك وضبط النفس. كان منظره مضحكاً وهو يحاول إبعاد السلم وتفادي ضربات محاسن في الوقت نفسه! جميل أنها لم ترني وأنا أضحك، لأنها كانت ستترك طارقاً وتلتفت إليّ!

في الونتر غاردنز، بدأت سمر تضحك كذلك. . .

- لا أملك إلا أن أضحك عندما يسقط الناس على الأرض. لا أستطيع المقاومة!

قال راي ضاحكاً:

- هذا ليس حساً راقياً بالفكاهة!!

- لا. . . بالطبع لا. . .

وواصلت ما انقطع من حديثها. . .

- أخذه والده إلى ألمانيا لإجراء عملية هناك. وضع له الأطباء مسامير في عظمة الساق. في يوم عودتهم كان المنزل ممتلئاً بالناس. كل الأنوار كانت مضاءة. جاؤوا من ألمانيا بصناديق عديدة من الشكولاتة الممتازة. . . احتفظت محاسن بها للضيوف المهمين. . . الآخرون أخذوا الماكنتوش من علبة منتهية الصلاحية. يبيعونها هكذا

في السوق الحرة... رمادية اللون وملتصقة بأغلفتها الورقية.

- صار طارق مختلفاً، كأنما كبر فجأة، مع أنه غاب شهراً واحداً فقط. رِجله كانت في الجبس، وكان يمشي على عكازتين... أنا وحنان كنا نعرج بهما حول البيت بالتناوب. وقد كتبت اسمي باللغتين العربية والإنكليزية على الجبس الأبيض.

كانا يسترسلان في الحديث بلا صعوبة عندما كانا صغيرين... ولكن الأشياء تغيرت عندما اجتازا مرحلة الألعاب النارية والدراجات... بل يبدو أن الأشياء تغيرت، كما طرأ لها مرات عدة، بعد كسر طارق لرجله. عندما تكون حنان معهما، يستطيعون الحديث، ثلاثتهم، عن الأفلام التي شاهدوها، عن الناس الذين التقاهم طارق في صف البنزين. ولكن إذا ذهبت حنان وتركتهما وحدهما، لتحضير مشروب التانغ أو الرد على الهاتف، فإن صمتاً حرجاً كان يحط بينهما. ثم يعقبه حوار لا يخلو من سخف، وهما يستمعان إليها وهي تذيب المسحوق البرتقالي في الكبايات... أو تكسر الثلج على الحوض...

- كيف حالكِ؟

- كويسة، وأنت؟

عندما تعود شقيقته يشعران بالحرج وكأنهما ارتكبا خطأً كبيراً. نغص هذا الخجل عليهما حياتهما لسنوات عديدة، كالحكاك الجلدي الذي يسببه الصوف! جعلهما يرغبان في وجود حنان حتى يتمكنا من الحديث، ويرغبان أيضاً في غيابها حتى ينفردا ببعضهما! صار طارق يرسل إليها قصاصات في المدرسة مع أخت أقرب أصدقائه إليه،

متخطياً حنان مع أنها كانت في الفصل نفسه. أذهلها الشعور بالخيانة أكثر مما أثارتها الكلمات المكتوبة! أوراق رقيقة، شفافة. ومع ذلك تثقل على يديها كالصخور! كانت تمزقها قطعاً صغيرة وتقذف بكل قطعة في مكان بعيد، خوفاً من أن يعثر عليها من يستطيع رتقها وقراءتها! تحب الحديث إليه عبر الهاتف. الهاتف أكثر أماناً. كانا يحكيان لبعضهما الكوابيس المتكررة في الأحلام... الأحلام السعيدة بالطبع! قال لها ذات مرة:

- أريد أن أقول لك شيئاً ولكن الحياء يمنعني!

ما تريده من الحياة كان غاية في البساطة... ليس ثمة مشاريع عملاقة. ليس ثمة أحلام مجنحة. كل ما كانت تتمناه هو أن تصبح محاسن أخرى عندما تكبر... تنجب الأطفال، تصير على نوع من البدانة، وتخلف رجلاً على رجل وهي تشكو لصديقات العمر الارتفاع الجنوني في الأسعار؛ الساعات الطويلة التي يقضيها طارق في العيادة! ولكن يبدو أن الرغبة في استمرار الأحوال على المنوال نفسه، هو أيضاً نوع من الطموح! فقد قُطفت حياة طارق من دون إنذار، من دون مرض، كإحدى شعيرات الوجه التي التقطت بملقاط!

- يجب أن تقول لي الحقيقة... هل كل الإشاعات التي تدور حولك صحيحة؟

هكذا سألت راي وهي تمسك بالملف.

- أية إشاعات؟

- أنت والإرهابيون... أم إن المسألة سرية للغاية؟

ضحك ووضع يده على الملف الأزرق، وقال:

- أخبريني أنت أولاً ما رأيك فيه؟

- إنه بائس!

- بائس؟

- هناك شيء بائس في ما يتعلق بالأخطاء الإملائية؛ البقع التي على الورق، على الرغم من نغمة الخطاب العالية... هناك بالطبع بعض الحقائق ولكنها معزولة عن الحياة... ليست مرتبطة بالواقع.

- كلهم هكذا.

- ينتابك الشعور بأنهم نفر أصيبوا بالذهول... أذهلتهم فكرتهم نفسها بأنهم لن يتركوا حجراً على حجر عندما تؤول إليهم الأمور... لن يُبقوا على شيء من بُنية الكون!

- إنهم يطلقون النار على أرجلهم. فليس ثمة مرجعية في الشريعة لما يدعون إليه أو يفعلونه، بالرغم من كل محاولاتهم للتبرير.

- متى تلتقي بهم.

هز رأسه بالنفي...

- لم أحصل على الوظيفة. اختاروا شخصاً آخر... شخصاً يستسيغون آراءه أكثر مما يستسيغون آرائي.

- أنا آسفة لما حدث.

قالت ذلك وتمنت لو لم تكن بدأت تلك البداية الهازئة!

- أنا آسف أيضاً. طرأ لي أن قضاء الشتاء في مصر ربما يكون فكرة جيدة!

نظر من خلال النافذة.

بعيداً عن الونتر غاردنز رأت سمر سماءً ملبَّدة بمطر لا مفر منه... زرقة معدنية... خضرة خاملة... حدائق هجرها الناس، مغطاة بالأوراق الميتة.

- الواقع أن المسألة كانت ستفيدنا في الشعبة. فنحن مطالَبون دائماً بأن نثبت أهمية خدماتنا بالنسبة إلى أصحاب الأعمال والحكومة، حتى نضمن استمرار تمويلنا.

نظرت إلى الأحواض المنتظمة... أحواض سداسية من البلّور الصخري... أنيقة... خالية من الطفيليات، ومن الأوساخ. أهو طارق الذي كان يرسم أشكالاً على الأرض برجليه؟ أم هي التي كانت تفعل ذلك؟ من كان يلوي الأغصان، ويحرك أعناق الزجاج، ويضرب برجليه حجراً تميز عن الأحجار الأخرى بشكله الغريب أو لونه الأخّاذ؟

كانت تتفادى عيون طارق بلف الأوراق الطويلة، وهي تجذبها من سوقها، حول بعضها، عقدةً إثر عقدة، وتسحق أزهار الياسمين في يديها حتى تتحول إلى عجينة...

قال راي:

- كنت أفكر فيك... وهذا هو السبب الذي جعلني أطلب منك هذه الترجمة. فهم يحتاجون إلى مترجم أو مترجمة، وسأرشّحك بكل سرور. سيكون تعاقداً قصيراً، ليس أكثر من شهر. وبعده ربما تستطيعين أن تذهبي من القاهرة إلى الخرطوم، في زيارة قصيرة. كم تبعد الخرطوم عن القاهرة؟

- ساعتان ونصف الساعة جواً.

نظرت إليه نظرة قلقة. نشأت مسافة بينهما، شيء من البرود.

- هل تتصور أنني يمكن أن أستجوب إرهابيين؟

لم يخل صوتها من نبرة التهكم، من مسحة خفيفة من التحامل!

- كل الأماكن ستكون مكتظة بعناصر الأمن. لا تقلقي من هذه الناحية. وعلى كل حال، لن يكون الكثيرون منهم قد شاركوا بالفعل في أعمال إرهابية. وأنت تترجمين بالطبع، لا تستجوبين. شخص آخر سيوجّه الأسئلة. أعتقد أنك يمكن أن تؤدي المهمة بامتياز.

جعله صمتها يواصل:

- هذه البرامج الخاصة بمحاربة الإرهاب، ليست أكثر من صخب إعلامي لإخفاء المشاكل الحقيقية، مثل البطالة والفساد الحكومي وعدم الكفاءة. فقد تحدثت إلى بعض أعضاء هذه الجماعات من قبل. ستكتشفين ذلك إذا تحدثت إليهم، ووجدتهم لا يملكون سياسات واقعية، وليست لديهم أية فكرة واضحة حول تطبيق فكرتهم الغامضة التي يسمونها «الدولة الإسلامية» أو «الاقتصاد الإسلامي.» هم يمثلون حركات احتجاجية، ولا شك في أنهم يجدون الكثير الذي يستوجب الاحتجاج عليه: الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وقمع شعبها؛ تفاهة الحزب الحاكم وافتقاره إلى الشرعية والنفوذ الجماهيري؛ واعتماد الدولة الوطنية على الغرب. هذه الجماعات تستجيب لغضب الجماهير، غضبها للفوارق الطبقية، ولكن هل ينظر إليهم الناس كبديل حقيقي؟ لا أعتقد ذلك.

قال ضاحكاً:

- سأنزل الآن من منبر الخطيب... آسف لدخولي في كل هذه

التفاصيل، ولكن فكري في الأمر. أعتقد أنها ستكون فرصة طيبة لتذهبي إلى وطنك وتزوري أسرتك.

تحولت ضحكته إلى كحة الآن!

- أنا خائفة!

أجابها من دون أن يفهم ما تقول:

- طبيعي أن نخاف من وظيفة جديدة.

وعندما لم تعلق، قال لها:

- هناك غرف أخرى في هذه الحدائق، هل ترغبين في رؤيتها؟

تحركا بعيداً عن الصبَّار، يتفيآن ظلال النباتات الخضراء، والأشجار المدارية بأوراقها العريضة وأزهارها البنفسجية، ثم النماذج المصغرة من الشلالات حيث تلعب طفلات صغيرات مع الأسماك. يتناهي إليهما من كل الجوانب تغريد الطيور وخرير المياه. أهي المياه تندفع داخل المواسير التي في السطوح لتحافظ على رطوبة الهواء، أم هي الأمطار بدأت تنهمر في الخارج؟ في الركن القصي، في بركة ساكنة، قرب دورات المياه ومخرج الحريق، كانت ضفدعة اصطناعية تعلو وتهبط. تخترق سطح البركة الآسن وتصعد، وفكاها مفتوحتان على اتساعهما، لتبصق الماء الذي يحتويها، ثم تغطس مصحوبة بالزفير، لتصعد من جديد ملبية قانونها الإلهي القاهر. الولد الذي يربط الجاكيت حول خصره كان هناك، راكعاً على حافة البركة. كان معه أحد أصدقائه، ويبدو أنهما سعيدان بحركات الضفدعة. جذب الولد قطعة من اللبان كانت في فمه، مطها ورققها، فامتدت حتى كادت تلامس الأرض، وهو ما زال يحتفظ ببدايتها في فمه.

الحركات التي تغيظ الأمهات. صرخت أمه من بعيد طالبة منه أن يضع اللبانة في فمه وألاّ يلعب بها هكذا. قالت هي لمحاسن:

- أريد أن أتزوج مرة أخرى. أريد نقطة مركزية في حياتي.

وكانت إجابة عمتها:

- ابنك هو مركز حياتك.

ولكنها تركت ابنها وراءها. جاءت إلى هنا، وأصبحت مركز حياتها غرفة المستشفى، التي تشاهد منها الناس وهم يفعلون ما لا تستطيع أن تفعله. أربع سنوات وهي في حالة النقاهة. إذا عادت إلى الوطن الآن، فلا بد من أن تعيد أميراً معها. هذا إذا وافق بالطبع. لن تهرب منه هذه المرة.

تقود الأبواب الزجاجية إلى الغرف الأخرى، حيث تُعرَض شتول للبيع في أصص مختلفة الأحجام، جذوع أشجار هنا وهناك، ونبتة فطر هائلة الحجم قُدَّت من الصخر.

عندما عادا إلى الغرفة الصحراوية كان مقعدهما خالياً، استقبلتها الأضواء بترحاب مريح. لا ضفدعة كهربائية، ولا أوراق ساقطة على الأرض. فقط هذا الجفاف الخشن الذي ألفته منذ زمن بعيد!

عرفت أن حفيف المياه الذي سمعته هو في الواقع صوت ارتطام المطر بالزجاج. كان يشبه المطر الذي رأته في حلمها. أول حلم لها عن الحاضر، المرة الأولى التي يجد فيها هذا الامتدادُ الأرضي الرمادي مكاناً له في لاوعيها. أربع سنوات هامت فيها روحها في متاهات الماضي، ولم يكن الحاضر ليظفر منها حتى بالملامسة.

قال لها راي:

- ولكن إذا ذهبت إلى الوطن، فستكون عودتك صعبة من دون شك، ولن يكون لديَّ مترجمة بعد الآن.

لحظتها، عرفت معنى عطفه! كان يعلم، إذاً، أنها مُثقَلة بولاءات أخرى، ممتلئة حتى العظام بأماكن نائية، ومشحونة بأصداء وأصوات من لغة لا يفقه أن يتحدثها!!

٤

اليوم عيد الميلاد. الأماكن كلها مغلقة: المحال التجارية، أماكن العمل. لم يمر الباص من تحت شباك غرفتها. لا يوجد جليد، الأرصفة مسودة غسلتها الأمطار. يوم قصير، شريحة فضية، باردة، ملساء، محشوة بين ليلتين. الشوارع خالية، كأنما الناس لاذوا بالبيوت وغطّوا في نوم عميق؛ أو كأنما النهار كله صار امتداداً ليوم لن يبدأ إلا في السنة الجديدة! لكن سمر كانت تعرف أن هذا كله ليس صحيحاً. هناك في مكان مجهول تبلغ الأشياء ذروتها. النشاط التسوقي المحموم للأسابيع الماضية يكشف عن كنوزه الآن: الأشجار، الديوك الرومية، الأُسر تجلس على الأرائك في غرف الجلوس. تشبه الصور التي تراها في المجلات. أناس منكفئون على خصوصياتهم، وقد جعلهم البرد هكذا. يحتفلون داخل بيوتهم، فتصبح الشوارع خالية، موحشة. هجرها الناس فلا تجديها مظاهر الاحتفال الأخرى.

يمكنها سماع صوت التلفاز من الشقة الأرضية، شقة ليزلي. ترفع المرأة صوت الجهاز لأن سمعها تدهور الآن. تناهت إليها من خلال

الألواح الخشبية في أرضية غرفتها أصوات التصفيق والموسيقى، الأصوات التلفازية المألوفة؛ الشيء الوحيد الذي لا تشمله الإجازة اليوم. شعرت سمر برفقة ما. هذا ما تُشعرها به دائماً تحركات ليزلي أكثر من جميع السكان الآخرين. الباب الخارجي يفتح ويغلق، ليزلي تهز مظلتها على البساط. إنها واحدة من أرامل الحرب. تعيش وحدها، ممتلئة حيوية بجسدها الصغير، وشعرها الأبيض غير المصفوف. ودودة ويقظة. في إحدى المرات، نادتها سمر، من قبيل التهذيب: «خالتي.» كان ذلك في الأيام الأولى، عندما جاءت سمر من الخرطوم، جريحة ومحمومة، من دون طارق، ومن دون أمير. عندما عادت بتلك الضغينة ضد عمتها. ولكنها جاءت بقلب رقيق، كادت رقته تكون مرضاً. ولذلك عندما ردت عليها المرأة العجوز والدهشة تطل من عينيها المتعبتين:

- لست خالتك، ولكن يمكنك أن تناديني ليزلي.

بكت سمر، وسالت دموعها وهي تصعد إلى الطابق الأول. دموع سهلة حمقاء. دموع تسيل من السطح، كالدموع التي يستفزّها البصل. بكت وهي التي لم تستطع أن تبكي وهي تودع ابنها.

الساعة الثالثة. بدأت الدنيا في الإظلام. أطفأت سمر الأنوار، حتى تتخفّى وهي تسترق النظر عبر النافذة من دون أن يراها أحد. كانت ترسم بعض الدوائر المتقاطعة على زجاج النافذة الرطب، وتدفع بيديها الحبب العالق بالزجاج حتى يسيل... ربما يسيل كالدموع... هل تستطيع أن تصل إلى حالة الجذب التي تسمع فيها الأذان؟ أذان المغرب، بخصوصيته القريبة من أذان الصبح، عندما يضيف المؤذن كلمات:

- الصلاة خير من النوم.

هي صائمة اليوم، قضاءً لأيام لم تصمها في رمضان. الصيام سهل من السابعة صباحاً، حيث يبدأ الفجر، وإلى الثالثة وإحدى وثلاثين دقيقة مساءً، حيث تغرب الشمس. كان طارق سيسخر من ذلك، كان سيقول إنه نوع من الغش.

- هذا أسهل من أن يعد صياماً...

تذكر الآن كيف كان يصوم عندما كان عمره اثنتي عشرة سنة، ومع ذلك كان يسبح، ويتجول على دراجته في تلك الظهيرة الملتهبة، متحدياً ومتهوراً بعض الشيء، يحاول أن يبرهن أنه قوي. ولكنهم كانوا كلهم هكذا، بمن في ذلك البنات.

- هل أنت صائمة؟

تجيب بحركة خفيفة من الرأس، أو بكلمة «آه،» باعتبار أن المسألة ليست على هذه الدرجة من الخطورة. شيء عادي لا يستحق الضوضاء. ولكن في نهاية الشهر لا يملكن إلا أن يحاكين أمهاتهن: أشهر بالصداع؛ لم أعد أحتمل... أصابني الهزال، لا أستطيع الأكل أثناء الليل!

تخطى الوقت الثالثة الآن، وصارت سمر تحصي الدقائق المتبقية: عشرين دقيقة فقط. لديها إمساكية من المسجد مدوَّنة فيها المواعيد اليومية للإفطار والإمساك. ديسمبر، ٢٥، المغرب الساعة ٣:٣١. ستأكل بلحة أولاً، ثم تشرب جرعات من الماء، وتصلي... بعد ذلك ستأكل الأرز والفاصولياء، التي حضَّرتها أمس، وتقضي ما تبقَّى من المساء في حزم أمتعتها قبل مغادرتها البلاد.

ستذهب إلى مصر في فبراير، في إطار برنامج محاربة الإرهاب. كانت قد ذهبت إلى المقابلة في لندن، ورأت الملف الذي كان الرجل يفتحه أمامه. الاستمارة التي ملأتها، صور شهاداتها، توقيع راي على خطاب التزكية. أجابت عن كل الأسئلة بثقة شديدة، كأنما هي قوية بالفعل، كأنما هي لا تعرف الخوف. كان الحافز الذي ألهمها هذه الثقة أنها سترى وطنها مرة أخرى. المهة نفسها تستغرق ثلاثة أسابيع، يقوم الخبراء فيها باستجواب المتطرفين، وستكون هي المترجمة. وستطير بعد نهاية الأسبوعين لساعتين إلى الخرطوم، وستحضر أميراً معها. وقد احتاج كل ذلك إلى تخطيط فترة جديدة في حياتها. ولكن الطاقة تجددت، ودبت الحياة من جديد في أطراف وأجزاء من الدماغ لم تُستخدم منذ زمن طويل.

عاشت أربع سنوات كأنما سُلب منها الوطن بالطريقة نفسها التي انتُزع منها طارق. أن ترى الوطن من جديد! إنه النجفة المعلَّقة على سقف حياتها، إنه دوائرها من الضياء. أن ترى من جديد الشوارع التي زرعها طارق بدراجته، الشوارع التي قطعتها هي كل يوم ذاهبة إليه بصحبة حنان، متجهة إلى المطار، مولية ظهرها إلى حيث تغيب الشمس بعد قليل. أن تذهب إلى حيث حدثت كل الأشياء، إلى بيت عمتها، إلى حيث الضحكات التي انطلقت في عرسهما، والنيران التي اشتعلت عندما عادت بطارق. . . الجثمان. أشياء تتألق ثم تموت: الرسم بألواح الثلج على البلاط الغامق الحمرة، الخوف من الكلاب الضالة، أحلام اليقظة التي تداهمها حول صورة زفافها في خضم أعراس الآخرين، زيارات راميات «الودع» اللائي لا يجبن عن الأسئلة التي جاءت من أجلها.

انخفض صوت التلفاز إلى همهمة رتيبة. كانت تلك كلمة الملكة. قالت سمر لنفسها إن راي سيكون الآن يستمع إليها في إدنبرا، مع أسرته، بعد غداء عيد الميلاد. يجلسون في غرفة مطلية بالأحمر والأخضر. منظر شبيه بذلك الذي تراه في الكاتالوغ الضخم الذي يأتيها مجاناً، من خلال ثقب البريد. لا بد من أنه يهتم بما تقوله الملكة هذا العام، مما لم تقله العام المنصرم. شعرت سمر بانفصالها عنه: منفية وهو في وطنه؛ صائمة وهو يأكل الديوك الرومية ويحتسي النبيذ. إنهما يعيشان في عالمين تشطرهما الحقائق البسيطة: الدِّين، الوطن، العِرْق. هذه المعلومات التي تملأ الاستمارات. ولكنه لم يعد يشرب، قالت لنفسها. هو الذي قال لها ذلك، وأصبح بالتالي أقل تهديداً في خيالها. هذا شيء جعله لا يبدو مختلفاً كثيراً عنها. منذ البداية، شعرت بأنه ليس منهم. ليس «عصرياً» ولا نافد الصبر مثلهم. إنه يتحدث إليها وكأنها لم تفقد شيئاً، كأنها سمر التي عرفها منذ زمن بعيد. ليس مرة واحدة، أو مرتين، بل في كل مرة تحدث إليها كان يتحدث هكذا. كان ذلك يغريها في كثير من المرات، عندما تسقط أقنعة الحذر، أن تسأله: من أين تعرفني، ولماذا أنت مختلف عنهم هكذا؟ تكاد تعترف له: «لستُ قوية إلى هذه الدرجة».

كانت قد تمادت نوعاً ما عندما زراته مع ياسمين ذلك اليوم في منزله. حتى زيارة الونتر غاردنز عادت منها بذلك العمى الذي ينزل عليها فجأة، قاضماً جزءاً من البنايات الصخرية، ومخفياً أجزاء من السيارات العابرة.

ولكنها ستذهب إلى وطنها في فبراير، ويمكنها أن تغير خططها جميعاً. يمكنها أن تبقى هناك إلى الأبد، فيتحول هو إلى مجرد

ذكرى لشخص شعر نحوها بالعطف في يوم من الأيام. تتذكر جدول أعماله، محاضراته، دروسه الخاصة، وأسماء طلاب الدكتوراه الذين يشرف على رسائلهم: طالب يتسم بالجدية الشديدة من سيراليون؛ سيدة جزائرية متعثرة في اللغة الإنكليزية؛ طالبان إنكليزيان بنظارات ضخمة يشرفان على الدروس التدريبية لبعض فصوله. سمر تحب الحديث مع هذين الطالبين. في فترات الغداء واستراحات القهوة والشاي، فوق ضجيج المقاهي الجامعية وخدماتها الذاتية، كانت تحرك الحديث في اتجاهه. تبتسم وهما يُثنيان عليه، أو يسخران منه، ومن الطريقة التي يقول بها: «ولماذا يا ترى؟»

اكتسبت كلمات الطالبين نكهة غنائية، تشب إلى الذاكرة وتستفزها من دون سبب معلوم.

ستذكر في الوطن، مع قوم عرفتهم طوال حياتها، بعض التفاصيل التي عرفتها عنه. أسماء الكتب المرصوصة على الأرفف في غرفة مكتبه: **كيف أحبطت أوروبا تقدم أفريقيا**؛ **معذبو الأرض**؛ **الدين في العالم الثالث**؛ **الثقافة والامبريالية**؛ **الإسلام الراديكالي**؛ **الإرهاب في أفريقيا**؛ **التطرف الإسلامي في مصر**.

كانت تعرف الطرق المختلفة التي يتحدث بها. سألته بتحفظ وحذر شديدين، كيف حصل على «وثيقة النداء»؟

- لديّ أصدقاء...

قال ذلك بصورة لا تخلو من تبجح، وهو يمسك بالوثيقة الملوثة في يده.

- الباحثون يمكن أن يُقتلوا من أجل وثيقة أصلية كهذه...

تذكر صوته في الإذاعة أثناء برنامج للحوار... كان يتحدث معها بعصبية وانفعال غريبين...

- هذا ليس هو الخطر الأكبر الذي يواجه الغرب. وإذا نظرنا إلى الدمار الحقيقي الذي سببه الإرهاب، فإن نصيب المتطرفين الإسلاميين منه أقل مما سببه الجيش الجمهوري، أو الألوية الحمراء، أو عصابة بادر ـ ماينهوف، أو منظمة الباسك الانفصالية («إيتا»).

حدث تحوُّل طفيف بعد الونتر غاردنز. كان ذلك بعد يوم طويل مزدحم. طرقت باب مكتبه، ودخلت. قال وهو يُرجع كرسيه إلى الوراء:

- بالنسبة إليك أنت، هناك دائماً متسع من الوقت، لا أستطيع احتمال أي شخص في مثل هذا الوقت من اليوم... سواك.

وحينما كان يحاضرها:

- ما يُسمَّى البلد النامي يتميز بثلاثة أشياء: أولاً: اقتصاد يعتمد على التصدير؛ ثانياً: بنية تحتية غير مكتملة؛ ثالثاً: تاريخ من السيطرة الاستعمارية.

كانت تعرف أنه مصاب بأزمة ربو. أزمة أصلية وليست تلك التي تسببها الحساسية. كان يستنشق جرعتين من الفينتولين من نشاقة زرقاء. كان يهزها أولاً، بصورة لا تلفت النظر لأنه يفعل ذلك أثناء الحديث عن شيئ آخر. ولكن استعمالها كان يترك خيطاً من المسحوق على شفتيه، لا يفتأ يزيحه بلسانه. الصوت الذي يشبه الصرير الخفيف من صدره، حينما تسترق السمع. كان يبدو مرهقاً في نهاية اليوم. يعاني صعوبة التنفس، والشتاء على الأبواب بجراثيمه وسعاله واعتذاراته.

«عفواً يا سمر؛ معذرة يا سمر، آسف يا سمر،» حتى أن صدرها نفسه يبدأ في إيلامها.

تحول بعد الونتر غاردنز. طلب منها أن تتغدى معه، في مكتبه، بحائطه الزجاجي الذي تلمحها منه السكرتيرات اللائي تفوح منهن رائحة القهوة، وهن ينكببن على إرسال تهانئ أعياد الميلاد. وحيث ياسمين، ممتلئة بحملها الآن، تحملق فيها عبر الزجاج. كان فخوراً بغدائه الذي حضّره بعناية شديدة. ساندويتش التونا، الخبز الجاف، تفاحتان، وأربع قطع من البسكويت، وعلبة من إيرن ـ برو. شعرت سمر ببعض الحرج وهي تقول لنفسها: أهذا ما يفعله كل صباح، يحضر غداءه بعناية فائقة؟ الساندويتش الذي حضرته هي كان ممسوحاً بالزبد فقط، وملفوفاً بالغلالة اللاصقة نفسها التي استخدمتها بالأمس. هل تستطيع أن تفعل أكثر من جرجرة رجليها إلى العمل في ذلك الظلام الصباحي؟

يا للرعب القاتل، إنها حقيقية بالفعل! هناك من دون أدنى شك نقطة خضراء على حافة قطعة الخبز التي تمسكها بين يديها. بقعة يعلوها زغب يعلن التآكل والفساد! يا للعار! ساندويتش تفوح منه الرائحة!

الانسحاب المصحوب بغبار الخرق واللهوجة! الغياب والتفادي الذي استمر عدة أيام. تفاديه هو وتفادي ياسمين. لا شيء غير الاستماع إلى طلابه وهم يمدحونه؛ أغان من سيراليون؛ مدائح بالعربية من السيدة الجزائرية.

فتحت الحنفية، خفض اندفاع المياه صوت التلفاز من غرفة

ليزلي. كانت سمر من بين كل سكان العمارة هي التي ترى ليزلي أكثر. ليزلي هي التي ترد على الهاتف في الاستقبال. وهو جهاز عام، يستخدمه الجميع ما عدا ليزلي نفسها التي تملك هاتفاً جوالاً به حافظة للرسائل الصوتية. (جائزة فازت بها من كاتالوغ ليتلوود). عندما تتجاذب سمر أطراف الحديث مع ليزلي، غالباً ما تتحدثان عن الجو، أو تبادر ليزلي بالشكوى من السكان الآخرين؛ من الطلاب الذين تشاجروا واستدعى أحدهم الشرطة «شوفي المبالغة!،» وكيف انتهت الفتاة التي تسكن الغرفة «٣ ـ ب» في قسم الحوادث، لأنها غطت جسمها بزيت الطعام واستلقت في العراء تحت شمس تموز الحارقة. كانت ليزلي مشغولة دائماً، فهي تخرج مهما كان الجو لتلعب البنغو. في تلك الأيام التي كانت سمر تصعد وتنزل السلالم متألمة، كانت معجبة بليزلي، التي تكبرها بسنوات عديدة وتفوقها امتلاءً بالحياة. كانت تعيش وحدها ولكنها تملأ مع ذلك، وبمحض كيانها الفرد، الشقة والحديقة، وتضمن لنفسها موطناً في الوجود.

بلغت الساعة الثالثة وخمساً وثلاثين دقيقة. تناولت سمر بلحة، وجدتها أكثر حلاوة لأنها كانت بداية الإفطار، ثم تناولت جرعات الماء. أحست بأنها بسيطة، ليست أكثر من شخص له مطالب متواضعة، سهلة التحقيق، ميسورة الاستجابة. جعلها التمر والماء تشعر بأن قلبها يكبر، لا شوق، لا توق، لا طيب، لا أسىً.

غسلت يديها. وجهها المبتل في المرأة ليس مختلفاً عن سمر القديمة. ربما تكون أكثر نعومة. ولكن ربما تكون قد شابتها غشاوة ما. ربما تكون العينان أقل تألقاً. غسلت رجليها. بالأمس كانت قد لاحظت رجليها، لاحظت جفافهما الذي أزعجها، فاشترت حجراً

وكشطت تلك الطبقة الخشنة من الجلد التي بقيت هكذا منذ سنين. لاحظت شعرها كذلك. وضعت عليه طبقة من الزبد الخالي من الملح كما كانت تفعل في السابق، ولفته بورق الألمنيوم، فشعرت بالرغوة وهي تذوب في فروة شعرها، وذلك قبل أن تغسله بالشامبو. سيصبح شعرها أقوى بهذه الطريقة. سيصير أكثر لمعاناً بعد سنين طويلة من الإهمال، وبعد أن طغت خصل الشَّيب التي لم يرها طارق.

سجادة صلاتها بها عبل حريري الملمس في أطرافها، لها رائحة طيبة تحبها. هي الثابت الوحيد في حياتها، هذه الحياة الغريبة، التي تتخذ مسارات لا يمكن للعقل أن يتصورها أبداً. جلست بعد أن فرغت من صلاتها للتسبيح. تعد على أصابعها، ثلاث مرات لكل إصبع: «استغفر الله، استغفر الله، استغفر الله. . .»

كرَّرت الاستغفار تسعاً وعشرين مرة، ثلاثين مرة. . . سمعت رنين الهاتف في الطابق الأرضي. . . إحدى وثلاثين مرة، اثنتين وثلاثين مرة، خطوات ليزلي على السلم. . . ثلاثاً وثلاثين مرة، وتشتّت ما تبقّى من تركيزها مع الطَّرق على الباب.

بدا صوته محتجاً.

- راي يتكلم.

عبارات التحايا المعروفة. كانت بطيئة في إجاباتها، وهي تتساءل لماذا يتصل بها أثناء الإجازة من مدينة أخرى؟

سألها:

- هل كنت نائمة؟

ضحكت، وشعرت ببعض الدفء نحوه، لكونه يفكر في القيلولة في هذه الظهيرة البريطانية المظلمة، في اليوم الأول من أعياد الميلاد!

- استطعتُ في النهاية أن أعثر على رسالة الدكتوراه الأزهرية التي حدثتك عنها.

تذكر أنه حدثها عن شيء كهذا. كان موضوع الرسالة هو العدل والحكم، أو الحاكم العادل، لا تذكر تماماً.

- أوه... هذا جيد! هل كان العثور عليها صعباً؟

- كان بطيئاً... ولكنني سعيد الآن.

ولكنه لا يبدو راضياً. صوته يشي ببعض التوتر.

- سنلتقي عندما أعود. يمكن أن تبدئي بترجمة الملخص، والعناوين، وربما المقدمة. ستغادرين بعد فترة قصيرة ولن يكون لديك متسع من الوقت.

- ستة أسابيع... حوالى ستة أسابيع.

- تحسبين الأيام إذاً؟

- بعض الأحيان... أعتقد أنني يمكن أن أترجم المقدمة أيضاً... ليست طويلة جداً.

- سنرى عندما أعود وأُطلعك عليها.

توقعت أن ينهي المحادثة هنا، ويودّعها. لم تتوقع الصمت الذي حل بعد ذلك. سألته:

- هل تستمتع بالإجازة؟

- لا، أبداً. هناك أحاديث لا تنتهي عن الطعام في هذا المنزل.

إنهم خبراء في الطعام هنا. . . ذواقون أيضاً. . . عندما يتناولون طعامهم، يتحدثون في الوقت نفسه عن الوجبات الأخرى المقبلة، وعن الوجبات التي مضت. أثناء الإفطار، يكون الخلاف حول الغداء وما يعدّون له!

تشير «هم» هنا إلى أهل زوجته السابقة، كما كان واضحاً لسمر. وقد ذهب إلى هناك لأن ابنته مايري كانت هناك، تقضي العطلة المدرسية في بيت جدها. ما تزال أمها في جنيف، محل عملها مع منظمة الصحة العالمية.

صدمة حضارية بالنسبة إلى سمر. عجوز في إدنبرا يسمح لطليق ابنته بالإقامة في منزله! ربما يكون هذا هو السلوك الحضاري. في بلادها يكون الزوج الذي طلق زوجته «ابن كلب،» وتصبح الزوجة السابقة «معتوهة،» ويعامَلان على هذا الأساس! لا يستمران «أصدقاء،» لا يتبادلان الأحاديث بعد الفراق.

سألته عن ابنته. قال إنها جميلة، وغرقت اليوم في هدايا عيد الميلاد. قال إنه كلما رآها من جديد، يستغرق الأمر يوماً أو يومين ليظفر منها بأجابات أكثر من «نعم» و«لا» أو «لا أعرف.» ولكنها بعد ذلك تتكلم من دون توقف حتى تضايقه. لم يستطيعا في كل الأيام السابقة أن يهربا من الحصار المضروب حول المنزل، ليذهبا إلى بيرغر كينغ ومحل آخر لوجبات الكباب السريعة. أخبرها أنه يريد أن تشب مايري لتكون «مخربة» مثله!

قالت سمر وهي تتحدث عن زوجته السابقة وأهله والطعام:

- ربما يرغبون في رجوعكما إلى بعضكما، ولذلك يبالغون في

الترجيب بك.

لا يندهش مطلقاً لأي شيء تقوله... تعوّد على هذا الآن.

- أبداً... ليس الأمر كما تعتقدين... إنهم راضون تماماً عن الأشياء كما هي الآن. عندما تصعدين سلم النجاح في منظمة الصحة العالمية، فإن آخر ما يمكن أن تفكري فيه هو وجود زوج إلى جانبك، يحتج وينتقد الأمم المتحدة، فاضحاً سياساتها المنافقة.

أحكمت سمر قبضتها على سماعة الهاتف... وحملقت في الدراجات المحفوظة تحت السلم؛ ونظرت إلى لافتة: «لا تنسَ مفاتيحك» على الباب الأمامي.

- قبل يوم من مجيئي إلى هنا نزلت إلى قسم شؤون الموظفين، كنت أود تصوير وثيقة ما. كانت آلة التصوير في حجرة صغيرة لم أدخلها من قبل، أُسدلت فيها ستائر عليها أشكال ضخمة برتقالية وبنية. أشكال من طراز السبعينيات، أصبحت قديمة الآن. ذكّرتني بمنزلنا. كانت لنا ستائر كهذه، ألوانها زاهية، برتقالية وزرقاء وبنية. كان منزلاً جميلاً، بُني أواخر الستينيات. وكان مشرفاً على نهر «ألدي.» المطبخ وغرفة الجلوس بالطابق الأعلى. وكانت هناك نوافذ من القاعدة حتى السقف، وعلى طول الغرفة، حتى يظهر المنظر كاملاً. كان منظراً بديعاً بالفعل، يمكن أن يذكّرك بالنيل يا سمر، بالرغم من أن النيل أوسع وضفافه أقل تعقيداً. لقد ذكّرني فعلاً بالنيل... كنا قد حضرنا لتونا من مصر وقتها... هي لم تحب القاهرة كثيراً... كانت تحب المشي، والقاهرة ليست مدينة للمشاة. أذكر أيضاً عندما بعنا ذلك المنزل، وجاءت هي من جنيف لتحزم

أمتعتها... كنت أحضر من العمل وأجدها جالسة على الأرض، تدخّن وتصنّف الأشياء. أشياء بلا حصر... كتب، اسطوانات، ملابس قديمة. لم نكن نحب التخلص من الأشياء. كانت المجلات والصحف تتكوم هكذا كما تشاء لها الأيام. أقفلت الصناديق بعد أن قامت بقسمة كل الأشياء. تركت لي كل ما يتعلق بشمال أفريقيا، كل الأشياء الإسلامية.

عندما التقينا أول مرة كنا ندخن معاً... ندخن السجائر وندخن أشياء أخرى كذلك. كان ذلك ما يفعله الآخرون أيضاً في تلك الأيام. كانت هي تدخن حتى أثناء حملها... وحتى ولادتها... ولم أتوقف أنا إلا عندما ساءت صحتي واستشرت فيَّ أزمة الربو... ومع ذلك، كان المنزل ما يزال يمتلئ بالدخان... دخان السجائر ومرارة العواطف.

تستطيع سمر أن تتصور منزلاً بستائر برتقالية، ومنظر النهر، والغرف المكتظة بالأشياء الجميلة. الأشياء الأوروبية والأفريقية. أما داخل المنزل فكانت الحياة دخاناً وعواطف مريرة.

- أثناء الليل كان ينشب العراك... كنت أشعر براحة هائلة عندما أذهب صباحاً إلى العمل، عندما أتحدث إلى الطلاب، وأهدئ نفسي بمحاضرة عن تحليل السياسة الخارجية. كنت أبقى هناك لفترات متأخرة، أتفادى الذهاب إلى المنزل. وكلما ذهبت متأخراً كلما بدأ العراك متأخراً، وكلما استمر حتى الصباح. الحرمان من النوم نوع معروف من أنواع التعذيب... كنت أغفو أثناء قيادتي السيارة... في إحدى المرات، نمت وهي ما تزال تتكلم. كنت كمن تناول مخدِّراً... هزتني حتى استيقظت، وهي تصرخ:

«اسمع، اسمع، أَصغِ إلي!!»

هنا بدأ يسعل. واستمر يسعل حتى شعرت سمر بالألم. كانت الأرضية باردة. تناهت إليها من خلال باب ليزلي نغمات البيانو في عرض كوميدي... سألته:

- هل أنت مريض؟

- إنّ حالتي سيئة. يبدو أني على وشك المرض.

نقلت سمر السماعة من يد إلى يد. كانت تريده أن يستمر في الحديث، أن يتحدث حتى تتسطح أذناها وتتقرَّحا...

- أنا آسف، فقد تحدثت أكثر مما يجب.

- لا.

بحثت عن شيء تقوله، شيء يليق بالمناسبة، شيء مفعم بعاطفتها التي لم تَبُح بها بعدُ نحوه... فقد تحدث معها بحميمية، وكل ما استطاعت أن تقوله «هل أنت مريض؟

بدأت تتحدث عن العمل... جعلها هذا تشعر بثقة أكبر.

- وجدتُ ترجمة للأحاديث القُدسية... باللغتين العربية والإنكليزية... صفحة عليها النص العربي، وعلى الصفحة المقابلة الترجمة الإنكليزية. وهناك أيضاً مقدمة جيدة عن اختلافها عن القرآن.

- ماذا يقولون في ذلك؟ كيف صنَّفوا المسألة؟

لم تكن مستعدة للخوض في هذا الموضوع. هي أرادت فقط فرصة للتحدث معه وقتاً أطول. ترددت قليلاً... قالت إن الكتاب بالطابق الأعلى، ويمكن أن تحضره إذا كان مضيفوه لا يمانعون في

محادثته الطويلة.

- لا تهتمي بهذا الجانب، فهؤلاء الناس منظَّمون جداً. . . تأتي فواتيرهم مصنفة. كنت قد اتصلت بمصر والمغرب وسأسوّي الأمر معهم لاحقاً.

بدا صوته أكثر انشراحاً مما كان.

صعدَت السلَّم جرياً. . . هذا السلم نفسه الذي كانت تصعده درجةً درجةً مجرجرة وراءها أحزانها، أصبح صعوده الآن شيئاً مختلفاً، يضيء درجاته الآن ضوء مختلف. كانت هي وليزلي وحدهما بالمنزل. الآخرون جميعاً ذهبوا في إجازاتهم، تستأثر في غيابهم بصعود السلّم وهبوطه وحدها. أين هي الآن؟ في أي بلاد هي؟ أي عام يا ترى؟ صعدت السلم في هذيان أظهر لها العالم في صورة مختلفة. استحوذ الوطن والماضي عليها هنا، وجلبا إلى حياتها التوازن الذي كانت تبحث عنه. السلم المضاء بالأضواء اللامعة، الدافئة. صخب الاحتفال، همهمات الناس وهم يتبادلون الأحاديث الودودة. ضحكات هنا وهناك. كانت هي داخل الإطار الضاحك، ترتدي ثوباً جديداً، تحمل صينية، تتفادى الأطفال الذين يندفعون من حيث لا يتوقع أحد، مصطدمين بركبتيها. كانت تقدم أكواباً من مشروب غامق لذيذ، وعندما يمتنع أحدهم عن تناول الكوب تلح عليه وترجوه حتى يستجيب ويأخذه. ينادي أحد عليها. تنظر إلى الوراء، تحدد موقع الصوت، تصيح بأنها قادمة.

جلست على أرضية البهو وبدأت تقرأ له الملاحظات التي دونتها من الكتاب، على الهاتف.

- التفسير الذي يقدمه العلاّمة الجرجاني يقول:

الحديث القدسي هو، من حيث المعنى، من الله تعالى، ومن حيث اللفظ، فهو من رسول الله، عليه الصلاة والسلام. إنه ذلك الحديث الذي أبلغه الله تعالى لرسوله من خلال الوحي، أو الرؤيا، ثم حكاه، عليه السلام، بكلمات من عنده. ولذلك، فالقرآن أعلى مرتبة منه لأنه، إضافة إلى كونه وحياً، فإنه كلام الله.

وفي تعريف قدمه باحث متأخر هو القرّي.

الأحاديث القدسية، على عكس القرآن، لا تجوز قراءتها في الصلاة، وليس محظوراً مسها أو قراءتها في حالة النجاسة... كما أنها لا تتصف بصفة الإعجاز.

قال راي:

- هذا واضح جداً. شكراً لك. ماذا عن محتواها؟ أتخيل أنها لا تتعلق بالتشريع؟

- هذا صحيح. هناك قسم عن محتواها.

وجعلت تقلب صفحات الكتاب...

- إنها توضح معنى الألوهية... يتخذ أسلوبها شكل التعبير المباشر... سأقرأ عليك واحداً منها:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

يقول الله عز وجل:

أنا عند ظن عبدي، وأنا معه حيث يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في

ملأ خير منهم، وإن اقترب إليّ شبراً تقرَّبتُ إليه ذراعاً، وإن اقترب إليّ ذرعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة.

كان راي بطيئاً في إجابته...

- هل كنت ستترجمينه بكلماته ولغته؟

- بالنسبة إلى الجملة الأولى، هناك ملاحظة تقول إنه يمكن ترجمتها بحيث تعطي معنى التوقع أو التخيل أو التفكير.

- في هذا المجتمع العلماني، التصور السائد هو أن الله تفرغ الآن للعب الغولف. باستثناء القلة، وبصرف النظر عن أولئك الذين يتخذون مواقف إلحادية صريحة، التصور السائد هو أن الله خلق هذا النظام الشمسي الدقيق، ثم تركه ليدير نفسه بنفسه. ولذلك، وفي عرفهم فإن العالم لا يحتاج إلى الله لإصلاحه أو حفظه. ويعتبرون الإنسان مكتفياً بذاته؟

- ولكن لماذا الغولف؟ لماذا الغولف بالتحديد؟

لأول مرة ذلك اليوم، ضحك راي ضحكة عالية.

٥

صباح عيد الميلاد، وكل الأسبوع الذي تلاه، وحتى عشية رأس السنة الجديدة ـ الهغمانيا كما يسمونها في اسكتلندا ـ وقبل أن تمتلئ الشوارع بالسيارات وتلاميذ المدارس، وقبل أن يعود السكان الآخرون من العطلات، كانت سمر تنتظر على الأرض، محصَّنة ضد البرد بطبقات من الملابس الصوفية، والجوارب، وأريكة تجلس عليها، عازلة بينها وبين الأرضية الخشبية. المحرج في المسألة هو توقيت المحادثة؛ الرنين الحاد للجرس، والمعرفة المسبقة بأن المحادثة القادمة تخصها هي، المعرفة المسبقة بالمتصل الذي على الخط. الجُمل الأولى خرقاء هي الأخرى. اسمها. هالو. الجو: الثلج يتساقط في إدنبرغ. البرد قارس في أبردين. الهواء متجمد هناك.

- كيف أنت؟

- كيف أنت؟ كيف مايري؟

- ماذا تأخذ للبرد؟

قال إنه قرأ في الصحف أن الآلاف قد سافروا في إجازاتهم إلى

الخارج ذلك العام، بحثاً عن التزلج أو الشمس. الأماكن المفضلة هي قمم التزلج في فرنسا أو تناريف. قال:

- هذا أفضل الفصول في المغرب وليبيا والشرق الأوسط.

يتذكر راي رحلة بالقطار في السبعينيات، من طنجة إلى مراكش. هطلت أولاً الأمطار، ثم أشرقت الشمس من جديد. أعطاه رجل بشارب ضخم سيجارة، ثم تحدثا عن الغارة على عنتبي. يتذكر راي تلك الأيام التي كان يتنفس فيها مثل الآخرين، عندما كان هناك هواء نقيّ أكثر في هذا العالم.

قالت:

- عندنا شتاء في السودان. يصيب البرد البشرة، ولكنه لا يخترقها إلى العظم. يكتفي بالشقوق التي يصيب بها جلود الناس، ويحولها إلى لون الرماد.

أخبرته أن البرد كان يؤذيها عندما كانت صغيرة، وأنها تذكر استعمال «الغلسرين،» وهو ساخن، يحرق، وكيف كانوا يقولون لها، لا تلحسيه بلسانك، لا تلحسيه أبداً، ثم «الفازلين» الذي لا طعم له، في علب البلاستيك، مختلطاً بحبات الرمل، البنية الخشنة، وسط الفوضى الفضية الضاربة، أو كريم النيفيا، بعلبته الزرقاء الأنيقة وإعلانها الألماني في التلفزيون.

سألها:

- ما الأعمق زرقة: النيل أم علبة النيفيا؟

قالت إن الألوان تصيبها بالحزن. الأصفر الذي تعرفه، والأخضر الذي تعرفه، لا يوجدان هنا. الألوان هنا ليست لامعة، ليست نقية

كما يجب أن تكون. ثم عددت الاختلافات: الجو؛ الثقافة؛ الحداثة؛ اللغة؛ صمت المؤذن. إن ألوان الطمي والسماء وأوراق الأشجار، مختلفة أيضاً.

قال ونزلة البرد قد غيرت صوته:

- أعتقد أن النيل أكثر زرقة. ألم تتأمليه؟ هل كنت تشاهدين مسلسل «بيتون بليس» بدلاً عن ذلك؟ أتساءل عن ذلك لأن الأطفال الفلسطينيين في الضفة الغربية يقذفون الجنود الإسرائيليين بالحجارة في الصباح، ويشاهدون مسلسل «دالاس» في الأمسيات وهم يجلسون معاً على الأرض.

قالت:

- في الأمسيات، كنا ننام خارج الغرف. كنا نُخرج أسرَّتنا عند الغروب، حتى تكون الملاءات باردة في ما بعد. كان الجو حاراً بحيث إن الملاءات التي تؤخذ من خزانات الملابس، للنوم عليها، تكون غير مريحة إلى الدرجة التي تستدعي تبريدها في البداية! كنت في الليالي أرى الوطاويط في السحب وأشباح الطيور. كان يطوِّق القمرَ ضوء آخر كعقد بنفسج فضي، يأخذ الشكل نفسه كل مساء. كان الأطباء المسلمون في الماضي البعيد، ينصحون أولئك الذين يعانون من الاضطرابات النفسية بالنظر إلى السماء، وأن ينسوا ضِيق الكوكب الأرضي، وأن يتخيلوا أن هذه السماء، كل هذه السماء، ملكهم وحدهم! الهلال، القمر، النجوم الأكثر من العيون التي تنظر إليها. ولكن السماء كانت مجانية، بلا ثمن، لا أحد ممن أعرفهم يتحدث عنها، لا أحد ينافس من أجلها. بدلاً عن ذلك، فإن كل

الذين استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، بدأوا، الواحد تلو الآخر، ينامون بالداخل، في الغرف الباردة، المكيفة الهواء، وعن البعوض، وعن الذباب، وبعيداً عن نغم أذان الصباح. وحالياً، عندما يشيِّدون المنازل الجديدة، عندما يبنون العمارات، لا يتركون مكاناً للناس ليناموا في الخراج. أصبح ذلك شيئاً من الماضي. أصبح شيئاً أستدعيه من الذاكرة.

قال:

- هذا هو العدو. هذا هو الذي لا يمكن أن يرد ما وصل إلى أقصى الأماكن في الوجود. ليس ثمة فرصة للتراجع. يمكنهم أن يفجروا ما شاؤوا من باصات السياح، وأن يحرقوا العلم الأميركي، ولكنهم لا يصيبون العدو. الأسباب كلها داخلهم. ما يُشعل غضبهم، ما يضعهم خلف المتاريس، ما يُفقدهم ثقتهم بأنفسهم، كلها تكمن داخل نفوسهم.

بدأت تفكر في ذلك. حضَّها على أن تفكر فيه. هناك أشياء أمامها. الدراجات تحت السلم، شمس الشتاء وهي تطل من خلال أطراف فتحة البريد. ولكنها، برغم وجودها، ليست حقيقية. الحقيقي أنها وُهبت الفرصة، وأُعطيت الإذن للتفكير والكلام. وهو لن يندهش لأي شيء تقوله. كأنما أعطاها وعداً بألا يندهش مطلقاً. الدهشة كانت جزءاً من المدينة؛ جزءاً من البنايات الغرانيتية؛ ومن الباصات التي تتسرب عبر أضيق الشوارع. والدهشة لها ظلال وأنواع: الدهشة الهازئة؛ الدهشة المحرجة؛ الدهشة المربكة؛ والدهشة الموبخة. وهذا كله يحملها على الصمت، يجعلها توظف أسنانها وشفتيها في خدمة الصمت.

ولكن القواعد خُرقت الآن! خرقتها هي عندما قالت وإصبعها على صفحة المجلة:

- كنت أرتدي زياً كهذا في المدرسة.

خرقت القواعد، وانفجر رأسها أجزاء صغيرة باهرة.

الليلة الأفريقية الأولى. تكلمت هي أولاً، لأنها، مثله، وُلدت في هذه المملكة الشتوية. رحلت مثله إلى أفريقيا وأحبتها.

وصلوا من لندن ليلاً. أب بشهادة متفوقة؛ وأم ولدت أطفالها في الخارج؛ وسمر بسنواتها السبع. كانت تلك هي رحلتها الأولى بالطائرة. الطائرة، وليس المكان الذي تقصده الطائرة، كانت مصدر الإثارة في الأسابيع الأخيرة. أما الوطن فليس سوى بقعة غامضة. ليس سوى خلطة غريبة من كل ما قالته أمها عنه. مكان رمادي، وأبيض، مثل صور أبناء عمتها التي وصلت بالبريد الجوي. إنه الطائرة، وخاصة في الأسابيع التي سبقت الرحيل. الملابس الجديدة التي سترتديها في الطائرة؛ الدمية التي ستغريها بالصمت. هل تستطيع أن تجلس بالقرب من النافذة؟ هل يمكن أن تفتح النافذة؟ يا لها من نافذة بيضاوية ملساء. يا لجمال الصينية التي تحملها المضيفة؛ يا لإتقان الأكواب! وهذه الصحون المليئة بالأشياء المختلفة؟ الساخنة والباردة... والملونة. السكر في عبوات صغيرة؛ أعواد الأسنان التي تتلاعب بها. تخرق بها عيون الدمية المشاكسة. والمساند الصغيرة للنوم عليها؛ هل يمكن أن نأخذها معنا إلى البيت؟ ولمَ لا؟ لمَ لا؟

كثيرون كانوا ينتظرون في موقف السيارات بمطار الخرطوم. قوم يثيرون الضوضاء ويتحدثون معاً في الوقت نفسه! امرأة تنفجر باكية.

رجال صافحوا أباها. أطفال يحملقون في سمر. هؤلاء ابن عمتها وشقيقته، طارق وحنان. غريبة مصافحتهم بالأيادي. أحمد علي ياسين كان هناك أيضاً. أخذها من يدها ورفعها عالياً، فوق السيارات، فوق الأطفال جميعاً.

قال لها:

- وماذا أحضرت لي من لندن؟

قالت وهي تهز كتفيها:

- لا شيء!

انفجر ضاحكاً، وضحك معه كل من سمعها. ولم تفهم لماذا يضحكون؟ ما الذي يجدونه مضحكاً في كلامها؟ ولكنها كانت سعيدة بوضعها الرفيع هذا، لأنها كانت قد بلغت ذلك العمر الذي يقال فيه: أنت صرت أكبر من أن يحملك الآخرون؟ صرت ثقيلة الوزن؛ أنت أصبحت بنتاً كبيرة!

اختفت أغراضهم كلها في السيارات. عدة سيارات مختلفة. افترقت سمر عن والديها. أقلتهما سيارة أخرى. فهم ذاهبون إلى المكان نفسه: منزل عمتها؛ للعشاء وقضاء الليل هناك. ركبت سمر مع «عم أحمد» في الشاحنة الصغيرة من طراز تويوتا. جلست مع زوجته في المقعد الأمامي، وركب طارق في المؤخرة. ظل واقفاً طوال الوقت، و«عم أحمد» يقول له:

- اجلس يا ولد. اجلس وإلا أجبرتك على الركوب معي هنا في المقدمة.

ولكن طارقاً لا يستقر أبداً على حال. ليس من طبعه أن يستقر.

ليس من طبعه إلا أن يقفز هنا وهناك، في محاولاته التي لا تفترّ لاسترعاء الانتباه. طرأ لسمر أنه ربما كان سخيفاً. ولكنها مع الأيام والشهور، صارت تعتقد أنه شجاع. سخيف وشجاع هكذا في خلطة واحدة غريبة. إنه يفعل أشياء لا تستطيع هي أن تُقْدِم على فعلها، كاللعب بالأمواس التي يعثرون عليها في التراب، وقيادة الدراجة في الشوارع الكبيرة المزدحمة.

لم يكن منزل عمتها بعيداً.

سألها راي عبر الهاتف:

- كم يبعد بالضبط؟

- ليس بعيداً. مثل المسافة من هولبيرن ستريت إلى أولد أبردين. وكان الوقت متأخراً، ولذلك كانت الحركة خفيفة. الخرطوم ضعيفة الإضاءة ليلاً، وبالنسبة إلى من لم يتعود عليها فهي مقبضة: حارة ورتيبة. وعندما يتعطل أحد أضواء الشوارع، يمر عليه وقت طويل قبل أن يُصلَح من جديد. ربما يستغرق الأمر أسابيع أو شهوراً. ولكن لا خوف برغم الظلام، فالشوارع آمنة... في ما عدا الكلاب الضالة، والمجاري المفتوحة التي يمكن أن تبتلع أي شخص غافل!

- هل وقعت يوماً في أحد هذه المجاري؟

- لا.

وضحكت وهي تشعر بأن البهو دافئ كليالي الخرطوم التي كانت تصفها.

حكت لراي كيف كانت زوجة «عم أحمد» تبتسم لها طوال الوقت وهم داخل العربة. كانت لها سن ذهبية حاولت سمر أن تجذبها إلى

الخارج، مما جعل المرأة تبتسم بغمازتيها وتهز ذراعيها المكتنزتين. وعوضت سمر عن السّن بإعطائها واحداً من الأساور. كان أكبر من معصمها بطبيعة الحال. وقد رفعته سمر حتى أعلى ذراعها، وجربته على اليد الأخرى، ثم رمته على الأرض، وانحنت تبحث عنه هناك.

كان منزل عمتها يتلألأ بالأضواء. تلك الأضواء التي تلمع الآن في الحديقة، سيخبو بريقها في وجود أضواء أخرى في ما بعد، أضواء الاحتفالات، أضواء العرس. كانت العربات تقف في الممر وفي الطريق. رأت سمر والديها وأخاها الصغير وليد، لم يكونا يهتمان بها في تلك اللحظة، وهما منهمكان في الاهتمام بأقارب وأصدقاء لم يتلقيا بهم لسنين طويلة. ومع أنها شعرت بالاطمئنان لقربهما، إلا أنها لم تكن مهتمة بهما في تلك اللحظة أيضاً. كانت منتبهة انتباهاً غير عادي لكل من حولها وما حولها. منتبهة للدفء الجديد لهذا الليل؛ للعربات الغبشاء؛ وللبيت الكبير الذي ينتصب أمامها. بيت مضاء أمام ميدان خال يغمره الظلام. ميدان كبير وغامض؛ قطع الزجاج مدفونة في ترابه، والكلاب تهتدي بعوائها وهي تنبش أكوام قمامته. كشفت سمر تحت مظلة العربات السوار لحنان، وسمحت لها بتجريبه. وقارنتا طول ذراعيهما، وحجم معصميهما. كانت تلك بداية. في المستقبل ستقارنان طلاء أظافرهما، والشعر الذي على ذراعيهما، وخطوط يديهما.

شاهدت سمر عمتها محاسن فارعة الطُّول في الثوب الأصفر. لم تأتِ إلى المطار. إنها جزء من البيت، جزء من الأضواء. إنها المرأة التي أسرعت عبر النجيل، باسطة كفيها، وهي تقول:

- أخي.

عانقت والدها في البداية. تأملت المرأة الطفل وليد، وصرخت مذعورة:

- الولد شين... شوفوا الخلقة؟؟

وضحك الجميع وهي تقرص وجنتيه وتقبل رأسه. جلست محاسن على أحد المقاعد وجذبت سمر إليها. غمرت سمر رائحة العطر المفاجئة، ورأت الأزهار المشغولة على الثوب الأصفر، وأحست بحفيفه اللصيق. رتبت محاسن حواجب سمر بإبهامها، وداعبت شحمة أذنها، وذقنها.

- ديه العاجباني أنا!

قالت ذلك وهي تضحك لأخيها. ثم هبت واقفة: طويلة فارعة الطول، وهذه الطيات المزوغة والباهرة!

- تعالي معي يا سمر.

أمسكت بيد عمتها. يدان أنيقتان، لم تغسلا الصحون مطلقاً، لم تمسحا البلاط. البلاط داخل المنزل كان مرقشاً، ببني وأسود يحاكيان الرخام. امتداد هائل من قطع البلاط الصلبة المربعة الأشكال. كان ذلك غريباً على سمر. كانت معتادة على الخشب اللندني والأبسطة اللندنية التي لا تفصح كثيراً عن نفسها. هذا بلاط يعرض نفسه للإحصاء والعد، يعرض امتداده الرحب على الأرجل للانسياب عليه. يرسل حذاء عمتها بكعبه العالي صوتاً مدوياً على البلاط. حذاء أصفر يوائم الثوب، طلاء أظافر الرجلين أحمر طوبي، كعبان يُنعَّمان بانتظام، ويدلَّكان كلَّ يوم بالخلاصات المنتقاة. في غرفة نوم عمتها مرآة ضخمة، وجرار من الكريمات والدهون المعطَّرة. هناك راديو

نقال؛ لوحة عليها صور الغزلان؛ وسرير كبير مسانده زرقاء. وعلى الطاولة الجانبية هناك ما أحضرتها عمتها لرؤيته: صورة طفلة تُطعم الحمائم. كانت أسراب الحمام تتحلق حولها، تطوف حول يديها المبسوطتين. إحداها كانت تحط على كتفها المقوّس بالخوف. الأسد الصخري لميدان «الطرف الأغر» يطل في جلال من علٍ.

- هذه أنا!

كانت هذه هي الكلمات الأولى التي نطقت بها سمر في منزل عمتها!

قالت تحكي لراي على الهاتف:

- ذلك المساء، ومثله تقريباً مثل كل مساء، جلس الكبار في الحديقة. عندما كبرتُ صار يُسمح لي بالجلوس معهم، على مقاعد طنافسها باردة، وكانت فوقنا النجوم كلها. كانت الحشرات تتحلق حول المصابيح الكهربائية؛ والتي تقترب أكثر من ضوء المصابيح تصير نقطاً سوداء تلتصق بالزجاج الساخن. كانت الحديقة تضج بالأصوات: ضحكات وحكايات عالية الصوت؛ النقيق المتواصل للضفادع؛ والأصوات الرقيقة للجنادب. ومن الميدان كان يتناهى عواء الكلاب، ذنب ممتد لحزن بعيد.

في تلك الأمسية الأولى بالخرطوم، تجولتُ حول الحديقة مع طارق وحنان. ذهبت خلف المنزل حيث لا تمتد الحديقة. دخلت البيت، ثم صعدت إلى السقف حيث الأسرّة المصفوفة الخالية. في كل موقع ذهبوا إليه، فعل طارق ما لم تكن سمر وحنان ترغبان فيه. في الحديقة خلع نعليه وخاض في طين أحواض الزهور. مزّق أوراق

شجرة الأوكاليبتس. كانت هناك أرجوحة في الركن القصي من الحديقة، أخذ يتأرجح عليها، وعندما صعد إلى أعلى نقطة ممكنة قفز من هناك، من دون مجهود، ومن دون خوف.

كانت تنبعث خلف المنزل شراراتُ اللهب ممزوجةً برائحة الخروف المبهَّر. كان الطاهي يشوي اللحم على الجمر الملتهب. كان يرتدي الجلابية، وكانت عيناه محمرتين. جلس على مقعد وأخذ يشعل اللهب بصحيفة في يده. جلس طارق بالقرب منه وحاول أن يأخذ قطعة من اللحم. ضربه الطاهي بالصحيفة على رأسه:

- امش من هنا، حتحرق نفسك.

ولكنَّ طارقاً ضحك، وتفادى الضربة الثانية، وخطف قطعة من اللحم: ما تزال رمادية، لم تنضج بعد، وقد أقرفهما، كليهما، وهو يمضغ القطعة ويمضغها ثم يبصقها في النهاية.

- أخي فظيع... إنني أكرهه.

كان طارق يشتت انتباهها. وكانت تحب بنت عمتها حنان أكثر منه.

من على السطوح ومن فوق السياج، أطلوا على أهلهم وهم يجلسون في الحديقة. تحلقوا في دائرة كبيرة ولم يتطلعوا إلى أعلى مطلقاً. كان بعض الرجال يدخنون، وكانت سجائرهم ترسل ضوءاً أحمر لطيفاً يتحرك من جانب إلى آخر. وعلى السطوح، كانت السماء أكبر حجماً من البيت والميدان. كانت مرصَّعة بالنجوم؛ مرصَّعة كالبلاط داخل المنزل، ولكن تشكيلات السماء لم تكن ثابتة. فجأة، تخلل شفافيةَ السحب ظلٌّ رمادي ضخم، وضوء أحمر يتلألأ،

وأزيز عميق.

- هذه طائرتكم!

قال طارق وهو ينظر إلى أعلى. كان قد ذهب أبعد مما يجب وهو يستند إلى السياج. وها هو يطوح الآن إلى الوراء، ويداه تمسكان بأعلى السياج. ثقله كله معلق بيديه.

- طائرتنا؟

لم تفهم سمر الكلام!

- هي الطائرة التي جئتم على متنها. وهي ذاهبة الآن إلى لندن... من دونكم.

كان راي يسعل على الهاتف:

- آسف! عفواً يا سمر!

ترك سماعة الهاتف حتى يتمخَّط. تناهى إليها صوته، عبر الهاتف، وهو يتنحنح ويبصق. كانت تسمعه وهو يفعل ذلك كله. تحدثا عن والدها وعمتها، وكيف تتغير الأمور بسرعة عاصفة في ذلك الجزء من العالم. كان يوجه إليها الأسئلة:

- لماذا يكون الأمر هكذا؟

وكان بعد أن تجيبه يلوذ بصمت مريب، كأنه يفكر في ما قالته. تخيلته وهو يمسح وجهه بيديه.

تحدثا عن الخرطوم. الخرطوم التي يلتقي عندها النيلان، الأزرق والأبيض، تحت الكبري، تحت الشمس. وعبر الكبري أمدرمان؛ حيث أضرحة الأولياء، وحيث يغمر الأجواءَ عَبَقٌ قديم فوّاح. وفوق

الرمل وصوت الريح، تتماسك الأشياء كلها وترتبط. كان يعرف تفاصيل تاريخ وطنها أكثر منها هي نفسها. كان يعرف التواريخ الصحيحة. كان كلاهما يعرف الأسماء... المهدي، غردون، الخليفة، كتشنر، ونجيت. سألها راي:

- هناك تمثال لغردون في أبردين. في سكولهيل. هل رأيته؟

- لا.

لم تكن قد رأت أشياء كثيرة. كانت تتجول وهي في حالة الذهول. تتجول وهي نصف نائمة.

- ربما ترغبين في رؤيته يوماً ما.

كان التمثال الذي حدثها عنه مصقول من لوحة معدنية على خلفية صخرية. وقد نُقشت عليه عبارة: مات في الخرطوم ١٨٨٥.

- لم أكن أعرف أنه اسكتلندي. لم يدرّسونا ذلك في المدرسة.

- هم البريطانيون...

- الإنكليز...

ضحكا بينما كانت الريح تهز الباب هزاً خفيفاً وتمضي.

قال إنه لم يذهب مطلقاً إلى الخرطوم. خطط لذلك مرة ولكنه لم ينجح.

قالت:

- أتمنى أن تراها... إنها جميلة.

وسكتت. كانت ترغب في أن تقول أكثر؛ وتصف ذلك في كلمات: بسيطة، أصيلة، ضارعة لرحمة الطبيعة. كان صوتها حزيناً

عندما أضافت:

- ولكنها لا تعتبر جميلة...

- من قِبَل من؟

من قِبَل أولئك الذين يعرفون العالم أكثر مني.

- ولكنني أثق بك... أنتِ تُشعرينني بالأمان. أشعر بالأمان عندما أتحدث معك.

التقطت كلمة «الأمان» ووضعتها جانباً، لتشرَحها لاحقاً وتتأمل معانيها. وهي تجلس على أرضية المدخل، فكرت في أن هذه معجزة. ليس صوته فحسب، بل أن تحل السعادة هنا في قاع السلم، السلم نفسه الذي كان في يوم من الأيام عسيراً

على الصعود، السلم الذي يقود إلى غرفة البيات، غرفة المستشفى.

٦

في يوم رأس السنة، وفي الأسبوع الذي تلاه، كانت سمر تجلس على أرضية المدخل وهي تستمع عبر الهاتف إلى راي. كان يتحدث عن يومه الأول في المغرب، بينما تتزاحم في مخيِّلتها صور كثيفة حول أماكن لم ترها في حياتها. كان ذلك قبل عقد من الزمان عندما كانت هي فتاة في العاشرة وهو رجل بلغ سن الرشد.

كانت خطتهم أن يقوم ثلاثتهم بقيادة الشاحنة من إدنبرا، إلى فرنسا وإسبانيا، ثم يعبرون المتوسط عند «الجزيرة» ثم يذهبون إلى طنجة. راي، ستيف وكريس. في عشرينياتهم المبكرة؛ تخرجوا في الجامعة لتوهم وأصبحوا مستعدين لسلوس طريق المخدرات، ومستعدين للقارة السوداء. كان كريس يرغب في التوغل في التيه، والانعتاق من شيء لا يعرفه. كان يمارس رفع الأثقال وكراهية الذات. وأثناء قيادته للشاحنة كان يرسل الزفرات بصبر نافد ويعقد الخصلة التي تنزل على جبهته. ستيف كان يمنع الانفجارات، ويحفظ السلام. كان يؤمن بالصداقة والحب، ومن بين الناس القلائل الذين لا يكرههم كريس. لطالما رغب ستيف في الذهاب إلى الهند، وكانت شمال أفريقيا

بالنسبة إليه هي الحل الوسط: التنازل الكريم لرغبات الصديقين.

في الشاحنة كان راي يتحدث من دون انقطاع عن جمهورية أفلاطون وعن رأس المال وعن ليفينغستون. كان يتحدث عن رتشارد بيرتون، الرحالة الأفريقي ومترجم ألف ليلة وليلة، كما كان يتحدث عن خالٍ مفقود منذ زمن بعيد بمصر، وأبناء خال أفارقة. كان يذكر الأسماء التي يعرفها وهو يراقب المدن والقرى على جانبي الطريق: فيدل كاسترو؛ غولدا مائير وهيلاسي لاسي؛ فرانز فانون والنضال ضد الاستعمار.

- بطلي مالكوم إكس... سمعت ذلك الرجل يخطب في مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية... ذهبت إلى هناك... يا للسحر الذي يجذب الجماهير إليه!!

- اصمت!! ألن تصمت أبداً؟؟

- أصمت!

ولكنه لا يستجيب. استغرقه الأمر سنوات طويلة ليعرف قيمة الصمت، وقوة الكلمات المنتقاة باهتمام. أما في ذلك الصيف فقد كان صوته يواصل الطنين، برتابة ممدودة الخيوط، والشاحنة تعبر انكلترا، والريف الفرنسي والأجواء الإسبانية المشمسة. وعندما يحين دوره في القيادة، كان حديثه يقلّ، لكن قلّما كان دوره في القيادة يحين. كان كريس يحب أن يكون في مقعد القيادة، إذ إنّ وضعية المسافر كانت تُشعره بالملل. لم يكن راي يصمت تماماً إلا عندما يسترسل في القراءة أو في الاستماع إلى مذياع الترانزيستور المشروخ المثبت على الإذاعة العالمية الـ«بي بي سي». كان يصغي بتركيز،

ذاهلاً تماماً عما يحيط به. كان العالم يعجّ بالأحداث التاريخية. كما كان يصمت في صحبته النادرة للفتيات. كانت الفتيات يتعلقن بستيف، ذي المظهر الجذاب والذي يعزف على الغيتار. وكانت تصدر عن كريس حركات غبية في حضور الفتيات، مثل ركله إطارات الشاحنة وتنغيم الماكينة، وذلك عندما أقلاّ فتاتين باريسيتين على الطريق. الحياة بالنسبة إلى كريس كانت أشبه بحزامٍ بلاستيكي مشدود بإحكام حول خصره. كان في حالة شجار دائم مع راي. وكان راي يغيظه ويلقي عليه المحاضرات من مقعده الخلفي، وهو محاط بالعفش والمذياع والغيتار.

- المرتفعات هي أول الأماكن التي استعمرها الإنكليز...

- كفى يا راي!

- ثم توجهوا بعد ذلك إلى الهند وأفريقيا. كانوا يسخرون الاسكتلنديين لنهب تلك الأماكن، لصالح الامبراطورية. ولذلك كان الاسكتلنديون هم الذين يفقدون أرواحهم...

- اصمت!! هذا يكفي.

- كانوا هم المشاة والضحايا الأولى للسهام... سهام الدراويش و«الفظي وظي.» هكذا دعاهم كبلينغ وسمّاهم في قصيدته. اسمع يا بتاع الموسيقى، هل سمعت بـ«الفظي وظي»؟ كريس، أيها الأمي الأبله، هل تسمعني؟ ما زلت مقتنعاً بأنّ كل من لم يقرأ فاتون، يجب أن يُعدَم رمياً بالرصاص...

أوقف كريس الشاحنة، فتح بابها، ثم ترجّل منها وجذب راي، المذهول في البداية والمقاوم في النهاية، وأخرجه من الشاحنة ورماه

على قارعة الطريق. وسرعان ما تغلّب رافع الأثقال الهاوي على المقاومة، من دون أي صعوبةٍ تُذكَر. ترك المهزوم على قارعة الطريق. في الشاحنة، كان ستيف يضحك ويسخر منه بإيماءات من وجهه ويديه. وجرجر راي خطاه إلى الجزيرة، قطع الأميال الخمسة وهو يعرج ويمسح الدم الذي كان ينزف من أنفه. تركاه مجرَّداً من إذاعته العالمية العزيزة، ومن كتبه، وجواز سفره وملابسه. لم يكن ذلك مزاحاً.

وجدهما ينتظرانه في الميناء. الصمت كان هو اعتذارهما. أحس بالكراهية نحوهما، فهو لا يحب المزاح الثقيل. وقد كان واضحاً أن نهاية هذه الصحبة الثلاثية قد أزفت. نام في مؤخرة الشاحنة. غطّ في سباتٍ عميق والسفينة تطفو فوق مضيق جبل طارق.

كان الليل مخيماً حين لاح له المنظر الأول للشاطئ الأفريقي. الأضواء على ساحل طنجة، وحوله نغمات لغة أخرى. حوله رجال لا يعبأون بجنسيته الأجنبية. كانت السفينة تعجّ بعمال موسميين من المغرب، يعودون إلى وطنهم من فرنسا وإسبانيا، يحملون الجوالات والحقائب البلاستيكية. بعضهم ممن يصطحب عائلته يعود بسيارات قديمة، تفوح منها رائحة الديزل، سيارة مرسيدس قديمة مغطاة بمشمع أزرق. ماكينات الخياطة من ماركة «سنجر،» المكاوي، الثلاجات، الخلاطات وراديوهات الترانزيستور. كانت أنظار الجميع تتّجه إلى مكان واحد؛ إلى أضواء طنجة وظلالها تحت السماء الأفريقية الدانية. وقف راي إلى جانبهما، وشعوره بالرهبة والتعاسة يفوق شعورهما. كان يشعر بأنه واهن ومتّسخ، في قميصه الممزق وشعره المغبر. ألم حارق في الصدر والأذنين من رائحة الديزل. ثمة

نمط فرض نفسه منذ تلك اللحظة المبكرة. في السنوات الماضية، كان كل قادم جديد إلى أفريقيا مصحوباً بالفقد أو الألم، بضربة تسدد للكبرياء. عفش مفقود، ليلة في الكرنتينة، شيكات سياحية مسروقة. كأنما كانت القارة تطالبه بتعويض ما، بتسديد دين من أشباح الماضي.

هاتف من إستيرلينغ، سمر، وحدّتها عن سنواته التي أمضاها في المغرب. كان قد غادر إدنبرا، غادر منزل أسرة زوجته وودّع ابنته. تنبّهت سمر إلى التغيير في صوته. كان أكثر خفة وارتياحاً. في استيرلينغ له أقرباء وخال ينوي زيارته في دار للعجزة، وهو الشقيق الأكبر لدافيد المفقود منذ وقت بعيد.

- لم يتعرف إليّ اليوم خالي مطلقاً. العام الماضي كان أفضل. لقد ظنَّ حينها أنني ديفيد، وتحدثنا قليلاً، ما أشعرني بالارتياح.

في إستيرلينغ كان هناك الدكتور فريد خليفة، المتخصص في الشؤون التربوية والمقيم بالمملكة المتحدة منذ عشر سنوات. دعتهما معاً جمعية الحوار لمعارضة الفرضية التي تقول:

- يخشى هذا المنبر خطر الإسلام الراديكالي.

قلت له:

- سنخسر يا فريد هذا الحوار. إن نتيجته شبه محسومة مسبقاً. بل إنهم حددوا أن الجائزة ستكون زجاجة شمبانيا، وهذا يعني أنهم لم يفكروا في أنك قد تكون الفائز. وإذا كانت نسبة النتائج أقل من ٨٠ في المئة لصالح الجمعية، فهذا يعني أننا أبلينا بلاءً حسناً. صدقيني يا سمر، لقد بدا ذلك الرجل مسحوقاً. وقال لي:

- أنت انهزامي. ما أدافع عنه الآن هو ديني، وسأدافع عنه بكل ما أملك.

قال راي:

- لم يسعدني أن أُنعت بالانهزامي.

قالت له إنه كان واقعياً وليس انهزامياً.

أجاب:

- أحاول ألا أكون انهزامياً إزاء هذا الرشح. الليالي هي الأسوأ، النوم يصيبني بالحمى ويصعب عليّ التنفس وأنا مضطجع. ينبغي أن أذهب إلى طبيبي في أبردين.

قالت بشيء من الخجل:

- لا مانع لدي من أن تتصل بي عند منتصف الليل، إذا ما تعذر عليك النوم.

وهي التي أمضت السنين في البيات، تكاد لا تستطيع الآن أن تطبق جفنيها. كان صوته يرافقها خلال النهار، في أحلام اليقظة، وأثناء الليالي. إنها تحلم وتحلم ولا تنام.

الرنة الأولى للهاتف أتت خلال حلم من الألوان والبشر. تحسست طريقها على درجات السلم، ناعمة بفعل النوم. يحدوها أمل ألا تستيقظ المرأة العجوز. كانت الثانية صباحاً. تدعو الله العليّ القدير ألا تسمع ليزلي رنين الهاتف. أن تنام بعمق وسلام. قال لها:

- صوتك جميل جداً.

كان صوته مرتعشاً، والكلمات تخرج من فمه دفعة واحدة.

كلمات تصعد إلى رأسها وتتحول إلى لآلئ صغيرة، إلى جواهر ملونة وأحجار كريمة تزهو بحملها أينما ذهبت.

قال لها إنه يريد أن يذهب بها إلى أماكن للنسيان والذكرى. أن يريها منحدراً في نهر ألدي يجعلها تبصر النيل، ومنزلاً بسقف مسطَّح، ومنارةً تبدو كالمئذنة، وقلاعاً عاش فيها المؤمنون منذ زمن بعيد، وهم يعانون قسوة المناخ. أضاف:

- يمكننا أن نذهب في نزهة بالعربة عندما أعود إلى أبردين.

كانت صامتة. تُنصت إلى أصوات الليل، وتردد أنفاسه. في سابق الزمان، في بقعة أخرى من هذا العالم، كان الخوف... حاضراً. قد يرانا أحدهم معاً... معاً بمفردنا... شرف المرأة مثل عود الكبريت... سمعة المرأة... السمعة هي الصنم الذي ينصِّبه الناس، وهي التي تحدد العطاء والمنع أو التمنع. شرف البنت... أبوك سيقتلك... أخوك سيضربك... ستذهبين إلى المدرسة في اليوم التالي، كما تذهب دائماً الفتيات الجريئات، وعيناك محمرتان، وخاطرك مكسور وكبرياؤك جريح.

لكن قوة الأصنام ليست أبدية. إنها تحتل حيزاً في المكان، فترة من الزمان، لدى جماعة محددة. شهدت سمر السمعة وهي تفقد سطوتها وعنفوانها. شاهدتها تنكمش وتخبو في هذه البقعة النائية من العالم.

عندما تسقط الأصنام، يصبح الطريق إلى الحقيقة بيّناً واضحاً. سيكون السؤال حينها: من الذي يراها أينما حلّت؟ ومن يتعرف إليها مهما تخفَّت؟ هذه هي الأشياء التي ستبقى معها أينما ذهبت.

قالت له:

- ما قلته صحيح. أرغب في رؤية القلاع التي عاش فيها المؤمنون في الزمن البعيد؛ ضعفاء ولكنهم أقوياء؛ منارة تشبه المئذنة؛ منزلاً بسقف مسطح مثل منزل عمتي. لكن ذلك لن يتحقّق، وحدي معك. أنا آسفة... آسفة جداً.

عضت شفتيها ندماً. خافت أن تكون قد أغضبته، أو أن يكون قد نفد صبره، أو أن تكون قد بعثت في نفسه الملل.

قال:

- لا تنزعجي، ولا تأسفي. فأنا لا أحب أن تفعلي أي شيء لا ترتاحين إليه.

في اليوم التالي سأل عن ابنها.

- لم تذكري لي اسم ابنك مطلقاً.

- اسمه أمير.

داهمتها صورة الطفل، يسير عاري القدمين في الطين، يقذف ألعابه من فوق السطوح، مثل طارق.

قالت لراي:

- يُقلقني إحضاره إلى هنا. سيكون الموقف صعباً عليه في البداية. أعني المناخ، وكل طبقات الملابس التي سيرتديها.

- هل تجيدين القيادة؟

كانت تجيد القيادة في الماضي. علّمها «عم أحمد»؛ وعلّمهم جميعاً، في الميدان الخالي، في الظهيرة الحارقة عندما تكون محاسن

مستغرقة في النوم. ما تزال الذكريات حية؛ سُحب الغبار وقفزة العربة إثر البداية الخاطئة.

– القيادة هناك مختلفة عمّا هي عليه هنا. القوانين بسيطة، وثمة طرق متعددة للحصول على الرخصة، حتى من دون الخضوع لامتحان.

كان يعرف ذلك ويتفهمه.

قال لها:

– المسألة صعبة هنا بعض الشيء. ويُعزى ذلك إلى الكمّ الهائل من السيارات، والقيادة بسرعة جنونية.

فكرت سمر في سبب موت طارق: السيارات، السرعة الجنونية، والرجل العجوز الذي أعمته شمس الصيف، فارتكب الخطأ القاتل. أطرقت في حزن. لم يكن لذلك أي معنى. رجل عجوز تعميه الشمس فيقتل طارق. رجل مُعتذر، دامع العينين، صغير. الاحتمالات أفاع تصدر فحيحاً. أفاعٍ تشبه كلمة «لو». لو خرج طارق قبل دقيقة؛ أو بعد دقيقة. لو رأى ذلك الرجل وهو ينحرف نحوه؛ لو كان اليوم ملبداً بالسحاب مثل أغلب أيام هذه المدينة؛ الاحتمالات ثعابين سامة تفحّ وتهمس. ظلت الاحتمالات على مدى سنوات عديدة تشوش عقلها؛ وتزعزع إيمانها؛ وتجعلها عاجزة عن صعود السلّم.

تحدث راي عن دروس في القيادة كي تتمكن من التجول مع ابنها في المدينة. تحدث عن مدارس تعليم القيادة وعن الاختبارات. وكان صوته يجيء من بعيد، وهي تسرح في البعيد.

- لدي ابن في المغرب...

قال ذلك وصمت...

- ولكنه ولد ميتاً...

تحدث وصعد بها لترى أماكن لم تزرها من قبل، وأفراداً لن تلتقيهم. تتشكل الصور في خيالها: صور الناس؛ أشكالهم وكلامهم؛ وصور الأشياء التي يذكرها راي والتي لا يذكرها؛ بتفاصيلها كلها.

بعد أن غادر كريس وستيف في شاحنتهما، تخلف راي عنهما. كان ستيف ما يزال راغباً في الذهاب إلى الهند، أمّا كريس فكان يريد العودة إلى إنكلترا. كلاهما لم يجد ضالّته. وجد وظيفة في محل للصناعات اليدوية، يملكه باحث مع زوجته الفرنسية. كان المحل يحمل اسم الزوجة. ذوقها راقٍ، ولم يتخذ المكان طابعاً سياحياً ضيقاً. كان الأجانب يشترون هداياهم وتذكاراتهم من هناك: الصحفيون الأجانب؛ المغاربة ذوو الثقافة الغربية والدبلوماسيون الفرنسيون. كان صاحب المحل وزوجته يكرمون ضيوفهم النظاميين داخل المكان، بينما كان راي يهتم بالزبائن العابرين وبتغيير مصابيح العرض على النوافذ. كان يُصغي إلى أحاديثهم: فلسطين، ما قاله فانون، ما قاله سارتر... ناصر أغلق مضائق تيران!! حرب الأيام الستة... أيام ستة! إسرائيل تحتل سيناء والضفة الغربية.

عندما كان يبدي اهتماماً، أو يدلي برأي ما، كانوا يرحبون بذلك، ويصغون إليه. يومئ مخدمه برأسه موافقاً، وهو يدخن غليونه، يصحّح له بعض الوقائع، يدفعه هنا وهناك لتلطيف آرائه المتطرفة.

في الوقت الذي كان راي محاطاً فيه بالخطوط الجميلة والزخارف، بالأشكال الدقيقة والمطرزات الأنيقة، استطاع أن يتعلم أكثر مما تعلمه في الجامعة، مما تعلمه في جمعية الحوار التي كان ناشطاً فيها. تعلم أشياء أكثر أهمية من الغضب، أكثر أهمية من حجة يتم التعبير عنها بذكاء.

من بين كل الأجانب الذين يترددون على المكان، كان الصحافيون الأجانب يثيرون اهتمامه أكثر من سواهم. تعجبه أساليبهم الخبيرة، وتحركاتهم العفوية هنا وهناك. وكان يتبعهم من حانة هذا الفندق إلى حانة ذاك؛ من هذا الحفل إلى ذاك حتى يصلون إلى مرحلة يأخذون فيها بالتثاؤب ويطلبون منه الذهاب إلى منزله. كان منزله عبارة عن شقة يستأجرها مع مجموعة من طياري شركة الطيران المغربية. كانوا يغيبون أغلب الأحيان ويتركونه وحيداً يسير حافياً فوق البلاط، ويستمع إلى المذياع على الشرفة. وفي المرات القليلة التي يكون فيها الطيارون جميعاً بالمدينة في الوقت نفسه، تكون الشقة مزدحمة كأنما تحولت إلى ساحة احتفال أو إلى سوق. كان الطيارون هؤلاء هم صلته بأهل المدينة. يرتاد المقاهي بصحبتهم ويلعب الدومينو معهم ويدخن الشيشة. كان يذهب إلى المساجد، وقد تعلم كيف يخلع نعليه في الخارج وكيف يجلس القرفصاء على الأرض. كان الطيارون سعداء وهم يتحدثون عن عملهم ووطنهم ودينهم. وقد عرّفوه بأقربائهم وأصدقائهم، واصطحبوه لتناول الغداء مع هذه الخالة، وإلى حفل زواج ذلك الزميل من أيام الدراسة. أما عندما يسافرون، كانت الغرفة تمتلئ بأفكار راي وخشيش إذاعة الـ«بي بي سي». كان الهوائي الفضي اللون بارزاً وهو يمتد بزاوية معينة، أمضى راي وقتاً طويلاً في تحديدها.

بينما كان الطيارون همزة الوصل بينه وبين أهل المدينة، كان مخدموه هم صلته بتجمعات الأجانب. ووسط تجمعات المغتربين هذه، تكون سرعة الاندماج الاجتماعي بسرعة الحكم على القادم الجديد. أولئك الذين في سنه أو أكبر منه حددوا أنهم لا يرتاحون إليه. وقد وجدوه في الوقت نفسه متطفلاً وغامضاً. لم يكن يملك ذلك السحر الواضح الذي يثير إعجابهم. كما لم يكن يملك تلك النظرة الرزينة والواثقة التي يفضلون. وقد لاحظت السيدات أنه تحت درجة معينة من الإضاءة، يبدو كالعربي تماماً. وكان راي منسجماً أكثر مع الشباب، أولئك الذين نشأوا في المغرب، تلك الأقلية ذات الحظ السعيد. ولكنه كان يفعل ما لا يفعله الشباب: يطالع الصحف ويتعلم اللغة العربية. يغشى المساجد ويتجول مع المغاربة. وكان ذلك قدراً كافياً من التمرد للشباب، ولذلك حظي بإعجابهم.

كانت إميليا الصبية تبدو جميلة في ثيابها الباريسية التي يكويها خادمهم. كان أبوها إنكليزياً وأمها إسبانية. كانت أمها أفضل الطاهيات في كل المنطقة، وقد ظهرت أمارات براعتها أولاً على ابنتها السعيدة. ولكن هذا جعلها تبدو أكبر من سنها، أكبر من ثماني عشرة سنة. تقول الأم الفخورة بابنتها وهي توجه الكلام لأصدقائها:

– إميليا من طراز مارلين مونرو. . . مقاسها ١٦.

ولكن هؤلاء الأصدقاء يفضلون قوام تويغي وماري كوانت. لم تذهب إميليا إلى المدرسة الداخلية بإنكلترا كما فعلت صديقاتها وزميلاتها: كانت شديدة التعلّق بأمها وأطباقها بحيث لا تستطيع الذهاب. المغرب كان وطنها، كان مختلطاً بدمها الاسباني وإنكليزيتها الموشّحة بتنغيمات لطيفة، وبميلها إلى راي.

جلس معها راي ذات مرة بينما كانت تأخذ حماماً شمسياً قرب حوض السباحة. ثوب السباحة الباريسي. الجو تغشاه مسحة كولونيالية: النادلون المغاربة بأزيائهم الناصعة البياض وأكواب الكوكتيل التي تقدم على حواف الحوض. أوراق الأشجار كانت تتساقط فوق سطح الماء بينما يقوم رجل أقل درجة من النادلين الآخرين، مظهره مزرٍ، بسروالٍ كُفَّ إلى أعلى، بالتقاط أوراق الشجر المتساقطة بواسطة شبكة طويلة. كان هذا الرجل والنادلون وراي الوحيدين الذين يرتدون كامل ملابسهم. كان راي يرتدي كاكياً أخضر. فذاك والكاكي البني هما لوناه المفضلان، هما صورته. في حضرة إميليا، كان راي يشعر بالدوار من الشمس ومن الزرقة العميقة لحوض السباحة. فكرة واضحة جالت في ذهنه ولم يتوان عن إطلاع إميليا عليها. ركّزت نظرتها وضاقت عيناها. عينان عسليتان تمتزجان بأخضر خفيف. كانت الفكرة تتعلق بالنادلين. نساؤهم محجبات، يكاد المرء لا يرى منهن شيئاً، بينما يكسبون عيشهم وهم يقدمون الليمونادة المثلجة إلى فتيات ساحرات شبه عاريات، ممدّدات على حواف أحواض السباحة. وفي الأمسيات يمزجون أكواب الكوكتيل، ويضعون شرائح الليمون على كؤوس مشروب «الجن» الشبيه بلون الماء، ويسكبون الويسكي وهم الذين حُرِّمت عليهم الخمر. هذا هو السبب، قال راي لاميليا، في نظراتهم الزائغة، وضحكاتهم المحرجة، وهذا هو السبب في لجوئهم كل يوم إلى ضرب أطفالهم.

ما يضيف من جاذبية إميليا بالنسبة إليه، اعتراض والديها الصامت على علاقته بها. في احدى الحفلات الليلية حول نفس الحوض، عزفت الفرقة الموسيقية «ليال في الساتان الأبيض.» رقص راي مع

إميليا، بينما كان والداها يقطبان في صبر وجلد. كان غريباً، ومحباً، وكانت نصف إسبانية، وغريبة. لقد قطع كل المسافة من ادنبرا من أجل هذا تماماً. ولماذا أحبت إميليا راي؟ لأنه يتحدث عن أشياء غريبة ولأنه يدخن الشيشة. ثمة شيء عربي في هذا الرجل الاسكتلندي الشاب. شيء عربي ظلت إميليا تتوق إليه منذ سنين. فهي قد نشأت في فيلا والديها الأنيقة وهي تنظر في خجل يخالطه الشعور بالذنب، إلى فتيان العرب العاملين بمنزلهم، وتشعر بالإعجاب تجاه البستاني القادم من فاس.

كانت قصة راي وإميليا هي موضوع الأحاديث الخاصة الأكثر إثارة لذلك العام. في المقاهي، وفي المكالمات الهاتفية، بل حتى في أوقات العمل، كان الناس يتحدثون عن الزواج المفاجئ وعن الفتاة الحمقاء. وسرعان ما صارت الفتاة الحمقاء زوجة مريضة. ظل راي يتأمل وحم الحَمْل من دون أن يفهمه. كان يمسك بشعر إميليا ويبعده عن وجهها وهي تتقيأ مرةً تلو الأخرى في حوض الحمّام. تزعجه الأمور المالية. كان إذا ردّد عقله كلمة المال مرتين، يئن قلبه من الوجع. يسهر الليالي وهو يجري العمليات الحسابية، يجمع الأرقام ويطرحها على وريقات متسخة صغيرة. تورط في الديون وصار يفكر في السجون المغربية. كانت الوظيفة في الدكان كافية في ما مضى، لكنها لم تعد كافية الآن. ثم ماذا عنه هو؟ ماذا عن وظيفته في الحياة؟ كانت تراوده أفكار غامضة في أن يصبح محللاً سياسياً؛ أو صحفياً أجنبياً كأولئك الذين يلتقيهم في المحل، أن يجوب العالم بحثاً عن الحرب والثورة!

لم ترتح إميليا إلى وجود الطيارين في الشقة.

- إنها رائحتهم!!

قالت وهي تبكي على كتف راي. وفي أحد الأيام جاءت أمها وحدثت مشكلة. كانت الأم تصرخ في وجه راي بالإسبانية.

لم تكن إميليا في فترة وحمها، تأكل إلا ما تطبخه أمها. وكانت تغادر الشقة لعدة أيام حتى تتلقى العناية في فيلا والديها. أما راي، فكان يتجول خلسة بين المقاهي والمساجد. وقد أكد له أصدقاؤه الطيارون إنه فعل الشيء الصحيح والنبيل. ولكنه لم يكن يشعر بالنبل، بل كان يشعر بأنه دخل في متاهات لا يسهل الخروج منها، أو أن القدر أدخله في متاهات عصيّة وفي تعقيدات لا حد لها. غير أن طبعه السَّمح هو الذي يجعله يعدّ الكاكاو لإميليا، ويحاول إعادة البسمة إلى محياها. لم تكن الحياة المنزلية تزعجه، ولا الشعور بأنه ليس بمفرده، والمشاركة في الأشياء الصغيرة، وقطعة الصابون، والغبار الذي يتسلل إلى داخل الغرفة.

لم يتحدثا عن الطفل كثيراً. قدم إلى الحياة بمشقّة، بسحنة مائلة إلى الزرقة، بلا ذقن، بعينين غريبتين كهلالين، وبعمود فقري ملتوٍ... لم يسمح لإميليا برؤيته. لم تره مطلقاً في الحقيقة. ولكن راي لم ينس الكتلة المختلطة العديمة الوزن، ولا الشعر الأسود الكثيف، المطابق لشعره في اللون. لطالما اعتقد أن الأطفال يُولَدون بلا شعر، لذا لم يكن يتوقع شعراً بهذه الكثافة. هذا الشعر هو الذي جعله ينفجر باكياً أمام والديّ إميليا، أمام الطبيب والممرضة.

أحدث الحزن ثقوباً في نسيج حياته، واستطاع لفترة من الزمن أن يبدد رغبته حتى في الإذاعة العالمية. وفي الوقت الذي كانت إميليا

تستردّ فيه عافيتها في المستشفى، كان هو يبحث عن أصدقائه الطيارين وعيناه محمرَّتان كالجمر. كانت صحبتهم تهدئه قليلاً. يتحدثون إليه، وهو لا يصغي. لم يكن يفهم، ولكنه يكتفي بسماع أصواتهم. ويا للأشياء التي كانوا يقولونها! إن الأطفال يشفعون لوالديهم. إنهم يقفون على أبواب الجنة ويرفضون الدخول إلا بصحبة أمهاتهم وآبائهم. إنهم يصرخون طلباً لوالديهم، وإن الله يستجيب لهم.

تلقّت إميليا في المستشفى حقناً لتجفيف لبنها. كانمت تعاني من الغرز في جسدها؛ ومن الشعور بأن كل هذه المعاناة كانت عدماً. كانت حزينة للقوام الذي فقدته، وللحياة السعيدة بين السباحة والحفلات الراقصة. وقد صبت اللوم كله على راي، على هذا الذي لم يُصَب جسده بمجرد خدش! كانت أمها كذلك تلوم راي. كل ما يقوم به خاطئ. كان بإمكان ابنتها الجميلة أن تحصل على أفضل من ذلك بكثير، غير أنّ الأوان لم يفت بعد. هذا ما كانت تفكر فيه الأم الذكية. بل إن ما حدث للطفل قد لا يكون بهذا السوء في النهاية. وإذا ما تصرفت بحزم، فيمكنها وضع حدٍّ لهذا الزواج التعيس. لم تتوانَ عن طلب العون من خادم راي. عندها استغرق الباحث الحصيف في التأمل ونفث عدة مرات في غليونه. وتقدم فطلب من راي أن يستسلم، وأن يغادر المكان ويعود إلى بلاده ليواصل دراسته. قالت إميليا موجِّهة الكلام إليه:

- لم أعد راغبة فيك!

كان القدر يخبئ لإميليا مستقبلاً مختلفاً: رجلاً من ويلز، وبيتاً متواضعاً في غوينيد، وبنين وبنات. أصبحت طاهية جيدة كأمها،

وباتت تدير محلاتها الخاصة في مجال الضيافة. واستأنف راي دراسته، بعد أن تخلى عن آماله في أن يصبح مراسلاً صحافياً. ربما يرجع ذلك إلى كونه اكتشف أن تحت عالميتهم المظهرية، يختبئ نوع من ضِيق الأفق، وافتقار إلى التعاطف مع المغرب، وهما أثقل وزناً من عالم التجوال حول العالم الذي يدمنونه، وأكثر عمقاً. كان قلبه يتعلق بالأفكار والكلمات: الماركسي... الاستراتيجي... حرب الميليشيات... المقاومة... الوطنية... الثورة... والانقلابات العسكرية.

جلست سمر ورأسها على ركبتيها، فكرت في ذلك الطفل، في الأوروبي الذي دُفن في الرمال الأفريقية. وسألته عبر الهاتف:

- كيف يمكن أن تحب مكاناً، وأن تزوره مرة أخرى، وأن تدرس ثقافته وتاريخه، بعد أن يكون قد حدث لك أمراً مروعاً هناك؟

كان هادئاً. وعندما تحدث قال:

- لأن ذلك كان شيئاً صحياً بالنسبة إليّ، كما الدواء. خفّف من قسوتي. وعرفت منه شيئاً لم أكن لأعرفه من الكتب. مثلك أنت.

لم تفهم تماماً ما يقول، وتساءلت:

- ماذا عني أنا؟

ولكنه ردد فقط:

- أنت تجعلينني أشعر بالأمان، أشعر بالطمأنينة في حضرتك.

٧

ذهبت سمر إلى العمل في معطفها الجديد، ينتابها شعور طاغ بنظافته، بصوفه الذي ما كان باهتاً ولا مهترئاً. وعلى نوافذ المحال التجارية، كانت ترى انعكاس صورتها؛ لون المعطف الذي كان في حمرة الحناء؛ العُرى بدل الأزرار. يراودها شعور شبيه بذلك الذي كان يملأ جوانحها وهي صغيرة في اليوم الأول من العيد، بالفستان الجديد، والجوارب الجديدة والشريط الجديد الذي يلف شعرها. عند معبر المشاة، حينما كانت تنتظر تغيير شارة المرور، أخرجت قفازها من يدها ووضعت يدها في جيبها كي تتحسس نعومة الحرير الجديد. الصورة الخضراء لرجل يمشي، جرس التحذير، وتعبر الطريق وهي تعيد قفازها إلى يدها. كان الجو بارداً بالنسبة إلى أصابعها العارية. هذا برد شهر يناير على الرغم من أن اليوم كان معتدلاً بالنسبة إلى هذا الوقت من العام، وقد قررت أن تتمشى بدلاً عن ركوب الباص كما كانت تفعل عادة. يوم خامل بسماء كابية، ولا شمس تلوح في الأفق. كانت قد تعلمت منذ زمن، منذ السنة الأولى لمجيئها مع طارق، أن شمس الشتاء في هذه المدينة أكثر برودة من

مطرها الشتوي. قبل استيعاب ذلك الدرس، كانت، لأكثر من مرة، ترى الشمس الساطعة من خلال النافذة، وتشعر بدفئها يتسلل إليها عبر الزجاج، وتخرج وهي ترتدي الملابس الخفيفة، فتفاجأ بارتجافها الذي لا تفهمه، وتعاني كما عانى كل إفريقي في ردائه الرقيق الذي لا يغني مع هذا البرد البريطاني الغريب.

ما تزال هناك بقية من أجواء العطلة. إنارة عيد الميلاد لم تزل من أماكنها بعد. ما من طلاب في الشوارع، ولا سيدات يحملن اللافتات للسماح للتلاميذ بالمرور، فالفترة المدرسية لم تبدأ. كانت سمر تعرف أنها ستجد الجامعة هادئة وخاملة لأن الطلاب لن يحضروا حتى الأسبوع المقبل. ستعبر ممرات المباني ولا تصادف سوى المحاضرين الآخرين وبعض الخريجين الأكثر حرصاً. ستكون قاعات المحاضرات مظلمة وصامتة، وستفقد المكتبة حيويتها المعهودة. سوف تقابل راي ولن يكون مشغولاً كما يكون عادةً في أيام الدراسة. ستسأله عن البرد الذي أصابه؛ عن الكحة التي بدت أسوأ في المرة الأخيرة التي تبادلا فيها الكلام. سيطلعها على الرسالة الأزهرية التي يريدها أن تبدأ في ترجمتها، وتعطيه كتاب الأحاديث القدسية، وسيتبقّى بعض الوقت لتحدثه عن نفسها. قد يتبادلان أطراف الحديث كما اعتادا عبر الهاتف، وتقول هي كل ما رغبت في قوله دائماً. لن يستغرب شيئاً يصدر عنها. ربما تراه يُصغي إليها، ثم يتحدث عن أماكن وعن قوم لا يمكن أن تكون قد عرفتهم، ويجعلها مع ذلك تشعر بأن بإمكانها فهمهم؛ وأنها مرتبطة بقصصه هذه بصورة ما. قد يتحدثان في مكتبه كما تحدثا عبر الهاتف. هي لم تحص عدد المرات التي طلبها للحديث، لم تقس مكالماتهما بالدقائق

والساعات. منعت نفسها من ذلك منعاً. ومنعت نفسها من الأسئلة، لماذا يتصل بي، ماذا سيحدث بعد ذلك، وماذا يعني كل هذا؟

المحال التجارية بدأت تفتح أبوابها. مرت سمر بمحل لبيع الصحف والمجلات؛ ومحل للآلات الرياضية؛ آخر لبيع الأسماك؛ وفرن. ما يزال محل البقالة الذي يبيع اللحم الحلال مغلقاً، كان يفتح أبوابه في وقت متأخر من اليوم. كانت تقف عنده في بعض المرات وهي في طريقها إلى المنزل. وبينما يكون صاحب المحل البنغالي الأصل يجهز الدجاج في مؤخرة المحل، تنتظره واقفةً بالقرب من طاولة البيع. الفضاء الضيق العطن مزدحم بجوالات الخضروات المجففة، وبالصفائح الآتية من الأماكن البعيدة، وحولها رائحة البهارات وصور نجوم السينما الآسيويين المعلقة على الجدران. اشترت شطة سائلة وعلباً من البقول، كتبت محتوياتها باللغة العربية؛ وهي معبأة في أماكن دافئة في قارة أخرى: علبة من خلطة الفلافل من صنع الاسكندرية.

مرت بمحل للأحذية؛ وآخر لبيع فساتين الزفاف والملابس الداخلية النسائية. صفقات الشتاء، تخفيضات يناير، اللافتات الكبيرة: نصف السعر؛ تخفيض ٣٠ في المئة، أضخم تخفيض في تاريخ البيع. بالأمس كانت إحدى الباحثات عن التخفيضات. والأمس كان يوماً مزدحماً. عندما استيقظت في الصباح، نظرت ملء عينيها إلى غرفتها، إلى غرفة المستشفى. أبصرت الستارة المتسخة، وغطاء السرير الباهت. فتحت خزانة ملابسها وأدراجها لتجد بقايا النايلون المهترئ والأحذية الخشنة بكعوبها المتآكلة. أمسكت هذه الأشياء بيديها وكأنها تراها للمرة الأولى. الأصواف التي تشعثت، الأقطان التي حالت

ألوانها، حتى الأوشحة الحريرية التي كانت تختارها بعناية خاصة، صارت باهتة وممزقة. لم تشتر شيئاً جديداً منذ وفاة طارق. لم تلحظ مرور الزمن، لم تر السنين وهي تذيب الملابس التي رآها طارق ترتديها، والأصواف التي تحسسها بيديه، والألوان التي علّق عليها.

يحتوي المطبخ الصغير الراكن في زاوية الغرفة، على ثلاجة صغيرة وجرس كهربائي وطاولة تستخدمها كمكتب. هنا رأت الخبز المتعفن، والجبن المغطى بالفرو الأخضر، وسلطة الخضار التي باتت ألوانها غامقة وثقيلة، متجاوزة تاريخ صلاحيتها. الأشياء لا روائح لها في هذا الجزء من العالم. لو كانت في وطنها لما أُهملت إلى هذه الدرجة، طوال كل هذه المدة. لم تكن النمال والصراصير، في بلدها، لتسمح بذلك. أما هنا، فقد أنبتت البصلة ساقاً طويلة خضراء، وبقيت رجل الدجاجة في الثلاجة ثلاثة أشهر وكأنها قطعة من المطاط. العجورة وحدها هي التي أفرزت مادة علكة ولكنها مع ذلك لم تصدر رائحة. ظلت سمر تتناول هذا الطعام على مدى سنوات طويلة، تقضم الأجزاء السليمة ولا تتساءل عن فحوى ما تفعله، وكأنما هناك ضباب يحجب عنها الرؤية، كأن حلماً ثقيلاً يلازمها حيثما ذهبت. نظرت الآن إلى غرفة المستشفى وقالت لنفسها:

«أنا لست هكذا... أنا أفضل من ذلك.»

وصلت الأكياس الكبيرة السوداء، الأشياء تطوى وتوضع في الأكياس، تماماً كما فعلت عندما مات طارق وقامت هي بالتخلص من كل الأشياء، متوهمة أنها لن ترجع إلى أبردين أبداً. لكنها لا تشعر بالحزن الآن، ولا بحريقٍ في رأسها وصدرها. كانت تعمل في

هدوء، وتقرر بماذا تريد أن تحتفظ وممَّ تريد أن تتخلص. لم يكن ذلك صعباً ولم يستغرق وقتاً. وحان بعد ذلك دور النظافة الشاملة: نظفت الأرضية والحيطان، النوافذ والثلاجة، الخزانة والأدراج. جعلت رائحة الصابون تنبعث من كل شيء وفتحت النوافذ لتجفف حياتها بالمطر الثلجي. نزعت الستارة وأخذت الوسادة والغطاء إلى المغسلة الجافة.

غريب هذا التجول بالمحال التجارية الكبرى. أضواؤها الباهرة وعطرها الفوّاح. والأعداد المتزاحمة من البشر الباحثين عن التخفيضات. فرحت لازدحام المحال. المحال الهادئة التي تدفع البائعين ليخاطبوك: «هل يمكنني أن أساعدك» كانت تضايقها. عندما اشترت المعطف، كانت أمامها عدة خيارات، أنواع وألوان متعددة. أحد المعاطف الذي ناسبها مقاسه عندما جربته، كانت أزراره ذهبية. الألوان والملمس الناعم ذكّرتها بعمتها. في غرفة القياس، والمرايا خلفها وأمامها، وانعكاسات صورتها تزحم المكان، تذكّرت عمتها وأحست بشوق مفاجئ إليها اليوم. تمنت لو أنهما كانتا معاً، لو أنها تستطيع أن تحتضنها من جديد، أن تعودا قريبتين كالسابق، صديقتين كما كانتا في السنوات التي سبقت موت طارق. ولكن سمر لم تشتر المعطف ذا الأزرار الذهبية، مع أنها كانت تعرف أن عمتها ستفضله، وهي تعلم أن ذوق عمتها في الملابس كان ذوقاً مثالياً على الدوام، كان هو المعيار. اشترت المعطف المصنوع من الدفل ذي المشابك والأحجار البنية الملساء بدلاً من الأزرار. بعد أن دفعت النقود وخرجت من المتجر، أخرجت المعطف من كيس البلاستيك الكبير، الممهور بكلمة «تخفيضات» بالحروف الحمراء، وارتدته مباشرة،

ممزقة ورقة التسعيرة وحاشرة المعطف القديم في مكانه.

قالت المرأة الفاتنة التي تقف خلف منصة أدوات التجميل:

- بشرتك جميلة.

تُكثر هذه السيدة في عينيها الماسكارا وتقل الرموش. كانت تتحسس قوارير الطلاء وزجاجاتها بأظافرها الفوشيا الطويلة.

- أوه... شكراً جزيلاً.

- لن تحتاجي إلى هذه...

واصلت المرأة، ويدها الناعمة تحلق فوق بعض المساحيق والطلاءات في الزجاجات البنفسجية. التقطت زجاجة بها سائل زيتي أصفر وقالت:

- هذه هي... جربي هذه!

قلبت سمر الزجاجة ومسحت شيئاً من السائل على ظهر يدها.

- هل تضعين المكياج؟

- لا... كنت أفعل...

- لأنك لو اشتريت المرطب مع الصابونة والتونر، ستستحقين هدية: مجموعة مؤلفة من أحمر الشفاه، أحمر الخدود، مخطط ومظلل العيون. إنه عرض خاص.

وأشارت أظافر الفوشيا إلى لوحة موضوعة على المنصة كتب عليها «عرض خاص» باللون الأحمر، ورسمت عليها صور الهدية في أحجام أكبر من حجمها الطبيعي.

لم تضع سمر المكياج منذ فترة طويلة، ولم تتعطر منذ موت

طارق قبل أربع سنوات. تنص الشريعة الإسلامية على فترة حداد مدّتها أربعة أشهر وعشرة أيام بالنسبة إلى أرملة. يجب أن تنقضي هذه الفترة قبل أن يحقّ لها أن تتزوج مرة أخرى، وأن تتجمل من جديد. أربعة أشهر وعشرة أيام. فكرت سمر، كما ظلت تفكر دائماً، في الأربعة أشهر والعشرة أيام. ليست هذه الفترة المحددة بدقة شديدة، طويلةً أكثر مما ينبغي، وليست قصيرة أيضاً. تأملت كيف أن شريعة الله أكثر رحمة واعتدالاً من القوانين التي يضعها البشر لأنفسهم.

اشترت ستائر جديدة لغرفتها. بدت الغرفة حين علّقتها في صورة مختلفة تماماً، تغيرت درجات الإضاءة داخلها. لم تعد غرفة مستشفى تحتشد فيها الأكياس البلاستيكية من كل الألوان والأغلفة المرمية على الأرض. أغطية رأسها موزَّعة على السرير. عندما نظرت إلى الستائر مرة أخرى، إلى تموجاتها المتدرّجة من اللون البرتقالي إلى الأزرق إلى البني. انتبهت إلى أنها مثل الستائر التي وصفها لها راي، تلك التي كانت في منزله القديم المطلّ على نهر دي. اختارت هذه الستائر لاشعورياً، من الألوان نفسها التي تحدث عنها. كلماته في ذهنها حالياً، طافية، لا تتبخر ولا تتلاشى. أثناء الليل وهي نائمة لم تعد تحلم بالماضي، بل باتت تحلم بالمطر وبالألوان الرمادية لمدينته. صارت تحلم بالحاضر. سمعت ليزلي في المنام وهي تقول: جهاز الهاتف في القاعة لم يعد يعمل. ورأت أنها هي وليست إميليا كانت تحمل الجنين الميت المشوّه. كان هناك داخلها وكانت تريد أن تدفعه إلى الخارج. كما كانت عمتها هناك في الحلم، وهي تقول لها: «لم يحن موعدك بعد، لم يحن موعد الولادة.» لم تكن

عمتها تعرف أن الطفل ميت، هي وحدها التي كانت تعرف لأن راي أخبرها بذلك. لم تكن حزينة. كانت تشعر بثقل الجنين وهو يجذبها إلى الأسفل. كان الألم مألوفاً، ولم يكن مخيفاً، ولا يبعث على الضيق والمرارة. كانت تعرف أن عمتها مخطئة، وأن الموعد قد أزف، وأنها لن تستطيع أن تمنع نفسها من دفع الجنين إلى الخارج.

كانت الأحلام تريحها؛ طعنات خفيفة كالمطهّر. استجمعت شجاعتها كي تتصل بمدرسة لتعليم قيادة السيارات، وتبدأ الدرس الأول. اصطحبتها المدرّبة، وهي امرأة ضخمة، تتفجر حيوية على الرغم من شعرها الأبيض، إلى امتداد شارع مقفر في هيزلهيد بارك. وعاد إليها دفعة واحدة كل ما تعلمته مع عم أحمد: تغيير التعشيقات والصوت اللطيف الذي تحدثه فرملة اليد عندما تجذبها. ولكن عندما رجعتا إلى الشارع المزدحم، كانت تقشعر كلما مرت بها سيارة في الاتجاه المضاد. كانت تنكمش من الداخل عندما ترى السيارة المقتربة، وتحدف المقود ناحية اليسار وتردد الشهادة بصورة غريزية. أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله. وهنا تكون المدربة قد مدت يدها لتعيد المقود إلى وضعه الصحيح.

عندما اتصل راي ذلك المساء، كانت تسترسل في البكاء.

- نسيت كل شيء. لن أتعلم مطلقاً. لن أجتاز أي اختبار للقيادة.

ضحك منها وقال:

- طبعاً ستتعلمين... ستعود الأشياء كلها في الوقت المناسب. لا تقولي أنك غبية، فأنت لست كذلك.

كان يقول ذلك مشجعاً بينما تنزلق سماعة الهاتف في يدها بفعل الدموع المنهمرة.

ذهبت سمر إلى العمل سالكة الشوارع المألوفة. كانت تعرف أين يتحول الشارع من الأسفلت إلى الحجر. حتى وجوه بعض الناس أصبحت أليفة بمرور الزمن. قبل سنوات قليلة، كانت هذه الشوارع نفسها متاهة من الصدمات الحضارية. الأشياء التي كانت تصدمها: القرط المغروس في شحمة أذن رجل ما؛ امرأة تقود كلباً من الضخامة بحيث يمكن أن يبتلع الطفل الذي تدفعه أمامها في المقعد؛ لوحات الإعلانات العملاقة في الشوارع؛ عن الستينيات العجيبة؛ وإعلانات السجائر التي تقول للناس دخّنوا ولا تدخّنوا في نفس الوقت! النادي الليلي المسمى «دير الخطيئة» والقائم بأرض كنيسة سابقة. لم تعد سمر تلاحظ هذه الأشياء، لم تعد تحملق فيها بخوف، كما كانت تفعل في الأيام السابقة. فقد تحصنت عيناها عبر السنين، واكتشفت شيئاً فشيئاً، أنها ليست وحيدة، واطمأنت إلى أن الناس لا يؤمنون جميعاً بما تقوله الإعلانات، ولا يتفهّمون، جميعهم، لماذا تحتفظ تلك المرأة بذلك الكلب الشرس في منزلها.

٨

كان حرم الجامعة هادئاً كما توقعت. لم تكن السيارات المصطفّة في موقف السيارات كثيرة؛ وكانت مباني الكلية خالية من الطلاب. كانت غرفة سمر في الطابق العلوي، حيث تفتح إحدى نوافذها على السماء مباشرة. كانت تحب غرفتها تلك حيث يأتيها الضياء من تلك النافذة، وتشاركها فيها دايان، إحدى طالبات الدكتوراه اللواتي يشرف عليهن راي. دُهشت سمر حين رأت الغرفة مفتوحة، والأنوار مضاءة. كانت دايان منكبة على بعض الأوراق المصوَّرة، تحيط بها عدتها المعهودة من الأقلام، والكوكا الخالية من السكر، والشكولاتة، وساندويتش المخلل والهام.

- ظننت أنك لن تكوني موجودة. جميل أن أجدك الآن.

علقت سمر معطفها على المشجب خلف الباب. وواصلت:

- ماذا حدث؟ ألم تذهبي إلى أهلك؟

أهل دايان كانوا بمدينة ليدز.

- ذهبت ولكنني عدت البارحة.

وضعت وجهها بين يديها وهي ترفع رأسها نحو سمر.

- يبدو عليك التعب.

- السهر، والحفلات الكثيرة.

ابتسمت دايان، وخلعت نظارتها، واستنشقت شيئاً من الهواء ثم أسندت رأسها فوق الدُرج. تدَلَّى شعرها الأشقر المسترسل وانسدل على الصفحات فوق الدُّرج. تبدو أصغر سناً بدون النظارة، تبدو أقل «انكباباً» على العلم والتحصيل. أحسّت سمر بصغر سن دايان؛ أصغر منها بثماني سنوات، ومع ذلك فهي مستقلة لدرجة بعيدة، مقارنة بما كانت عليه سمر عندما كانت في سنها. مستقلة هذه الفتاة. وثمة مصدر آخر من مصادر الصدمة الحضارية التي أخذت تستوعبها مع مرور الأيام:

- أهديت أمي ملابس داخلية في عيد الميلاد... التقيته في الحانة البارحة... لم يأت أحد تقريباً لمحاضرة راي، هذا الصباح، لأننا سكرنا حتى الثمالة في الليلة السابقة... بالتأكيد لا أرغب في انجاب أي أطفال... لن أتزوج مطلقاً.

كانت دايان تردد هذه الجملة الأخيرة كثيراً، وتعبر عن ايمانها العميق بها. وإذا كانت سمر في وطنها وكانت دايان إحدى صديقاتها، ورددت أمامها هذه الجملة، لقالت لها:

- هل أنت مجنونة؟ هل تريدين أن تبقي عزباء طوال حياتك؟

وغرقت حينها الصديقتان في ضحك عميق!

أما هنا فقد اكتفت بالقول لدايان:

- قد تغيرين رأيك وتتزوجين يوماً ما.

سألتها دايان بدورها:

- هل ذهبت إلى أي مكان من قبل؟

- أبداً.

ولكن سمر كانت تشعر بأنها ذهبت إلى مكان بعيد. إلى مكان شعرت فيه بالرضى. فتحت الحاسوب الراكن على طاولتها، وضغطت على الزر الموجود على «المونيتر» فلمعت. أخذ الحاسوب يسترجع ذاكرته.

- سأسافر أول الشهر المقبل. سأذهب إلى القاهرة أولاً ثم أكمل إلى الخرطوم لأحضر ابني معي.

رفعت دايان وجهها ونظرت إليها بعينين ناعستين. تثاءبت.

- هل من مشكلة في إحضار ابنك إلى هنا؟ مشكلة هجرة يعني؟

- لا. لقد وُلد هنا. وكذلك أمه.

- حقاً؟ لم أكن أعرف ذلك.

- بالله؟ هل يمكن الا أكون قد ذكرت ذلك؟ كان أبي يدرس هنا حينها، ولذلك حصلت على جواز سفر بريطاني. طبعاً هم غيروا القانون الآن. في ذلك الوقت كان كل من يولد في بريطانيا، يستحق الجواز البريطاني. ولذلك ليس لدي مشكلة في إحضار ابني.

بدت على دايان خيبة الأمل وكأنها كانت تتوقع إحدى قصص الحظ العاثر التي تتناول موضوع ظلم وزارة الداخلية البريطانية.

لو لم يكن جواز السفر بحوزتها، لَمَا كانت سمر هنا الآن. قدمت لأن المجيء للعيش في بريطانيا كان ممكناً. وعندما اصطدمت بعمتها، باعت سوارها الذهبي كي تبتاع التذكرة الوحيدة الاتجاه. لم تملك مالاً كافياً لتبتاع تذكرة ذهاباً وإياباً. اختارت أبردين لارتباطها

بطارق، ولأنها كانت قد عملت بالجامعة مؤقتاً، وربما وفّروا لها فرصة عمل لهذا السبب. كانت محظوظة من دون أدنى شك. فقد كان هناك طلب كبير على الترجمة من العربية إلى الانكليزية، ولم تكن هناك منافسة تذكر. صاغ قَدَرها قانوناً أعطاها الجنسية البريطانية؛ ولحظة من زمن كان فيها الطلب على المترجمين من اللغة العربية إلى اللغة الإنكليزية أكثر من العرض.

- لا، هذه ليست الحقيقة.

قالت تذكّر نفسها: «قدري كتبه الله تعالى الذي حدّد لي ما إذا كنت سأتزوج أم لا، وبمن أتزوج؛ وماذا آكل؛ والوظيفة التي سأحصل عليها، وصحتي، واليوم الذي أموت فيه. أن أفكر بطريقة أخرى، يعني فشلاً يصبح العالم بعده ضيقاً وبائساً وحرِجاً.»

تصفّحت الملفات. فتحت الملف الذي تريد. كانت دايان تتحدث عن المرة الأخيرة التي رأت فيها راي قبل أن تذهب إلى ليدز.

- لم يكن في أحسن حالاته. أردت أن آخذ منه بعض الأوراق، فقال لي:

- يمكنك أن تجديها في المكتبة، فهي ليست معي.

لكني كنت أعرف أنها معه. وكان كل ما حصلت عليه منه هو أن المكتبة لا تغلق أبوابها كل الأيام أثناء العطلة.

ابتسمت سمر وهي تسمع زفرات دايان وتراها وهي تضع رأسها على الدرج:

- ثم أعطاني هذه...

قالت ذلك وهي تلوّح أمام سمر بمقالة لأحد الطلاب عليها تعليق

من راي على ورقة لاصقة. رأت سمر خط راي على الوريقة الصغيرة، «دايان، ١٤ تعتبر درجة كبيرة جداً على هذه المقالة الشحيحة المراجع.

كانت دايان تشرف على بعض فصول الطلاب الذين يدرّسهم رأي وتقوم بتصحيح كراساتهم في بعض الأحيان.

- كم كان يريدك أن تعطيها إذاً؟

- ١١ كحد أقصى.

كانت دايان تخرج الساندويتش الآن من التغليف.

- حسناً. ١١ أيضاً درجة مرور.

- كنت أريد تشجيعها. ١٤ كانت ستشجعها ولكن ابن السّفاح مماحك بصورة مزعجة.

- ربما تستطيع إعادة كتابتها!

- لن تفعل ذلك. ستكتفي بهذه الدرجة.

رمت دايان المقالة في ركن بعيد من درجها وأخذت تتناول الساندويتش، وهي تنصرف مجدداً إلى عملها.

كانت سمر سعيدة بعودة دايان. لم تكن تحب أن تكون وحيدة، كما كانت تشعر بالرضى كلما ذكرت دايان اسم راي. يراودها الشعور نفسه عندما تتحدث عنه ياسمين. الفرق الوحيد هو أن دايان عفوية وحسنة النية، بينما أخذت ياسمين تمتعض كلما سألتها سمر عن راي، وكانت تجيبها بحدة:

- هل تتوقعين أن يصبح مسلماً كي تتمكني من الزواج به؟

كانت سمر تتساءل عما إذا كانت ياسمين قد عادت من مانشستر التي ذهبت إليها مع نظام لزيارة أهله. عندما تهم بالعودة إلى غرفتها، في ما بعد، ستذهب إلى راي لترى ما إذا كان قد عاد، وستمرّ على مكتب السكرتيرات لترى ما إذا كانت ياسمين قد عادت أم لا.

عند الظهيرة، ذهبت للصلاة في المسجد الصغير الذي خصصته الجامعة للطلاب المسلمين. كان ذلك في مبنى آخر، أقدم من المبنى العصري الذي تقع فيه شعبتها وأجمل منه. وجدت الغرفة مظلمة وباردة. أضاءت الأنوار، وخلعت نعليها. شعرت بوحشة الخوف وهي بمفردها في هذه الغرفة الكبيرة بسقفها العالي. أثناء الدراسة، عندما تكون الغرفة مزدحمة، يصلي الجميع على البساط فقط، ولكنها الآن تناولت إحدى السجاجيد الموضوعة فوق الرفوف ونشرتها على البساط. سجادة زرقاء، ألوانها زاهية، أفخر من تلك الموجودة في منزلها، وعليها صورة الكعبة تحت سماء في زرقة البحر. أجر الصلاة في جماعة أكبر من أجر الصلاة الفردية. عندما تصلي في جماعة كانت تجد سهولة في التركيز، ويكون قلبها آمناً في حضرة أولئك الذين يعمر الإيمان قلوبهم مثلها. أما الآن فقد وقفت وحدها تحت السقف العالي للمبنى العتيق في الكلية القديمة، وأخذت تردد: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين...

أسال اليقين الذي كان يغمر كلماتها بعض الدموع على غير توقع. شعور أعمق من السعادة. كل شظايا النفس تلتمّ وتعود إلى مكانها الصحيح.

عندما فرغت من الصلاة، ألقت نظرة على لوحة الإعلانات:

مواقيت الصلاة، جدول اجتماعات مجموعة حوار الديانات، محاضرة عن القدس يقدمها داعية من سانت أندروز.

عادت إلى غرفتها عابرة الحدائق المبتلة في الحرم الرئيسي للجامعة. الخروج إلى الهواء الطلق يكسر من رتابة اليوم، والجو صار أكثر برودة عمّا كان عليه في الصباح. في الأيام التي لا تكون دايان موجودة أثناءها، كانت سمر تصلي داخل الغرفة، بعد أن تغلقها من الداخل. كانت تحتفظ بشال قديم في دُرجها، تستخدمه كسجادة للصلاة. دُهشت أول قدومها إلى البلاد للخصوصية التي تتمتّع بها الصلاة، وهي المعتادة على رؤية الناس يصلون في الممرات وعلى النجيل. اعتادت على الصلاة أثناء الحفلات، وفي الأماكن التي يتسمّر فيها الناس، وينامون ويطالعون ويقرأون. ولكنها فهمت الآن. بعد أن عاشت في هذه المدينة كل هذه السنين، بات مدى الدهشة التي سيصاب بها الآخرون إذا ما استداروا في أحد أركان المباني ووجدوا امرأة ما ساجدة وجبهتها وأنفها وراحتيها تلامس الأرض. وتساءلت ماذا يكون شعور راي لو رآها تصلي؟ هل سيشعر بالنفور والغربة، بعمق الاختلاف بينهما ووضوحه؟ أم أنه سيشعر بأنه أمر يمكن قبوله؛ شيء ربما يرغب هو نفسه في ممارسته؟

أغلقت الحاسوب، فتوقف ذلك الأزيز الذي كان يملأ الغرفة طوال النهار. كانت دايان في المكتبة، فأصبحت الغرفة هادئة من دون الحاسوب. همّت سمر بالعودة إلى المنزل، مارة بمكتب راي وهي في طريقها، ولكنها استمرت في الجلوس. قد يكون مختلفاً عمّا كان عليه في الهاتف، أكثر برودةً، ورسمياً، ومنصرفاً عنها بأشياء ومشاغل أخرى! قد تكون الطريقة التي تحدث بها معها عبر

الهاتف مرتبطة بالعطلات! هذه العطلات الباردة في منتصف الشتاء، عندما تكون الأماكن كلها مغلقة، وتكون الأيام أقصر مما هي عليه كل العام. هذه الأيام التي تخرق المألوف، وتغري بالإفراط في كل شيء.

فتحت دايان الباب، ودخلت حاملة قطعتين من الشكولاتة وكيساً من الكريسب.

قالت وهي تضع أشياءها على الدرج:

- قابلت ياسمين الآن بالمكتبة.

- عادت إذاً!

- انتفخ بطنها تماماً الآن.

قالت دايان ذلك وهي تلف كرسيها الدوّار.

- حقاً؟

تساءلت سمر وهي تبتسم. ثم قالت «لا شكراً...» عندما عرضت دايان عليها قطعة الشكولاتة.

- قالت إن راي بالمستشفى.

شعرت بالألم في موضع محدد، في أعلى معدتها.

- لماذا؟

فتحت دايان كيس الكريسب. رائحة الجبن والبصل ملأت الغرفة.

- يبدو أن إحدى الممرضات اتصلت من فورسترهيل وقالت إنه يعاني نوبة حادة من الربو، وإنهم سيُبقونه في المستشفى لأنه يعاني كذلك التهاب الشعب الهوائية.

واصلت دايان:

- هذه بداية موفَّقة تماماً للعام الدراسي! لا أدري من سيُلقي محاضراته إذا لم يحضر الأسبوع المقبل؟ ولكن ياسمين قالت إنهم قد لا يُبقونه هناك لفترة طويلة.

أخذت سمر تحملق في البساط. في الثلمة التي تقف عليها رجل الكرسي. كان يكح أثناء حديثهما عبر الهاتف. كان يكح ويقول لها إنه يشعر ببعض الحمى، ولكنها لم تتوقع أن يكون الأمر خطيراً. لو لم تقل دايان «هذه بداية موفَّقة للعام الدراسي!» لو لم تكن قد ملأت الغرفة برائحة الجبن والبصل، فربما لما كان الألم بهذه الدرجة، ولما كان ممزوجاً بهذا الغضب. كانت تود لو تقول لها:

«أنت عديمة الأخلاق، أنت صفيقة. عندما يصاب شخص ما بالمرض، ويؤخذ إلى المستشفى، ثمة أشياء أخرى تقال: كلمة تعاطف، أو دعوة بالشفاء. أما إذا كان ذلك الشخص أكبر منك سناً، أستاذك، شخصاً يساعدك، فإن احترامك له واهتمامك بمصيبته يجب أن يتضاعفا. ليس بهذا اللؤم، أنت لست صغيرة لتكوني بهذا اللؤم.»

ضغطت على أسنانها وهي تقول لنفسها:

«لا تتحدثي. أنت غير مسموح لك بمثل هذا الكلام.»

شعرت بالدم يصعد إلى أنفها، وكأنها على وشك النزيف. وكانت ترغب في ذلك، كانت ترغب في صوت اندفاعه الناعم، في الدم اللزج وهو يخرج من أنفها.

- ولكنني سأذهب الآن.

قالت ذلك وهي ترتدي معطفها، وتحمل حقيبتها.

- مع السلامة.

- أراكِ.

عندما أغلقت الباب خلفها شعرت بسائل يخرج من أنفها، ولكنه كان صافياً كالدموع. وهي تنزل السلم، وعندما تكون في الشارع، وحين تستقلّ الباص، كانت تقول لنفسها إنها تبالغ في ردود أفعالها، وإنه ما من داع لكل هذا الانفعال. سيكون في كامل صحته خلال أسبوع أو أسبوعين. فالالتهاب الرئوي ليس على هذه الدرجة من الخطورة. كانت ترتجف في الشوارع المضاءة، وداخل الباص الذي كان أكثر بطئاً من المعتاد. كان يتوقف فترات أطول عند إشارات المرور، وكان يعطي الناس زمناً أطول في الصعود والهبوط. حياة عادية ويوم عادي. بدا الركاب في نظرها وكأنهم فوق البشر، أفراد يتجولون في الشوارع غير مثقلين بالألم، ولم تكن ترغب في البكاء في الباص أمام أعينهم.

أدخلت المفتاح في قفل المبنى. صرير حاد وصوت موسيقى ومعدن ثقيل. بعض النزلاء عادوا، فعطلة الميلاد انقضت. رسالة من عمتها. الطوابع الأفريقية الملونة، رطبتها الأمطار الأوروبية. البريد الذي بات يتأخر أثناء العطلة، أصبح منتظماً من جديد. وضعت الرسالة في حقيبتها من دون أن تفضها وصعدت السلالم. لم تعد غرفتها غرفة مستشفى، صار بها ستائر جديدة، وفراش جديد. يجب ألا تبكي. ثم ما الذي يبكيها على وجه التحديد؟

قالت تحدّث نفسها:

«لا تكوني حمقاء.»

تصاعدت الموسيقى إليها عبر السقف. حشرجة وغضب. لماذا هم غاضبون هكذا؟ لا يمكنها فهم الأمر. عليها أن تهرب من هذه الموسيقى. هي تعرف على الأقل إلى أين تذهب.

قالت تحدث نفسها من جديد:

«كفّي عن البكاء، ما الذي يُبكيك؟ ستحمّر عيناك. سينظر إليك وتكون عيناك محمرتين وقبيحتين.»

مستشفى فورسترهيل مجمّع ضخم من المباني. تتخلله شوارع وحدائق وملاعب أطفال. تتوزّع فيه كلية الطب حيث كان طارق يتدرّب ويقدّم الامتحانات، وقسم التوليد الذي وُلد فيه أمير، بالإضافة إلى قسم الحوادث حيث توفي طارق ذات يوم مشمس عندما كانت هي تنتظر الرجل القادم من المسجد، وكان أمير يتجول في الممرات، متلاعباً بكل الأشياء وعابثاً بجهاز إطفاء الحريق حتى أمسكت به وهمست في أذنه بما يشبه الفحيح:

- أتمنى لو كنت أنت محله، فأنت قابل للتعويض!

ولكنه تملص منها. كان أصغر من أن يفهم، وأكثر دماثة من أن يتأثر بغضبها. هي وحدها التي ظلّ شعورها بالذنب يُثقلها، ذنب صدئ كقطعة معدن قديمة.

ذهبت سمر إلى المستشفى مثقلة وكأنها تقاوم قوى خفية. كان ذلك ما تشعر به برغم جلوسها داخل باص دافئ. لم تكن تسير، لم تكن تجري، لم تكن تبذل مجهوداً خارقاً. يجب أن تقاوم التفكير في المرة الأخيرة التي قدمت فيها إلى هذا المكان. كان الأمر مختلفاً: حدث خلال النهار، في فصل الصيف، وكانت تنتعل

صندلاً، وتدفع أمير أمامها في كرسيه. أما الآن فهي قادمة بالباص بمفرها، وظلام الشتاء يسربل الكون في الخارج، والبرد قارس وقاس. لماذا هي ذاهبة لرؤية راي؟ وإن كان نائماً، فهل ستكتفي بالجلوس في أحد الكراسي قرب سريره، وتصغي إلى شخيره؟ وإن كان مرضه شديداً، فهل يضايقه حضورها، ورؤيتها له وهو على هذه الحال؟ ألن يفسر وجودها كنوع من التطفل على خصوصيته؟ وماذا لو نظر إليها بدهشةٍ وعيناه تقولان لها: ما الذي أتى بك إلى هنا؟

عليها أن تعود الآن. عليها أن تترجل من الباص في المحطة القادمة، وأن تعبر الشارع وتستقلّ الباص الآخر الذي يسير في الاتجاه المعاكس. ولجأت إلى استخدام الدهاء لتشجيع نفسها، لجأت إلى الحيلة. قالت لنفسها:

«يمكنك الذهاب إليه في يوم آخر. عندما تكون حالته قد تحسنت نوعاً ما. ويمكن لياسمين أن تأتي معك، أو حتى دايان (وإن كانت تشك في ذلك). إذاً، أن يأتي الطلاب الآخرون، وكذلك السيدة الجزائرية. من شأن ذلك أن يجعل المسألة تبدو عادية. زملاء في العمل قدموا لرؤيته. سيكون الأمر محترماً.»

وخاطبت نفسها:

«ليس عيباً أن تعترفي بأنك تسرّعت بالمجيء هكذا لرؤيته. ومن الحكمة تقرّي بالخطأ وتتراجعي بدلاً من العناد والتمادي. ولذلك انزلي في المحطة القادمة. قفي وتحركي الآن نحو الباب كي تتمكني من الخروج عندما يُفتح.»

ولكن المحطات تتابعت، الواحدة تلو الأخرى، وهي ما تزال

جالسةً لا تريم، تشقُّ طريقها باتجاه فورستر هيل. توقف الباص أمام المستشفى، وانفتحت الأبواب الآلية. وكانت من البطء في الوقوف ومغادرة مقعدها، بحيث كادت الأبواب تغلق عندما عبرت خارجة. وضربها الباب في كتفها، فتراجع وانفتح، وشيّعها سائق الباص بتقطيبة وهمهمة غاضبة، وهي تنظر إليه عبر المرآة الخلفية للباص.

كان الباب الزجاجي الذي عليها أن تدفعه قبل الدخول إلى المبنى، أثقل الأبواب الزجاجية في العالم. شعرت بأن عضلات كتفها تكاد تتمزق. ثمة محل للهدايا في البهو: لعب أطفال؛ ورود؛ وثمة محل آخر لبيع الصحف والحلوى. رأت المصاعد للطوابق المختلفة. وانتبهت فجأة إلى أنها لم تكن تعرف العنبر الذي يرقد فيه راي. وشعرت ببعض الراحة حينها. فإن لم تكن تعرف مكانه، فهذا دليل على أنها ما كان من المفترض أن تأتي منذ البداية وعليها الآن أن تعود أدراجها، مقتنعة بالرجوع. إذا كانت قد وجدت عنبره، لكانت ستسأل عما إن كانت حالته تسمح بالزيارة، وإذا كانت لا تسمح، فإنها ستقفل راجعة من دون أن تترك اسمها. أما إذا كان نائماً، فإنها ستغادر قبل أن يستيقظ. شعرت بأنها أفضل حالا الآن. فقد رتبت كل شيء على أكمل وجه.

قالت للممرضة عند الاستقبال:

- أريد أن أزور شخصاً لا أعرف أين هو بالضبط في المستشفى.

سألتها الممرضة بعض الأسئلة: أهو رجل أم امرأة؟ ما هو المرض الذي يعاني منه؟ تاريخ الدخول إلى المستشفى؟ الاسم؟ وكانت تنظر إلى ما يبدو أنها أوراق من طابعة الحاسوب، وأعطت سمر رقم العنبر.

- هل تسمح حالته باستقبال الزوار؟ قالت وعيناها تتّسعان.

- عليك أن توجهي هذا السؤال في العنبر نفسه، وسيخبرونك بالتفاصيل.

قالت ذلك ببسمة عجولة.

الكثيرون كانوا بانتظار المصعد. وبالقرب منه كانت تقف شجرة عيد الميلاد، ويمتدّ مقهى صغير مزدحم بالناس وهم يأكلون ويشربون. وجلس آخرون على أرائك يطالعون الصحف ويتبادلون أطراف الأحاديث. ذكّرت الجلبة سمر بالمطارات. من الصعب أن تتصور أن هناك من يعاني داخل هذه الجدران.

عند مدخل العنبر، أعطت اسمه للممرضة. وجه شاب وجميل، عينان زرقاوان وصافيتان. كانت نحيفة لدرجة أن بطنها خلف ضغط الحزام الأحمر الذي كان جزءاً من زيها الرسمي، بدت مقوّسة.

- إنه هناك، السرير الخامس على اليمين.

أشارت الممرضة بأصبعها إلى داخل العنبر، ولكن سمر لم تنظر إلى حيث يشير إصبع الممرضة.

- هل حالته تسمح باستقبال الزوار؟

- نعم، طبعاً، إنه بحالٍ جيدة.

غطت الدهشة وجه الممرضة.

تريثت الممرضة بعض الشيء واضطرت سمر إلى الابتعاد عن النظرة المستغربة. الرأس مطأطئ، العينان مسبلتان، المشمع رمادي، احسبي أرجل الأسرّة. واحد، اثنان، ثلاثة، رفعت عينيها واستوعبت العنبر بأكمله بنظرة واحدة. أمامها مباشرة شجرة عيد الميلاد، قرب

نافذة ضخمة. صفان من الأسرة على الجانبين. بعضها محاط بستائر خضراء تحجب أصحابها. وما عدا ذلك، فبحر من الأسرّة ذات الملاءات البيضاء والتي يشغلها الرجال المرضى، ذوو الملامح الباهتة، التي يصعب تمييزها. رأته قبل أن يراها. كان جالساً، ولم تكن بجسمه أي أجهزة. كانت ملامحه أليفة حتى أنها كادت أن تشهق. ها هو أمامها، شخصاً عرفته في مكان آخر. كانت تعرفه أكثر مما يعرفه أي شخص آخر هنا. كانت تعرفه في إطار غير هذا الإطار. ها هو أمامها، شخص تربطه بها الروابط. حتى أن الكلمات الأولى التي قالتها له لم تكن تنتمي إلى عالم العقل.

- راي، لماذا جاؤوا بك إلى هنا؟

نطق باسمها، ثم ارتفع صوته قائلاً:

- أنا سعيد لرؤيتك... عظيم أن أراك.

وظل يردد هذه العبارة حتى شعرت بالحرج مع ارتفاع نبرة صوته، متخيلةً أن العنبر كله يسمعهما، والرجال يلتفون ناظرين نحوهما. كانت تريد أن تنحني وتطوقه بساعديها، وتقول له: أخفِضْ صوتك، أنت تتحدث بصوت مرتفع جداً. ولكنها بدلاً من ذلك وضعت يديها في جيوبها وجلست على الكرسي الموضوع بجوار سريره.

كان يبدو أكبر مما تتذكر. ربما لأنها كانت تلاحظ للمرة الأولى أن في رأسه بضع شعيرات بيضاء. كان شعره يلمع، وأطول من المعتاد. جبهته وأنفه لامعان. يرتدي بيجاما رمادية مغضنة، غابت إحدى أزرارها، وقميصاً قطنياً أسود تحتها. ابتسم لها، شفتاه مائلتان إلى الزرقة ووجنتاه منطفئتان بعض الشيء، وامتدت بعض الزرقة إلى

أطراف أصابعه. كان سعيداً برؤيتها.

قالت له:

- صوتك مرتفع جداً.

وهي تنظر بقلق إلى جاره. ذاك كان رجلاً طاعناً في السن، ينام على جنبه ويواجههما. يبدو أنه يستخدم طقم أسنان عندما لا يكون نائماً. على الجانب الآخر من راي، ثمة سرير حوله ستارة خضراء، وعلى الجانب الآخر شاب يقرأ صحيفة.

لم يجب راي، ابتسم فقط وظل ينظر إليها. أشاحت بنظرها عنه. الترحيب بها أثار صدره، وجعله يكحّ. كحّ مرة وحدة ولكنه أصدر صوتاً مخيفاً، أسوأ من أي مرة سابقة سمعت كحته.

- ماذا حدث؟ كلمني.

هز رأسه وهو يقول بأنفاس متقطعة:

- بعد قليل... تحدثي أنت الآن...

لم تعرف ماذا تقول، بم تبدأ حديثها. إذا لم يكن ينظر إليها، فربما يكون سهلاً عليها أن تتحدث.

- هل تريد أن تعرف كيف عرفت أنك في المستشفى؟

- نعم

حكت له، وهي تلوي حمّالة حقيبتها، التي كانت تضعها في حجرها وكأنها تهم بالمغادرة في أي وقت. ذكرتها حقيبتها برسالة عمتها، فشعرت بها وهي ترقد في الداخل لم يفض غلافها.

قال لها:

- أنت جميلة.

تلك جملة مفاجئة أشعرتها بالخجل. وعلّقت:

- إنه معطفي الجديد، اشتريته في تخفيض نصف السعر فترة تخفيضات.

ضحك، واتصلت ضحكته بنوبة أخرى من السعال. ضغط بأصبعه على صدره، وعبس قليلاً قائلاً:

- هذا شيء مؤلم.

وقالت تحدث نفسها: «يجب ألا أقول ما يضحكه. فالضحك يسبب له السعال.

خيّم الصمت عليهما. سكت كل منهما في الوقت نفسه وقتاً طويلاً. شعرت كأنها قطعت أميالاً في المجيء إلى هنا، بذلت مجهوداً كبيراً، شقت طريقها بين الضباب والرمال. أما وقد وصلت فإنها تشعر بالاستقرار، تشعر بأن قلبها وعقلها استقرا. لا أفكار تائهة، ولا بلبلة. الأشياء كلها محتشدة هنا الآن، تملأ فراغات الزمن الصامت. الدقائق تمر، دقيقة تلو الأخرى. رائحة المطهّر. أصوات المستشفى: وقع الأقدام، والنقالات، وأصوات الناس، ورنين هاتف بعيد. رنين لا يخصهما هما. توقفت عن لوي حمّالة الحقيبة، ابتسمت له، ونظرت بعيداً. هذا ليس حلماً، عيناها وأذناها هادئتان، لا تفتقدان شيئاً.

قالت تسأله:

- ماذ في يدك؟

كانت هناك لصقة بظاهر يده اليسرى.

- كنت أتلقى الأمكسوسلين بالوريد، ولكنني بدءاً من الغد سأتناوله كأقراص.

بدا أكثر قدرة على الحديث الآن، وروى لها كيف ساءت حالة صدره في الأيام القليلة الماضية، وكيف كانت قيادة السيارة من إستيرلنغ إلى أبردين كابوساً انتهى بأسوأ نوبة أزمة حدثت له في كل حياته.

- ذهبت إلى الطبيب العام مباشرة، فحوّلني إلى هذا المستشفى. لم أتمكن حتى من الذهاب إلى المنزل، وما زالت أغراضي معي.

- كان عليك أن تذهب إلى الطبيب في إستيرلنغ، ولماذا عدت إن كنت مريضاً إلى هذه الدرجة؟

لم يجب على سؤالها، وواصل وهو يقول:

- تذكرت الآن فقط أن بحوزتي شيئاً لك. وهو معي في هذه اللحظة.

نهض ببطء من السرير، ورأت أنه يلبس جاربين بألوان عجيبة، فردة زرقاء وأخرى سوداء. انحنى وجذب حقيبة من تحت السرير. فتحها وأخذ يُخرج منها بعض الملابس، يبدو أنه كان يريد غسلها، وكومة من الكتب، والشرائط.

- عادة أكون أكثر انتظاماً مما أنا عليه الآن.

ضغطت سمر على شفتيها حتى لا تعرض عليه أخذ ملابسه معها إلى البيت، لتغسلها له. كانت تريد أن تطبقها، وتسوّي تجاعيدها، تنظم أكمامها، وتنسّقها في مجموعات أنيقة.

- هل يمكن أن ألقي نظرة على شرائطك؟ هل هذه هي الشرائط

التي تستمع إليها في السيارة؟

أومأ برأسه موافقاً، واستمر في تفتيش حقيبته. تعرفت إلى بعض الأشرطة: أغاني لبوب مارلي: «البقاء على قيد الحياة»، «بابل بالباص»، «الانتفاضة». كان يجوب اسكتلندا وهو يستمع إلى موسيقى الريڤي؛ إلى النداءات لوحدة أفريقيا. . . (إمبوش إن ذي نايت) كمين في ظلمة الليل (سنظل نحبك يا يهوه إلى الأبد) will be forever loving Jah. استحضرت الكلمات بنغماتها:

حرروا أنفسكم من العبودية العقلية.

ليس غيرنا من يحرر عقولنا.

أين سمعت هذه الأغاني؟ هناك في الخرطوم، في صفوف البترول في («حي نمرة ٢»)؟ من مذياع إحدى حافلات التويوتا؟ العربات تتزاحم وتتواجه، والصف كله كثعبان مرقط يحترق تحت الشمس. روائح المخبز تختلط برائحة النفط، مدمنو استنشاق الوقود يجلسون بالقرب من الطلمبات التي تتصاعد منها أبخرتها، والشحاذون يستندون إلى العربات، ويحشرون أصابعهم داخل نوافذها. كانت هذه الأغاني نفسها هناك، وكان طارق قد اشتراها في هذه المدينة الباردة، من يونيون ستريت، لأن الشرائط التي كانت هناك ذابت منذ زمن تحت وهج الشمس. أنظري إلى السماء الملبدة بالغيوم، إدع لطارق كي ينجح في امتحانه، وعلمي أمير الغناء:

الشمس مشرقة.

والجو لطيف.

أمسكت بأحد الشرائط، وقلبته بين يديها. أعلام أفريقية على

الغلاف، خضراء، يغلب عليها اللون الأخضر. ولكن بها الألوان الأخرى أيضاً: الأحمر، والأزرق، وصورة الهلال والنجوم، وشعلة مرفوعة عالياً. في حجرة المستشفى، حجرتها، وفي الأيام السعيدة، كانت تستمع إلى هذا الشريط نفسه، شخص يقول الحقيقة:

- بقدرة الله العظيم، نبقى على السطح. قال راي:

- أحضرت لك هذا من إدنبرا.

كان شيئاً ملفوفاً في ورق أزرق، مربع الشكل، صندوق صغير. أخذ يعيد أشياءه إلى الحقيبة، ببطء ولكن من دون اهتمام، يحشرها في الحقيبة.

فضّت ورق الهدية بحرص كي لا تمزق الغلاف. كانت قنينة عطر، بيضاوية الشكل، بقفل وليس بخاخ، سائل بلون الكهرمان. ظنّت أثناء تفتيشه في الحقيبة أنه سيعطيها مقالة الأزهر التي كان يريد ترجمتها.

قالت له:

- شكراً. وفتحت الزجاجة. شذى العطر لم يكن صارخاً، ولكنه كان كثيفاً وزكياً.

- رائحته لطيفة.

قالت له ذلك برغم أنها تعلم أنه لا يُحكَم على العطور بهذه الطريقة. عليها أولاً أن تزخ منه زخة في باطن رسغها، وتنتظره حتى يستقر وتفوح رائحته. ولكنها لم تكن لتفعل ذلك الآن. وحين رفعت بصرها رأت أنه كان محرجاً مثلها تماماً.

قال وهو ما يزال منحنياً على الأرض يحاول إعادة حقيبته:

- اشتريته من رجل فرنسي. قال إن هذا عطر جديد، وإنه الأفضل، وقال إنه نزل من السماء عن طريق باريس.

ضحكت:

- شيء مضحك أن يقول إنه نزل من السماء عن طريق باريس!

بدا متعباً عندما وقف، فعاود الجلوس على السرير.

قالت:

- يجب أن أذهب الآن، يبدو عليك التعب.

هز رأسه وأجاب:

- لا بالله عليك لا تذهبي. الوقفة الفجائية أشعرتني ببعض الدوار، لا أكثر. ابقي، أود التحدث إليك.

طوت ورق الهدية، ووضعته داخل الحقيبة مع العطر. أخرجت رسالة عمتها، وقالت:

- أنظر إلى العنوان الذي كتبته عمتي: «أبردين، إنكلترا». أحدهم في مكتب البريد، شطب كلمة «إنكلترا» بالحبر الأحمر.

- لقد كسبتني في صفك تماماً يا سمر في كل خلافاتك مع عمتك. أبردين، إنكلترا، هذا ذنب لا يمكن غفرانه!

- يبدو أن هذا رأيهم كذلك في مكتب البريد، جميل أنهم أوصلوا الرسالة.

قال:

- عندما كنتُ في القاهرة، كثيراً ما كان يوجَّه إليّ هذا السؤال: هل أنت إنكليزي؟ وكنت أجيب بالنفي. هل أنت أميركي؟ «لا».

عندها كانت تساورهم الشكوك. أقول لهم اسكتلندي، فيسألون: أوه، هل هذا هو المكان الذي تشتعل فيه الحرب؟

قالت له:

- كان عليك أن تقول اسكتلندي. وباللغة العربية: أنا اسكتلندي، مش إيرلندي.

- قولي لي قبل أن أنسى: ما معنى شرك الأسباب؟ أعرف أن شرك معناها تعدد الآلهة.

- الأسباب هي مقابل الكلمة الإنكليزية «كوزيز». إذاً، شرك الأسباب معناها تحويل الأسباب إلى آلهة. مثلاً الإيمان بالطبيعة، وتحويلها من مجرد سبب إلى شريك لله. أين وجدت هذه العبارة؟

- فريد.

- هل هو الذي قابلته في إستيرلنغ؟

- نعم. سيحضر هنا إلى أبردين في نهاية هذا الشهر، ليدرّس جزءاً من المادة التي أدرّسها. ستتعرّفين إليه حينها، فقد حدثته عنك.

تساءلت في سرها، لماذا تحدّث عنها؟ كيف صاغها في كلمات؟

- من أين هو، في الأصل؟

- أتى من لبنان، ولكنه فلسطيني الأصل من غزة. كان صحافياً، وقد سجنه الإسرائيليون فترةً من الزمن. وأمضى في السجن وقتاً عصيباً، عصيباً للغاية.

- هل ذهبت إلى لبنان أو غزة؟

- لا.

- ذهبت عمتي إلى بيروت قبل زمن طويل. قبل الإضطرابات. وقد أحضرت لي هدايا كثيرة.

كانت عمتها قد أحضرت لها قميصاً عليه صورة وجه أصفر باسم، ولعبة تستطيع المشي.

واستطردت قائلة:

- نسيت أن أفتح رسالتها.

كانت تريد أن تقرأ الرسالة الآن، كي يخفّف وجوده من الأذى الحتمي.

كانت الرسالة قصيرة، تضمّ قائمة بأشياء ترغب في أن أحضرها معي. بعض الأدوية من الصيدلية: الباراسيتامول، مليّنات، بسكويت لمرضى السكر. حنان أنجبت طفلاً جديداً، ويبدو أنها تريد نقل محلات «ماذر كير» كلها إلى هناك! ثم هناك أشياء لأمير: ملابس، رولربليدز. رولربليدز؟ كيف يكتشفون مثل هذه الأشياء؟ أرجعت سمر قائمة المطالب إلى الحقيبة. قائمة باهظة. لا بد من أن عمتها تعتقد أنها أصبحت مليونيرة، أو ربما ظنتها مغتربة كأولئك الذين وجدوا وظائف في السعودية ودول الخليج. الرسالة نفسها كانت خفيفة الروح:

- أنا فخورة جداً بأنك حصلت على هذه الوظيفة وأنك ستذهبين إلى مصر. من الرائع أنهم سيدفعون لك ثمن التذكرة. هذا هو الشيء الصحيح، كما قلت لك من قبل، أن تركزي على مهنتك وعلى ابنك. سيكون من مصلحته أن يكون معك في إنكلترا، سيكون وجوده هناك في مصلحة تعليمه. إن الكثيرين يحسدونك على ما أنت فيه.

ثم يبدأ سيل الشكاوى من الحياة في الخرطوم وكيف أن سمر ستصاب بالصدمة عندما تحضر إلى هناك وترى بعينيها ما آلت إليه الأمور أثناء غيابها الطويل. وفي السطور الأخيرة:

- أنا سعيدة لأنك تخلصت من الفكرة السخيفة حول الزواج مرة أخرى. عندما ترين أمير، وروعته وحلاوته، لن يكون قلبك قاسياً، ولن تكوني أنانية وتجبرينه على العيش مع زوج الأم الذي لن يعامله معاملة حسنة. طبعاً هناك ما فيش مشكلة، ما فيش حد شايفك، لكن عندما تحضرين إلى هنا فمن الأفضل ألا ترتدي الملابس الملونة والمزركشة، وأنت تعرفين كيف يظن الناس الظنون في مثل هذه الحالات. ليس عليك بالضرورة أن تحضري كل الأشياء التي طلبتها حنان، فهي تطلب دائماً أكثر من اللازم، ولكن تأكدي من إحضار كل أدويتي.

ابتسمت سمر ابتسامة خفيفة لراي، كانت تريد أن تتكلم ولكنها لم تستطع.

سألها:

ما الأخبار إذاً؟

- عمتي تعتقد أن أمير يحتاج إلى رولربليدز.

قال إن مايري عندها رولربليدز، ومضى يتحدث عن لعب الأطفال. كانت تصغي إلى صوته وليس إلى ما يقول.

- تقول عمتي إنني بعد أن عشت كل هذه السنين، سأكره الخرطوم عندما أعود إليها. وتعتقد أنني سأرى كل شيء قبيحاً ومتخلفاً.

- لا أعتقد أنك سترين كل شيء قبيحاً ومتخلفاً. ما رأيك أنت؟

- لا أعرف.

- عمتك لا تعرفك.

- عرفتني أغلب سنوات عمري.

تظاهرت بأنها لا توافقه على ما يقول، بينما كانت سعيدة في الحقيقة لما قال. كانت تريد منه حماية القلب من وقع الرسالة، ولكنه فعل أكثر من ذلك، من دون مجهود، بسهولة، وبصورة ساحرة.

قالت:

- ماذا كنت تريد أن تقول لي قبل قليل؟

- متى؟

- عندما طلبت مني أن أبقى؟

- نعم، كنت أريد أن أحدثك عن فريد. بدأت بالفعل ولكنني لم أواصل. تعرفت إليه منذ سنين، وقد كتبنا معاً بعض الأوراق. وكان بين الحين والآخر، ينفجر في وجهي: لماذا لم أقبل الإسلام، كيف يمكنني أن أدرسه، وأعرفه ولا أكتشف مع ذلك أنه الحق؟ أوَلست خائفاً، عندما تحين الساعة، عندما أموت وأواجه بالسؤال، ألست خائفاً ألا أجد عذراً، إذ إنني لا يمكن أن أدّعي الجهل؟ هذا ما يفعله معي بين الفينة والفينة.

انقبضت سمر وهي تسمع أفكارها نفسها توضع بهذه الطريقة الخام والخشنة بواسطة شخص آخر... وتطلعت إلى راي بقلق، وتساؤل، لماذا يروي لها كل ذلك؟

قال وهو ينظر إلى الجهة الأخرى:

- كنت أتساءل فقط: لماذا لا تقولين أنت أشياء مثل هذه؟

بذلت مجهوداً حتى تظفر بالجواب. كان يمكنها أن تقول أشياء كثيرة. ستكون حقيقية وغير حقيقية في الوقت عينه. وأجابت:

كانت ياسمين تقول لي في بعض الأحيان:

- إنك تشعر بالضيق عندما يتوقع منك المسلمون أن تؤمن فقط لأنك تعرف الكثير عن الإسلام.

- وأنت تخشين مضايقتي؟

- نعم.

قال:

- يضايقني الغرور.

ثم صمت كمن لديه ما يقول ولكنه لا يريد أن يواصل الحديث.

- هل وجدت فريدا مغروراً إذاً؟

- لا لا، لا يمكنني أن أتهمه بالغرور. السبب الذي يجعله يتحدث معي بهذه الطريقة هو أنني أنظر إلى القرآن ككتاب مقدس، باعتباره كلام الله. ومن المستحيل في إطار العمل الذي أقوم به، والقضايا التي أعالجها، ألا أقبل بأفكار المسلمين أنفسهم عن القرآن، وما يقولون عنه. وبالنسبة إلى فريد، هذا يعني قبول الإسلام، ولذلك لا يستطيع أن يفهم لماذا أقول إنني غير مسلم؟

لم تفهم سمر هي الأخرى. وقالت بتردد:

- أعتقد أنني أتفق مع صديقك.

- لماذا؟

كانت تود أن تقول: لأنك إن لم تصبح مسلماً فإننا لن نتمكّن من الزواج، لن نكون معاً، وسأكون تعيسة ووحيدة. ولكنها قالت:

سيكون ذلك مفيداً لك، سيجعلك أقوى.

ظل صامتاً، وقالت سمر لنفسها: «ربما أكون قد جرحته، ربما أكون قد قلت شيئاً خاطئاً.»

وصلت زائرة للرجل العجوز على السرير المجاور: زوجته. أومأت برأسها لراي، وسوّت الملاءة التي تغطي زوجها. جلست. وبعد أن أخرجت نظاراتها من حقيبتها، فتحت كتابها وشرعت في القراءة. أحدهم أدار التلفاز الموضوع أعلى الجدار في أحد الأركان. شاهد برنامجاً لسباق الخيل. علا صوت الحوافر السريعة وصوت المعلق.

قال راي:

- بعض هذه الخيول ذات أسماء عربية.

وتحدثا عن أسماء الخيول، بينما كانت سمر تنظر إلى وجهه محاولةً التأكد من أنها لم تجرحه بما تفوّهت به. لقد سنحت لها الفرصة لتقول شيئاً ذكياً حول الإسلام وأضاعتها. كان يمكنها أن تقول أشياء كثيرة عن كونه الحق، أو عن صلاحيته لكل زمان ومكان. أو عن التمييز بين الإيمان والتقاليد الثقافية. ولكنها بدلاً ذلك، أدلت بتعليق شخصي: «سيجعلك أكثر قوة.» هذه العبارة التي تنطوي على النقد. وشعرت بالاحتقار لنفسها.

- سأنصرف الآن. يبدو أنك ستتناول غداءك.

كانت الممرضة الشابة تدفع العربة أمامها وتوزع الصواني على

المرضى. وامتلأ العنبر برائحة الخضروات المطبوخة. وقفت سمر وهي تقول:

- آسفة لأنني أتعبتك ومكثت فترة طويلة هنا.

قال لها:

- لا. أنت من دون الناس جميعاً لا يمكن أن تتعبيني.

ابتسمت ولكنها ما تزال تشعر بالقلق.

- يمكن أن أقول بعض الأشياء الخاطئة في بعض الأحيان.

لا تنزعجي لهذا الشيء أبداً، لا تنزعجي.

قالت بتعثرٍ وسرعة:

- أشعر بالألم لأننا حين كنا نتحدث عبر الهاتف، لم أنتبه إلى أنك مريض إلى هذه الدرجة. كنت أظن أنه الزكام ليس إلاّ. كان يُفترض بي أن أعرف.

- ولكنني أنا أيضاً لم أعرف. اعتقدت أنه التهاب صدري، هذا يحدث لي كثيراً. ويجب أن أعترف أنني خفت هذه المرة. استنشق الهواء فلا يمر. اعتقدت أن دوري قد حان.

- كنت مخطئاً.

نسيت بالطبع أنها احتقرت نفسها قبل قليل!

نزلت السلالم. شاهدت في بهو المستشفى مرآة تغطي أحد الجدران. كانت عيناها محمرَّتين قليلاً، وجفناها مكحولين، وشفتاها ووجنتاها مورِّدة كأنها تفننت في وضع المكياج. وكانت تحمل في حقيبتها زجاجة صغيرة باعها رجل يزعم لزبائنه أن الزجاجة نزلت من السماء عبر باريس!

١٠

- ما الأمر؟ تزورين راي في المستشفى!

كانت ياسمين تجلس على كرسي الجلوس الوحيد الموجود في الغرفة، وهي تشاهد سمر تكوي ملابسها.

- كيف عرفت؟

- من الذي لا يعرف؟ هل ترك أحداً لم يخبره؟

كان قد عاد إلى العمل. ولكنه يأتي إلى المحاضرات فقط.

- ثم أعود إلى المنزل وأتهاوى على السرير. هكذا قال لسمر.

قالت لياسمين:

- هل قال لك ذلك بنفسه؟ ماذا قال لك؟

- قال إنك شجاعة للغاية.

- أنا؟ شجاعة؟

ابتسمت وهي تبخّ الماء على القميص الذي كانت تكويه. شجاعة؟

عندما كانت معه بالأمس، أحاطت بها السكرتيرات وأفضن في

الثناء عليها:

- ما ألطفك يا سمر! أن تذهبي وتزورينه في المستشفى!

وقد غمرنها بعباراتهن، فتراجعت وصارت أقرب إليه، بعيداً عن رائحة التنك والنيسكافيه التي تفوح منهن. كان يبدو راضياً عن نفسه. همس لسمر:

- انقلاب.

حاصرتها ياسمين:

- تحدثي، ما هي الحكاية؟

- تعرفي، يظهر أنك تجاوزت الخمسة أشهر، ما شاء الله. هل أنت متأكدة من أن حساباتك صحيحة؟

اعتدلت ياسمين في جلستها، متخذة هيئة من فوجئت بنزول شيء من السماء في حضنها!

تجاهلت ما قالته سمر وواصلت ما بدأته:

- أنت آخر من كنت أتوقع منها ذلك. ما الذي أنت مقدمة عليه بالضبط؟

. لا شيء.

- هل تنوين الزواج بغير مسلم؟

- طبعاً لا. هذا ضد الشريعة.

- ما فائدة الهرولة إذن وزيارته في المستشفى؟

ابتسمت سمر لصورة الهرولة لزيارته في المستشفى.

- أنا متفائلة.

- هل قال لك إنه سيعتنق الإسلام؟

- لا.

قالت ذلك من دون أن تركز عليه بصورة خاصة. وهو في الحقيقة لم يقل لها حتى إنه يريد أن يتزوجها.

- أعتقد أنه يمكن أن يعتنق الإسلام، لم لا؟

- لم لا؟! لأن شخصاً مثله يمكن أن يكون لا أدريا، أو حتى ملحداً! كل الشعبة ملحدة. هؤلاء الناس جميعاً يساريون حتى النخاع. (الدين أفيون الشعوب وما إليه!).

لم تكن سمر تدري ما معنى (لا أدري). ولذلك ركّزت على ثنيات القميص وهي تمرر المكواة عليها. تمنت لو تنتقل ياسمين إلى موضوع آخر. هو من يُلام على ذلك. لم تفهم لماذا كان يخبر الجميع بأنها زارته في المستشفى. في بعض الأوقات كان يبدو لها محافظاً وكتوماً. ويكون أحياناً أخرى كتاباً مفتوحاً كما هو الآن.

كانت تحب أن تسأل ياسمين عن زوجته السابقة، عن لون عينيها. ولكن ياسمين كانت مصرة على القاء محاضرة لا تنسى على مسامعها.

- رأيت الرجال الاسكتلنديين الذين يتزوجون الفتيات المسلمات. السيناريو المعروف: هو يعمل مع شركة نفطية أرسلته إلى ماليزيا أو سنغافورة، وهي تلك الصغيرة التي ترتدي الفساتين القصيرة وتخرج معه كل ليلة. وعندما تحين لحظة الزواج، تقول هي، بالمناسبة أنا مسلمة، ولن توافق أسرتي على الزواج إلاّ إذا اعتنقت أنت الإسلام. وكيف أعتنق الإسلام يا حبيبتي؟ أنا أحبك ولا أستطيع العيش

بدونك. أوه، الأمر في منتهى البساطة، ولا يتعدى بضع كلمات. عليك فقط أن تنطق الشهادة، ليس أكثر من كلمات قليلة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. وهكذا تنتهي القصة. يتم الزواج. بعدها يمكنها هي أن تصلي أو لا تصلي، تصوم أو لا تصوم ولكن المسألة لا علاقة لها به هو شخصياً. كل شيء في حياته يبقى كما هو. بالضبط كما كان في السابق.

هزت سمر كتفيها وقالت:

- الوضع مختلف هنا.

- هل سينطق بالشهادة هكذا من دون أن تعني له شيئاً، فقط ليتزوجك؟

- لا أعرف.

صمتت ياسمين تماماً. لم تردّ عليها بشيء. حركت كرسيها لتواجه السرير وتضع رجليها فوقه. جواربها ذات ألوان لا يمكن لسمر أن ترتديها. وفكرت سمر في أنها لو طلبت من راي إعطاءها ملابسه لغسلها، فإن جواربه ستكون الآن قد جفّت وهي موضوعة على السخانات. ماذا كانت ياسمين ستقول عن ذلك؟

- أنت ستغادرين في ظرف أسابيع قليلة، ولو كنت مكانك لتفاديته كما أتفادى الطاعون حتى ذلك الحين. اذهبي إلى وطنك وربما تجدين رجلاً عادياً، رجلاً سودانياً مثلك. الزيجات المختلطة ليست زيجات صحيحة، إنها تضايق كل الناس.

- ولكنه لطيف جداً. ألا توافقين على أنه لطيف؟

- كل هذا السعال والتفتفة تهلك أعصابي.

ضحكت سمر وقالت:

- أنت فظيعة.

- أنا منزعجة. هذا كل ما هنالك. هل تحدثت معه عن اعتناق الإسلام؟

- لا. ليس بهذه الصورة. لا. ولكنه يقول دائماً أشياء جميلة عن الإسلام. أشياء أنا نفسي لا أعرفها. إنه يفهم...

- هذا عمله، وظيفته، الميدان الذي يعتبر فيه مرجعاً. ولكن اهتمامه كما أعرفه أنا اهتمام أكاديمي بحت.

- ولكنه يمكن أن يصبح أكثر من ذلك...

- هل أنت متأكدة من أنه يؤمن بالله؟

- طبعاً يؤمن بالله، إنه ليس فارغاً من الداخل.

- بإمكان الملحدين أن يكونوا لطفاء مثلهم مثل كل الناس الآخرين. وكون المرء خيّراً وعطوفاً لا علاقة له بهذا الأمر.

- بالإضافة إلى ذلك قال لي إنه يعتبر القرآن كتاباً مقدساً...

- هذا هو المنهج الذي يتبعونه في البحث حالياً... إنه منهج حديث. يتعلق بتخلي الباحث عن موقع المركزية الأوروبية. إنهم يتبنون ما تقوله الثقافة المعينة عن نفسها. هذا ويمكّنهم من دراسة النصوص المقدسة كافةً مع المحافظة على حيادهم. ولكن قد تكون لهم أراؤهم الخاصة حول الأديان وقد يكونون ملحدين.

- هل تعتقدين أن راي ملحد؟

- لن أندهش إذا كان ملحداً. لن أندهش مطلقاً.

وضعت سمر المكواة. لم يحدث في كل حياتها أن كان شخصٌ تهتم بأمره غير مؤمن. عاص، نعم، لا يصلي، لا يهتم اهتماماً خاصاً بالخطأ والصواب، ولكن الإيمان كان دائماً هناك، وكان الله دائماً موجوداً، وجوده ليس موضع إنكار. وكان مؤلماً أن يكون راي غير واع بهذا الوجود. تركت المكواة، وأسرعت ترتدي معطفها، غطت شعرها بالوشاح، وبحثت في حقيبتها عن قطع النقد الصغيرة.

- إلى أين أنت ذاهبة؟

رقم هاتفه. أين رقم هاتفه؟ فتحت الدرج، وبعثرت الأوراق هنا وهناك. لم تكن قد اتصلت به في المنزل من قبل.

- ماذا أصابك الآن؟ أين أنت ذاهبة؟

وجدت الرقم وتجاهلت ياسمين. ونزلت جارية إلى المدخل. كان أحد النزلاء يخرج دراجته من تحت السلم. معطفه الجلدي، وشعره الطويل المثبت بعصابة في الخلف. هو مصدر الموسيقى التي كانت تنبعث من السقف. كانت ترتعب من ذلك الرجل وكانت ترخي سمعها لتتأكد من أنه لم يكن يصعد الدرج أو ينزله وقت خروجها من غرفتها. وحين رأته هذه المرة، سقطت من يدها إحدى القطع النقدية، وحاولت أن تنحني لالتقاطها. وعندما وقفت كان ينظر إليها بازدراء. ثم جذب دراجته بعنف من تحت الدرج واندفع خارجاً. كانت السلاسل تلتف حول سرواله، وجزمته حادة لها صرير. عندما فتح الباب الخارجي، فاجأتها نسمة من الهواء البارد، فارتجفت. الهاتف. الضغط على الأرقام. الأصابع المضطربة الخرقاء. رنين الجرس. تركته يرن ويرن. كل رنة بلا استجابة هي خطوة أخرى في

العدم، متاهة تعوي فيها الرياح. وأخيراً يجيء الصوت الناعس، لحظة.

- راي، هل تؤمن بالله؟

في لحظات صمته كانت تضرب رأسها بالحائط، ضربات خفيفة إيقاعية. كان الجدار بارداً وهي تشعر به في جبهتها، وكانت صلابته مريحة للنفس. ينزلق الجهاز من يدها مرة إثر الأخرى. كانت تحدّث نفسها:

«أحب صوته، لا بد من أنه كان مستغرقاً في النوم. لم يكتمل شفاؤه بعد. صوته. هذا الثقل الذي بداخله. ثقل يكفي لإغراقها تماماً. كل هذا سيصبح محرماً عليّ. أين يمكنني...»

أغلقت عينيها وضربت رأسها بالجدار. الوقت كان في منتصف يناير. بدأ ضوء الظهيرة يتسلل إلى المدخل، وصار اليوم أطول، وأشعة الشمس اعتراها تغير طفيف. عندما تحدث، باغتها صوته الواضح وكأنما كانت تتوقع أن يدوم صمته إلى الأبد. وقال:

- نعم، أنا مؤمن بالله.

- أنت لست مل...حداً؟ بذلت مجهوداً في نطق الكلمة التي يندر استخدامها. نطقها لها لم يكن صحيحاً.

- لا، لست ملحداً.

كانت هناك نغمة فرح في صوته. جلست على الدرج.

- كنت أعتقد أنك تعرفين ذلك.

- لم يكن قلبي مطمئناً.

- كان عليّ أن أكون أكثر وضوحاً.

المدخل، الدراجات تحت السلالم، وياسمين التي فوق، طواها النسيان كلها.

- أيقظتك من النوم. كنت مستغرقاً في النوم.

- رأيتك في الحلم.

- احكِ لي.

- كنت داخل منزل ضخم فيه غرف كثيرة. كأنما كان قصراً. كنت مختبئاً هناك لأنني كنت مطارداً لعدة أيام. أحمل سيفاً بيدي وكان ملطخاً بالدم: دم العدو. أما أنا، فقد كانت ملابسي ويداي نظيفة، وكنت فخوراً بذلك.

صمت قليلاً ثم أضاف:

- دخلت غرفة يلفّها الدخان. الدخان الكثيف، ولكن عندما بحثت لم أجد ناراً. حين خرجت من الغرفة، انكسر مقبض سيفي. أمسكت بالسيف في يدي وعرفت أنه لا يمكن إصلاحه مطلقاً، ولا يمكن الإعتماد عليه بالتالي. كان ذلك شعوراً رهيباً بالخسارة. لا أعرف لماذا، ولكنني كنت أشعر بهذا الشعور العميق بالخسارة لأنني سأعيش من دون ذاك السيف. تجولت في غرف القصر الأخرى، كنت أبحث عن شيء. كانت هناك غرف وقاعات وممرات كثيرة. وجدت سلماً بدأت في الصعود. أعلى السلم كانت هناك غرفة، وكنتِ أنتِ في تلك الغرفة.

- ماذا كنت أفعل؟

- كنت تعدين الطعام.

قالت وهي تبتسم:

- ماذا كنت أطبخ؟

- أعتقد أنها خضروات.

رأت الفلفل الأخضر والباذنجان. ثم نطقت كل كلمة ببطء:

- وهل كنتُ سعيدة برؤيتك؟

- نعم، كنت سعيدة جداً وأعطيتني كوباً من اللبن الحليب وشربته.

- حليب؟ يا لصبيانيتي! آسفة جداً!

ضحك وقال:

- ولكنني شربته. شربته كله ولم أبال.

١١

جهزت له حساء. قطعت الكوسا والكرفس والبصل. عواطفها مودعة في الحساء. في الرغوة التي تصاعدت على حافة الماء عندما سلقت الدجاجة، والطماطم التي ذابت وفقدت شكلها. المعكرونة المشكلة كنجوم متناهية الصغر، والبهارات التي كان يجب أن تبحث عنها وهي لا تعرف أسماءها بالإنكليزية، ولا تعثر عليها في القواميس العربية ـ الإنكليزية التي تملكها. الهبهان، الهبهان. عليها أن تحوم كل السوبرماركت باحثة في عجلة عما لا يمكنها أن تسأل عنه، وهي مترجمة، وكان عليها أن تعرف الهبهان. من دونه لن يكون للشوربة مذاق طيب، لن تكون نكهتها كما يجب، لن تكون مكتملة. وأخيراً عثرت على الهبهان. إنه موجود، وله اسم: هول غرين كاردامومم.

حبات الهبهان. يجب تقشيرها في البداية، وإخراج الحبوب وسحقها. كان من الظلم في عُرفها أن يكون وحيداً، أن يكون مريضاً ووحيداً. أن يدفع نفسه دفعاً كل يوم، ليقدم محاضراته، ثم يعود إلى منزل لم تُفرَش أسرّته، لم تُغسَل أوانيه! إلى وجبات يعدها بنفسه. بدأوا في الشعبة يقولون إنه أدمن العمل. قالت له في المستشفى

طلبوا منك أن ترتاح، فلماذا لا تستجيب؟ فأجابها بأن هناك أشياء كثيرة يجب إنجازها.

وضعت الشوربة في إناءين من البلاستيك، وأخذتهما معها إلى العمل. كانت في انتظاره عندما خرج من قاعة المحاضرات. كان يسعل، أصابعه مغطاة بنشر الطباشير. رأت التغيير الذي طرأ عليه عندما رآها، الطريقة التي أدار بها ظهره لكل شيء: طلابه الذين كانوا يخرجون، الفصل الآخر الذي كان يهم بالدخول. عندما يتحدث إليها تبدو المسألة وكأنما لا يوجد شخص آخر حولهما، كأنما لا يوجد عالم مادي. كان صوته مختلفاً عنه عندما يتحدث إلى آخرين، كان عطوفاً، أقل حدة. استغرق بعض لحظات قبل أن يفهم ما كانت تقول له، ما كانت تحمله، ما كانت تعطيه. ثم قال:

- آه يا سمر!

قالها بصوت خافت، بعاطفة مشبوبة.

كلاهما، بعد تلك اللحظات، كان عاجزاً عن قول الأشياء العادية:

- شكراً جزيلاً لك!

- أتمنى أن تعجبك!

- ستعجبني بالتأكيد.

- تستطيع تجميدها.

استدارت خارجة، وامتدت أمامها ممرات مضاءة بأنوار فسفورية، مزدحمة بطلاب أطول منها قامةً، بملابسهم الفضفاضة، وحقائبهم المحمولة على ظهورهم، وشعورهم الناعمة الكابية على عيونهم الشابة.

أسبوعان. أسبوعان وترحل إلى قارة أخرى بعيدة. الشمس المشرقة. لا تحتاجين إلى الإنارة داخل الغرف. في ظرف أسبوعين ستترك هذه المدينة. حجزت تذكرتها بالطائرة من لندن، وعليها أن تحجز تذكرة القطار من أبردين. اشترت الأشياء التي طلبتها عمتها، وبقي أن تشرع في حزم الأمتعة. صارت تفكر في الرجوع إلى السودان، في رؤية وطنها مرة أخرى، في ألوانه التي ستراها مرة أخرى. ولكن بعد كل سنوات الشوق والحنين، لا تجد في نفسها الآن سوى تردُّد مشوب بقليل من الخوف.

١٢

تدخل الماضي وهي لم تكن ترغب أصلاً إلا في الحاضر. كانت تريد هذين الأسبوعين قبل أن تغادر المدينة. جاء الماضي ومثل أمامها مطالباً بالاعتراف. جاءت الفترة التي سبقت بداية عملها مع راي في الشعبة. كانت تعمل في مجال اللغات، وكانت في بعض الأحيان تترجم بعض الأشياء للمجلس: من الإنكليزية إلى العربية، منشورات حول الخدمات الصحية، حول فصول تعلم اللغة الإنكليزية. تذكر حادثة محدَّدة في تلك الفترة: كانت هناك امرأة ليبية بالمستشفى، واستدعيت سمر إلى فورسترهيل للترجمة الشفهية لهذه المرأة. لم تكن المرأة تعرف الإنكليزية، وكان زوجها يعمل في عرض البحر. ولكن سمر رفضت الذهاب. لم تكن قادرة على الدخول إلى أي مستشفى بعد موت طارق. أغرقها شعورها بالذنب حيال المرأة الليبية في بحار من النوم الطويل. وفي أحلامها كانت تنسى موت طارق.

كان اسم رئيستها في شعبة اللغات جنيفر. نادتها جنيفر ذات يوم، بصورة سريعة ومفاجئة. أمرتها بالجلوس وقالت لها إنها ليست متدينة

ولكنها تحترم الناس المتدينين. كان ذلك أثناء حرب الخليج، عندما انتبه الناس فجأة إلى أن سمر مسلمة. وفي إحدى المرات صرخ رجل في وجهها ساخراً وهي تسير في كنغ ستريت: صدام حسين، صدام حسين!

قالت جنيفر:

- صديقي من نيجيريا!

قالت ذلك وصمتت، وكأن في تلك العبارة معنى خفياً تريد منها أن تستوعبه. جلست سمر وهزت رأسها في أدب. شعرت وكأنها طفلة سهرت لوقت متأخر من الليل واكتشفت أن في عالم الكبار أشياء لا تستطيع أن تستوعبها. تحدثت جنيفر بخفة ولطف، مؤكدة لها كم هي عميقة الرؤى ومتسامحة، وأنها ليست مثل كثير من الناس. قالت لها:

- مثلاً، أنا لا أعترض مطلقاً على طريقتك في اللبس.

عندما استطاعت سمر أن تتكلم في النهاية، لم تنطق سوى كلمة واحدة:

- شكراً.

قالتها وذهبت إلى منزلها ونامت. نامت بعمق ومن دون انقطاع حتى اليوم التالي.

كان جزء من واجباتها أن تعمل مع الشُّعَب الأخرى إذا احتاجت إلى خدماتها. أحبّت وظيفتها الجديدة، ربما لأنها جعلتها تلتقي راي عندما أرسل إليها مقالات من الصحف العربية في الفترة التي أعقبت حرب الخليج. في المرة الأولى التي ذهبت لمقابلته، فاجأها بأنه لم

يكن مستعجلاً. لم يكن مشتَّت الانتباه بأشياء أخرى. كانت قد تعودت على الناس المشغولين، المثقلين بضغوط الزمن. ولكنه كان على العكس ممن تعوّدت على التعامل معهم. عندما فرغ من مناقشة مقالات الصحف، حدثها عن الفترة التي قضاها في شمال أفريقيا، وسألها عن اسمها، «ذاك الغريب». وعندما ارتاحت إلى طريقته قالت له:

- هناك مجلة نسائية لبنانية اسمها: **سمر**.

وفكرت مباشرة: ما أسخفه من تعليق! أية ملاحظة تدلين بها في هذا المقام! ولكنه لم يكن مندهشاً ولم يكن ساخراً. قال بجدية واضحة:

- لم تمر عليّ مثل هذه المجلة.

كان الناس يتحدثون عنه: طلابه، سكرتيرته ياسمين. التقت سمر بياسمين من خلاله هو. كانت ياسمين تتحدث بيسر بليغ وفهم ضليع عن حرب الخليج وعن الهجرة وعن «هؤلاء الناس.» قالت لسمر إن راي تحدث عبر التلفزيون والإذاعة عدة مرات. كان يقف ضد حرب الخليج. وأخبرتها أنها عندما كانت تصل الشعبة اليوم التالي تجد البريد الالكتروني للشعبة مليئاً بالرسائل الغاضبة:

> أنت عار في وجه جامعاتنا! نحن ندفع الضرائب... أنت لا تفقه ما تقول!! الطائرات المقاتلة لم تكن كافية في هذه الحرب!! نحن نريد تفجير قنبلة ذرية مرة وإلى الأبد!!

وبعد نهاية البرنامج الإذاعي: هل هذه حرب مقدسة؟؟ أيها الأسود الذميم، هل أذكّرك بأن إنكلترا بلد مسيحي، وأن من الأفضل

لك ولأمثالك من السود اللقطاء أن تعودوا إلى بلادكم: بلاد الله؟ منذ حضوركم إلى هذه البلاد أيها اللقطاء أصبحت بريطانيا «بالوعة الغرب» بأجمعه.

تذكرت سمر أن ياسمين أخبرتها بكل ذلك يوم سبت ما وهما في طريقهما إلى محل «للأشغال المنزلية،» وكانت ياسمين تحاكي لهجة الرجل اللندنية.

سألتها سمر:

- وهل تضايق راي؟

- أبداً، وإنما ضحك!

تخيلت سمر هذا المنظر في مكتب السكرتيرات؛ تخيلت ياسمين وهي تعيد إدارة الشريط بمجرد وصولها إلى المكتب في الصباح، بينما يقف راي وهو ما يزال يرتدي جاكتته لأنه وصل للتو. ما تزال بعض الستائر في الغرفة مسدلة، ولا تزال الشعبة خاملة، لا يُسمع فيها وقع أقدام الطلاب. يتفقَّد بعض أعضاء هيئة التدريس بريدهم، وهم يهمهمون بتحية الصباح، ويتوقفون هنيهة لسماع الشريط. سيكون راي قد استمع إلى الصوت المشوش في الشريط، وإلى الرسالة الموجهة إليه، ثم ضحك وحده، لأن أحداً غيره لن يضحك، ثم مسح وجهه بيده.

بقيت ثلاثة عشر يوماً على عودتها إلى السودان.

بدا يوم ذهابها واضحاً في الأفق، صلباً كصخرة، مهيباً كجبل. أصبحت الأيام معدودة. أخذت تتناقص، وبطبيعتها لا تزيد. ولكنها لم تكن أياماً عادية. كانت تتمدد بصورة سحرية، تتعالى كأنها

الأشجار. مرت الساعات كأنها ساعات طفل، لا تخبو ولا تذوب بصورة مخادعة. قالت لنفسها إنه ليس صحيحاً ما يقوله الناس حول أن الزمن يمر بسرعة عندما تكون سعيداً، ويمر بطيئاً عندما تكون حزيناً. كان حزنها أثناء أيامها الكالحة بعد موت طارق، يحرق الزمن ويلتهم الساعات من دون جهد، ويبتلع الأيام دفعة إثر أخرى. والآن أصبح كل يوم يتمدد. وكلما قال لها راي بضع كلمات، عندما يلتقيان لدقائق معدودة، كانت هذه الدقائق تتمدد، وكانت الكلمات تتوالد وتملأ الزمن بما ترغب في أخذه معها... بما لا تريد أن تتركه وراءها.

أيامي الاثنا عشر الأخيرة! أيامي العشرة الأخيرة!

قال إن السبب في شفائه كان الحساء الذي جاءت به. أخبرها أن ذلك الحساء كان هو العامل الذي عجل بالشفاء. لقد عاد إلى العمل بدوام كامل، ولم يعد يسعل كما كان يفعل من قبل.

قالت له:

- الله هو الذي يشفي.

كانت تريد له أن ينظر إلى مسبّب الأسباب، إلى العلة الأولى، العلة الحقيقية للأشياء جميعاً.

قال لها:

- عندما كنت صغيراً، كانت هناك كتب لا تعجبني. كتب مصوَّرة بها ملائكة عيونهم زرقاء ولهم أجنحة، وحيوانات ساذجة تدخل سفينة، وزوجان اثنان. وسحب غزيرة الثناء.

أما عندما كانت هي صغيرة، فقد كانت هناك كلمات القرآن، ولم

تكن هناك صور للملائكة. كلمات تحفظها عن ظهر قلب، وتتلوها في شوارع غادرة تنبح كلابها المسعورة من مسافات قريبة منك. «قل أعوذ برب الفلق» «قل أعوذ برب الناس. . .» وفي الليالي كذلك، في ثنايا أحلام الطفولة المرعبة، كانت تردد الآيات لتطرد خوفها وهواجسها.

قال لها:

- هذا شيء حقيقي. ليس شيئاً تافهاً، أو يمكن الانحدار به إلى مستوى القصص الخيالية.

بدت عليه خيبة الأمل وهو يقول ذلك. كان مشتت الذهن بأفكار يستحضرها ويكثّفها من أجلها هي وحدها.

قال لها:

- إن التاريخ يضمحل إلى مستوى القصص الخيالية.

قال إنه مشحون بالأوهام والخطوط المتقاطعة واللوائح والقوانين.

قالت إنها كانت تتخيل أن الحرية هي التي تسود في هذه البلاد، وليس اللوائح والقيود. ولكنها كانت تحاول أن تفهم، أن تستوعب تلك الصورة الجديدة التي يحاول رسم معالمها. صورة للكنيسة الاسكتلندية والدولة. والكالفينية، النسخة المشتطة والقاهرة من المسيحية. تربية مختلفة تماماً عن تربيتها. التعاليم التي كان يتلقاها: يجب ألا يكون متجهماً، ألا يكون متقحماً، ألا يكون مشاكساً. ألا يشكو الملل، فالمملون وحدهم هم الذين يشعرون بالملل. علموه قيمة أن يقول أن كل شيء على ما يرام، مع أن الأمر ليس كذلك. قالوا له إن مثل هذا التظاهر فن من الفنون، شكل من أشكال

الشجاعة. «لا تفكر أكثر مما يلزم. انفرج قليلاً فأنت متوتر بصورة لا تحتمل.»

قالت له:

- لم أكن أعرف أن التوتر شيء سيِّئ.

رد قائلاً:

- أنت محظوظة!

ابتسم. كان في عينيه ما يوحي بأنه يحبها. كان يشجعها على الكلام. وداهمتها على حين غرة صورة الكلاب الضالة، وخطر السعر، والكوليرا والبلهارسيا. المصابون بالبرص كما تعرضهم الأفلام، وذلك اليوم من أيام مايو عندما طُعِّمت المدرسة كلها ضد السحائي، بحقن تُطلَق من مسدس، والفتيات اللائي يُصَبن بالإغماء من صهد الشمس. ذاك زمان كانت تنتمي فيه إلى مكان محدَّد، قبل أن تتعرف إلى الشعور بأن هذا لا يخصها، وأن هذه الدكاكين، وهؤلاء الناس ليسوا منها وليست منهم. وهذه السماء ليست لها. أزمنة كانت فيها صامتة، ولكنها لم تكن تشعر بالعزلة: كانت تتأمل عمتها وهي تمسح رجليها بالنيفيا. المسحوق الأبيض يذوب داخل بشرتها، فوق خطوط الشرايين الخضراء، فوق الكعبين. ولون الطلاء على أظافرها. كان وجه عمتها جاداً وكأنه يقول: هذا شيء هام، ضروري، هذا ليس لعباً.

- هل يمكن أن أمسح «الكريم» أنا أيضاً؟

ولكن ينبغي أن تغسل رجليها أولاً، وإلا فإن الكريم سيختلط بالغبار. في الحديقة، كان طارق يشرب من ماء الخرطوش، وقد

شربت هي أيضاً عندما جاء دورها. كان الماء دافئاً، ليس بارداً مثل ماء الثلاجة، ليس مختلطاً برائحة الطعام. يمكنها أن تشرب وتشرب من هذا الماء من دون أن ترتوي، ومن دون أن تشعر بالامتلاء. غسلت قدميها ورجليها حتى الركبتين. تناثر الماء فوق طين أحواض الزهور، وكوّن مجرىً في الحديقة. قفز طارق على الحائط المنخفض، وتوازن. قال لها:

- أصلحت الدراجة.

كان هناك خرير المياه، صوت سيارة بعيدة وبضعة طيور. وهناك صوت الطباخ، وهو جالس تحت شجرة الجوافا، يقرأ القرآن. كان كتفاه يتمايلان إلى الأمام وإلى الوراء مع وقع الكلمات.

قال راي:

- الوحشة هي الملاريا الأوروبية. لا أحد يمكن أن تكون له مناعة هنا. هذا مكان غير صحي، لا تغرنَّك الأصنام التي يخلقها لنفسه. ربما تشعرين نحوه بالشفقة في يوم من الأيام، ليست شفقة مفرطة، لأن هذا التآكل لا ينطوي على ظلم. وأنا أخشى في الحقيقة، أنك عندما تعودين إلى وطنك، ستكتشفين أنني أكثر فظاظة مما تتصورين، وأنني لست كما تعتقدين.

الجمعة الأخيرة:

أراها البطاقة التي أرسلتها ابنته إليه عندما كان في المستشفى. «تعافَ سريعاً يا أبتي.» كانت البطاقة صورة لدبّ ملفوف بالضمادات. بدت الكلمات غريبة لسمر، لأنها خالية من كلمات مثل: «أتمنى» أو «أدعو...» كانت تحتوي على أمر، وتساءلت سمر

عما إذا كانت الطفلة قد تعلمت أن صحة أبيها ملك يديه، وطوع بنانه. ولكنها لم تعبر عن خواطرها، بل أُعجبت بالصورة المدرسية التي أرسلتها مايري مع البطاقة، وبالزي الذي كانت ترتديه: تنورة من صوف الطرطان مطقمة بفنلة وربطة عنق. كانت مميزة عن التلاميذ في فصلها لأنها ابنته. كانت تشبهه نوعاً ما.

سألته سمر:

- من تشبه أكثر: أنت أم أمها؟

لم يبدُ عليه أنه استحسن سؤالها. لم يكن راغباً في متابعة هذا المنحى من الحديث، ولم تكن هي تملك إلا أن تخمّن الأسباب التي أدت إلى الانفصال بينه وبين زوجته. كانت تعلم أنها إذا استفسرت منه مباشرة، فلن تُشفي غليلها بإجابته المختصرة والموزونة التي تتوقعها. ولذلك، فضلت أن تنظر إلى الداخل، وأن تحاول رفع الحجب التي تعترض بصيرتها. حجاب أول: هو لا يمكن أن يجعل شخصاً ما تعيساً. حجاب آخر: المرأة التي تهجره لا بد من أن يكون معدل ذكائها متدنياً. وأخيراً، استطاعت في أعماقها أن تدرك الحقيقة: عناده، والزوجة الناجحة، التي تنال من وظيفتها في الأمم المتحدة أجراً أكبر مما يتقاضاه هو كأستاذ بجامعة إقليمية. امرأة أرهقها السفر جيئةً وذهاباً، من جنيف إلى إدنبرا، لرؤية ابنتها أولاً في المدرسة الداخلية، ثم الذهاب إليه هو في أبردين. وهو لن يذهب معها إلى جنيف، لأن جنيف أنيقة أكثر مما يريد. وبالنسبة إليه، لا توجد سوى ثلاثة أماكن في العالم يرغب في السفر إليها: اسكتلاندا وشمال أفريقيا والشرق الأوسط. بعد عبارات تشكيكية زادت قليلاً عن الحد:

ليست الأمم المتحدة سوى كذبة والجميع يعرف ذلك.

وبعد شجارات زادت قليلاً عن الحد:

- قضيت خمس سنوات عجاف معك في القاهرة العطنة.

في يوم من الأيام جهزت المرأة قدحاً من القهوة وأشعلت سيجارة وسألت نفسها:

- بماذا أرغب تحديداً، وماذا أريد منه؟

السبت الأخير، الأحد الأخير:

اتصل بها هاتفياً، ولكنهما لم يتحدثا طويلاً. في البهو الأمامي كان الناس يذهبون ويجيئون ويصفقون الأبواب. وقد وقفت وراء سمر فتاة بشعر طويل مدهون وكانت تريد أن تستخدم الهاتف العمومي هي الأخرى. تمنت سمر ألا تكون قد أقامت في مكان كهذا. تمنت أن يكون لها هاتف في مطبخ يخصها وحدها. كان يمكنها أن تتحدث بينما تنظف المائدة من الفتات وتطفئ «البوتاغاز.»

قالت له:

- يجب أن أذهب الآن.

لكنه رفض أن يتركها تذهب، بل تمادى في الحديث، ولم تكن هي تريد أن تفوتها كلمة واحدة.

- عليّ أن أذهب الآن.

كانت الفتاة ذات الشعر الطويل تهس وتسخط:

- هل تتحدثين اليوم كله؟ هل تتحدثين اليوم كله؟

الفتاة لا قلب لها. لم تكن تلك المحادثة مثل حديثهما هي وراي

قبل شهر، أثناء عطلة عيد الميلاد، عندما كانت سمر وحدها في المبنى. حتى أثناء الليل لم يكن بمقدورهما أن يتحدثا. كانت السلالم خطرة ليلاً مثلها مثل الشوارع السريعة. أصوات الأبواب وهي تصطفق، الصرخات، والآهات ونغمات الأغنيات العابرة. تقيأ بعضهم على الدرجات السفلى، واندلق الكري والبيرة في المكان نفسه الذي كانت سمر قد وضعت عليه وسادتها وجلست تتحدث مع راي.

الاثنين الأخير:

العبارة التي سمعتها من الجميع إلاه: أيتها المحظوظة؟ ما أسعدك وأنت تفلتين من هذا الجو الفظيع الذي داهمنا مؤخراً. لا بد من أن الدنيا لا تسعك وأنت تذهبين لرؤية ابنك من جديد. كم سنة مضت منذ مجيئك إلى هنا؟ أربع سنوات؟ يا له من زمن طويل!

الثلاثاء الأخير:

في ذلك الوقت المبكر من الصباح، كانت الحُجرة العامة للكبار هادئة. كان هناك فضلاً عن سمر وراي، رجلان وامرأة شقراء الشعر. سحب ثلاثتهم أقداح القهوة على قاعدة القضبان المعدنية حتى ماكينة الدفع وجلسوا تحت لافتة كتُب عليها: «ممنوع التدخين». كانت سمر في هذه الحجرة ترتاح للنوافذ الطويلة المطلة على مباني الجامعة الأخرى، كاشفة انحراف النجيل إلى أعلى نحو الشارع، والقبة البيضاء لشعبة الهندسة التي شُيدت على هيئة المسجد. هل ستتذكر هذه الأشياء؟ الطريقة التي فتح بها راي عبوة السكر، في مكان ليس فيه عبوات السكر! أم جاكتته؟ هل ستتذكر

لونها في بلد لا يحتاج فيه الناس إلى الصوف أو الجاكتتات؟ صرخ المستقبل في وجهها يطلب الانتباه. تصوري المقابلة في مصر، شباب يدخنون السيجارة وراء السيجارة. تصوري الشمس والشوارع المتربة، الحوانيت التي لا تمتلئ رفوفها، العربات الغبشاء والملابس الباهتة الألوان، الغرف التي ينقصها الديكور. تصوري كل ذلك، فسرعان ما تكون. . .

- أنت ذهبت منذ الآن بعيداً عني.

قال ذلك وكأنه يسمع صهيل المستقبل، كأنه يحسه وهو يجذبها من يدها. كان يراقبها. ينظر إليها أكثر مما كانت تنظر إليه. جذبت أقداح الشاي والملاعق البلاستيكية البالغة الأناقة انتباهها.

- لا، لا، أنا ما أزال هنا.

التقيا في هذا الوقت غير المريح من النهار، لأنهما كانا يحاولان انتزاع أي قدر من الوقت يمكن انتزاعه، مما تبقى لهما من زمن. في ظرف ساعة من الآن سينهمكان في العمل، ويغرقان في أصوات الناس، ويصيران جزءاً من هذا الكل الهادر. المشاريع التي ينبغي عليها أن تفرغ منها قبل المغادرة، الفصول التي تنتظره وزيارة الدكتور فريد خليفة من إستيرلينغ. سيشتركان معاً في كتابة ورقة استغرقتهما ساعات من النقاش.

قالت:

- عندما تحدثت إلى فريد يوم أمس باللغة العربية، شعرت بأن الخرطوم أصبحت قريبة.

كانت أمس قد التقته بمكتب راي. كان قصيراً، ونشطاً، وملتحياً.

كان من عادته أن يجابه المرء بالسؤال وراء السؤال. لكنها لم تشعر بالضيق وهي تجيب عن أسئلته، وإخباره تفاصيل عن حياتها. حدثها بدوره عن زوجته التي كانت طالبة، وعن أبنائه الثلاثة الذين لا يزالون بالمدارس. كان الحديث بالعربية. تحتل الكلمات مثل «إن شاء الله»، مكانها المريح وسط كل ما يقال، وتصير جزءاً من الجملة، ومن الرؤية الشاملة. كم عدد المرات التي قالت فيها في الأيام الماضية: «سأغادر يوم الجمعة.» كم بدت هذه الجملة العادية والطبيعية بالنسبة إلى أولئك الذين سمعوها، وبالنسبة إليها غير مكتملة وغير حقيقية، ومن دون خاتمة «إن شاء الله».

قال لها راي:

- صبرتِ على كل أسئلته، وأغلب الناس لا يصبرون.

- وأنت، ألا تصبر عليها؟

- لا.

- لأنك تميل إلى الأسرار.

ضحك وقال:

- لماذا تقولين ذلك؟

قالت له:

- شيء قلته أنت. مرة كنت وياسمين تتحدثان عن أن الطالبات في فرنسا لا يُسمح لهن بارتداء الحجاب. هل تذكر ذلك؟ كانت ياسمين غاضبة...

- نعم أذكر ذلك.

تذكرت تلك الظهيرة من شهر نوفمبر، وهي تشعر بالفرح لأن ياسمين كانت تتحدث مع راي ولم تكن في عجلة من أمرها. كانت تنوي توصيلها إلى منزلها، ولم تكن تستعجل الذهاب إلى منزلها لأن ناظم كان بعرض البحر، وطرأ لسمر أنهم، ثلاثتهم، لم يكن هناك من ينتظرهم في منازلهم! تنتظرهم فقط تلك الأصوات المنبعثة من أجهزة التلفاز والمذياع.

تحدثت عن ذلك اليوم، وهي تعثر على ماض جديد ليس ملفعاً بالنوم والنعاس. ماض حديث العهد يمكن استخراجه، كقطعة حرير تسحب من درج، للتأمل فيها والإعجاب بها.

- قلت إنك تحب الحجاب، وسألتك لماذا؟ وكانت تلك هي الجملة الوحيدة التي قلتها في كل تلك المحادثة.

قال لها:

- ياسمين لا تعطيك فرصة للحديث، أليس كذلك؟

قطبت جبينها وقالت:

- هذا ظلم. إنها تعطيني كل ما أحتاج إليه من الفرص. المهم، سألتك لماذا تحبه وأجبتَ بأنه يوحي بالأسرار. هذا ما قلتَه حينها.

- وهذا جعلك تعتقدين أنني أحب الأسرار؟

- نعم.

- كان ذلك إطراءاً لكِ، ألم تنتبهي إلى ذلك؟

هزت رأسها بالنفي وسرحت ببصرها من خلال النافذة وهي ترنو إلى شمس الشتاء منعكسة على قبة مبنى الهندسة. هناك أصوات الغرفة، رنين السكاكين وهي تُحرَّك وتوضع على الموائد، صوت

مروحة التهوية من المطبخ. لو كانت الظروف مختلفة، لابتسمت وسألته: «تطريني على ماذا؟» ولاستمتعت بالأشياء التي يقولها. ولكنها كانت تخشى الاعترافات، والكلمات العاطفية. بعض الضيق. لقاؤه، والتحدث إليه، أصبحت احتياجاً ملحاً لم يعد يريحها. تساءلت يوم أمس عما إذا كان فريد قد أحس بشيء ما، من الطريقة التي كان راي ينظر إليها، من الطريقة التي كانت تتحدث بها. شعرت بالحسد نحو فريد لأنه متزوج وهي ليست كذلك، ولأن الزواج نصف دينهما. عندما رجعت ببصرها من النافذة، كانت إحدى السيدات العاملات بالمقهى تتجول وسط الطاولات وترشها باللماع وتمسحها بفوطة في يدها. كان هناك أشخاص أكثر بالحجرة، تتراوح وجوههم بين الألفة والغربة. يطالعون الصحف، يتناولون طعام الإفطار قبل الشروع في العمل.

لحظة للكلام الخفيف. الشاي ساخن. ياسمين مصابة بالبرد، ولا تستطيع تناول أي دواء لأنها حبلى. جاءت والدة دايان من ليدز في زيارة إلى ابنتها:

- تحدثي عن العمل. سليه عن طلابه، عن أفضلهم، ذلك الذي من سيراليون. إنه أشرف على الخلاص من رسالته. هل حددت له مواعيد الامتحان الشفهي بعد؟

تحدثت عن الأطروحة الأزهرية التي تعمل على ترجمتها. وعدته بأنها ستفرغ من المقدمة قبل السفر. قالت:

- كثير من الأحاديث التي اقتُبست تُرجمت من قبلُ، ولذلك وجدت نفسي أعمل بسرعة أكبر مما تصورت. وأنا أتعلم الآن كثيراً

من الأشياء التي لم أكن أعرفها من قبل.

هنا في اسكتلندا كانت تتعلم الكثير عن دينها. يا له من عالم واحد مترابط!

- ما هي الأشياء التي لم تصادفك من قبل؟

- حديث يقول ما معناه أن خير الجهاد كلمة حق تُقال أمام سلطان ظالم. ليس هذا الحديث متداوَلاً كثيراً ولم يمر علينا في المدرسة. كنت تذكرته لو درسناه بالمدارس.

- في ظل مثل هذه الدكتاتوريات التي تحكم معظم أقطار العالم العربي، من الصعب أن يجد مثل هذا الحديث طريقه إلى المقررات المدرسية.

- ولكن كان يجب أن نعرف على الأقل...

قال لها:

- المفرح في الأمر، وما يوازن هذا الغياب، أنك يمكن أن تعرفي، وأن المعلومات متوفرة. الحكومات تجيء وتذهب، وتتحول إلى العلمانية كما حدث في تركيا، حيث أزالوا الإسلام تماماً من المقررات جميعاً، أو همَّشوه مثلما يفعلون في أغلب البلدان الأخرى، ويعزلونه عن كل المواد الأخرى، بل حتى من التاريخ. ولكن القرآن نفسه، والأحاديث الصحاح، لم يجرؤ أحد على تحريفها. إنها ما تزال هناك، مثلما كانت هناك قبل قرون عديدة. هذا هو أول ما أثار اهتمامي عندما بدأت دراسة الإسلام، وهو أحد الأسباب التي تجعلني أُعجب به.

- لماذا شرعت في دراسته؟

- كنت أريد أن أفهم الشرق الأوسط. لم يكن بمقدور أحد يكتب في الخمسينيات أو الستينيات أن يتنبأ بأن الإسلام يمكن أن يلعب مثل هذا الدور الهام في سياسات المنطقة. حتى فانون، الذي أكنُّ له كل التقدير، لم يكن يتفهم الشعور الديني لأهل شمال أفريقيا الذين كان يكتب عنهم، ولم يتمكن من إقامة الصلة بين الإسلام ومحاربة الاستعمار. وعندما اندلعت الثورة الإيرانية، قابلها الجميع بالدهشة البالغة: من هم هؤلاء الناس؟ وما هو سر نجاحهم؟ ثم تدفق سيل من الكتابات يقوم أغلبها على الجهل. كان الشعور بأن هذا الخطر سيلف المنطقة كلها تحت جناحيه. كان شعوراً مبالغاً فيه. ولكن ذلك كان مفهوماً لبعض الحدود، لأن العلاقات ظلت متوترة بين الشرق الأوسط والغرب لعدة قرون. أي منذ القرن السابع حينما أدانت الكنيسةُ الإسلامَ واعتبرته نوعاً من «الهرطقة.»

مرَّ الوقت سريعاً وهما يتحدَّثان. تمنيا لو أنه يطول أكثر. نظرا إلى ساعتيهما في الوقت نفسه. دقائق قليلة قبل التاسعة. بدأ الناس يغادرون الحجرة. من خلال النافذة كانت ترى الطلاب يتحركون نحو المباني، يوشكون على الدخول.

قالت:

- ما الأسباب الأخرى التي جعلتك تحترم الإسلام؟

- يجب أن نكتفي بسبب واحد حالياً لأنه لا يوجد وقت كاف. هناك عدة نظريات...

عندما بدأ يتحدث بهذه الطريقة شعرت به يتحدث إليها الآن كما يتحدث إلى طلابه، وكانت قد تمنت في لحظة ما، لو كانت واحدة

من طلابه: إذاً لاستمعت إليه لساعات طوال من دون أن تمل، وحتى من دون أن نجرؤ على الإحساس بالضجر.

- تفسّر هذه النظريات لماذا تقدمت الرأسمالية في أوروبا مؤخراً، ولم تتطور في حضارات قديمة كانت أكثر تطوراً ورقيّاً. حضارات مثل حضارة الأندلس الإسلامية، أو الامبراطورية العثمانية. تقول إحدى النظريات إن نمو الرأسمالية يتطلب تراكماً في الثروات عن طريق الوراثة التي تكون نتيجة الحياة الطويلة المستقرة للعائلات والعشائر. ولكن قوانين الشريعة حول الوراثة، بعثرت الثروة ووزعتها بطريقة لم تسمح لهذا التراكم بأن يحدث. كان هناك عائق يقف في وجه هذا التراكم، ويتكفل بتبديد هذا الفائض. أنا أتصور ذلك كنوع من التوازن، شيء يحافظ على معقولية الأشياء، ويضمن استقرارها. والآن عليّ أن أسرع لأن لدي محاضرة.

بعد ذهابه، بقيت لعدة دقائق تتلاعب بالملعقة البلاستيكية في كوبها الفارغ. لماذا تظل مشكِّكة برغم أنه يقول مثل هذه الأشياء الإيجابية؟ قبل عدة أشهر قالت لها ياسمين: «هل تأملين أن يصبح مسلماً حتى تتمكنا من الزواج؟» أملها أن يعتنق الإسلام، وخوفها ألا يفعل. حينها ماذا يكون مصيرها؟

على التربيزة هناك حبات سكر مبعثرة، تذوب في بقايا الشاي هنا وهناك، وحبيبات أخرى تتقافز في ثنايا البساط وتختفي، أو تبقى وتلتصق بأصابعها وملابسها، مكوّنة مزيجاً من اللزوجة والحلاوة.

١٣

الأربعاء الأخير؛

يوماها الأخيران:

كانت تظهر عبر النوافذ الحمراء والزرقاء طائرة تخالها تتجه نحوها. كانت تبكر وتصبح أكثر وضوحاً عندما تصل إلى سطح شاشة الكمبيوتر، ثم تختفي. توقفت عن ترجمة الإنكليزية إلى العربية، وتوقفت عن الطباعة. تلاصفت الكلمات، واختفت في ثنايا السواد الذي كانت تنبعث منه النوافذ الطائرة. تجيء من اللانهاية، نقاط صغيرة في البداية ثم مربعات زاهية وأشكال خضراء.

قالت لنفسها: بعد غد، إن شاء الله، سأركب القطار، العربة دال، المقعد «١٦ ف». وعند ظهيرة ذلك اليوم سيكون القطار قد ابتعد عن اسكتلندا مسافة طويلة.

كانت وحدها بالغرفة لأن دايان ذهبت إلى محاضرتها حول طرائق البحث. كأنما كان حضورها هو الذي يحمل سمر على العمل. وما دامت قد ذهبت، فقد فقدت المقدرة على التركيز. تجولت في الغرفة. كانت الغرفة صغيرة، تكفي فقط لمكتبين، وكرسيين دوارين،

ونسخة دايان من صحيفة **الغارديان**. نظرت خلال النافذة فرأت العربات الرابضة، ثلاثة طلاب يعبرون الشارع، والسماء المظلمة المتجمدة. في غضون عدة أيام، ستكون الشمس ساطعة دوماً في قارة أخرى.

تثقل عليها لحظات الوداع التي تنتظرها في الغد. وعندما رجعت إلى كرسيها أخذت تفكر في الوسائل التي تمكّنها من تفاديها؛ تفادي الكلمات المربكة، ولحظات الصمت التي تتوسط الكلمات. في الماضي عندما كانت تفكر في مغادرة هذه المدينة، كانت تتصور نفسها وهي تتسلل بيسر، غير تاركة ما تندم على فراقه خلفها. أما الآن، فالأشياء كلها أصبحت غامضة وعكرة وهي تكاد تنسى السبب الذي يحملها على السفر. ثم تتذكر أمير وتشعر بالذنب لأنها نادراً ما تفكر فيه، ونادراً ما تراه في أحلامها. إنها أقل احساساً بالأمومة بكثير مما كانت تنتظر منها عمتها. فطفلها ليس مركز حياتها، وليس موضع الاهتمام الذي كان يحتله والده. لم تكن تتوقع تلك النقرات على الباب، ولكنها رأت الحزن الذي دخل معه إلى الغرفة. بدا كأنه سحابة من الدخان، كأنه حزن ملوّن من العاج والليلك، حارقة في خفاء.

جلس راي على كرسي دايان، وقال:

- إنني مسافر غداً.

أربكها قوله، فهي المسافرة، وليس هو، وهي الراحلة إلى البعيد. حقائبها الجاهزة تشهد على ذلك، وتذاكرها الصادرة للتوّ تشي بأنها هي من قرر السفر. أربكها عزمه على السفر ولم يُنهِ موسمه الدراسي

بعدُ، ومحاضراته مستمرة، وهناك فريد الذي يزروه لعدة أسابيع.

- هل تذكرين أنني حدثتك عن خالي في إستيرلنغ؟

هزت رأسها بالإيجاب. تذكره في المستوصف، الأخ الأكبر لديفيد، الذي ذهب إلى مصر ولم يعد بعد ذلك.

- لقد توفي...

- أوه... أنا آسفة جداً.

نظر راي إلى النوافذ الشبحية التي تتطاير على شاشة الكمبيوتر. ليس ثمة مأساة في هذا الموت. ومع ذلك، فإن قوة الموت كانت معهما في هذه الغرفة، نظيفة، غير قابلة للمراجعة. استطاع عدو الاستمرار والتواصل أن يشطر حياتهما اليوم. ولكن في هذه الهزيمة ثمة شيء يبعث على الراحة، شيء أملس وناعم.

جلس وهو يضع مرفقيه على ركبتيه، وتحدث عن الطريقة التي وصله بها الخبر، والساعات الأخيرة في حياة خاله، والجنازة التي تنتظر التشييع. ولأن النهايات تدعو إلى التأمل واستخراج العِبَر وصياغة الخلاصات، فقد استمعت إلى الخطوط العريضة لحياة اكتملت، ولمهنة خُتمت، ولذكريات أثناء عطلة صيفية.

قال:

- كنت أود أن أكون معك غداً قبل أن تغادري.

قالت:

- هذا ليس مهماً.

حرّف الدخان الذي في الغرفة جفنيها. هذا هو الوداع الذي كان

ينتظرها إذاً! هذا هو الوداع الذي ظنت أنها يمكن أن تتفاداه! داهمها قبل يوم مما كانت تتوقع، وأسرع مما كانت تظن وأقسى.

- بل مهم إلى أقسى الحدود... إنني آسف جداً.

- هل ستقود السيارة؟

الصوت المبلل بالدموع ليس جذاباً. لا ينبغي لها أن تتحدث بهذا الصوت الفظيع.

- نعم، سأقود السيارة.

- هل تسمح صحتك لك بالقيادة؟

- سأكون على ما يرام، أعدك بذلك، وسأكره نفسي إذا لم أذهب.

كانت رغبتها، في هذه اللحظة في مصاحبته إلى إستيرلنغ، أقوى من أية رغبة أخرى في الوجود. اندهشت لهذه الأفكار الصبيانية التي تراودها. اندهشت لكونها يمكن أن ترغب في شيء لا يمكن تحقيقه، شيء ليس صحيحاً مطلقاً. ولكنها لا يمكن أن تطرد الرغبة. ودّت لو أنها استطاعت مغادرة الجامعة، وسِجنها ذي المباني المألوفة، وروتينها الممل. كانت ترغب في مغادرة أبردين، وأن تذهب بعيداً عن مكان كانت فيه مريضة، متناومة، لفترة تطاولت. سيسافران جنوباً إلى مدينة لم ترها من قبل. سيتوقفان في الطريق من أجل التزود بالوقود وسيأتيها بالمياه المعدنية والحلوى من دكان محطة الخدمة.

عندما تحدثت كان صوتها خفيضاً بصورة مفتعلة، تريده أن يعلم أنها لا تعتقد أن ذلك سيحدث، وأنه ليس سوى رغبة هازلة،

يستبعدها الحس السليم، وتُهمَل كمزحة عابرة.

- أود أن أذهب معكَ.

- أتمنى لو كان بإمكانك أن تفعلي ذلك، إذن لاختلفت الأشياء تماماً.

لم يكن يسخر منها. لم يكن مندهشاً. لقد انهارت مقاومتها. الظلام المفاجئ عندما غطت وجهها بيديها. صوته، ويداه تحيطان بها وتطوّقانها. هذا ما كانت تخشاه طوال الوقت. أن تتجمع كل الأشياء التي تحت السطح وتنفجر. كانت تلك اللحظة أقرب مما كانت تتصور، وخّازة، مفاجئة، مزعجة ومشحونة بالنحيب، وخرقاء تحت وطأة الأنف الذي يسيل.

قال إنه يحبها، وقال أشياء زادت من بكائها ولوعتها ولم تخفف عنها. قالت له ذلك ورفعت رأسها عن كتفه. استنشقت بعض الهواء. قال إنه آسف، وأمسك بيديها، وقال إن يديها جميلتان. كانت يداه أكثر دفئاً من المعتاد، لزجتين نوعاً ما، ساخنتين بصورة غير طبيعية، كأنه كان مريضاً. لم تكن تعرف أنه كان هكذا، لم تكن تعرف ذلك عنه، وشعرت نحوه بالشفقة، وبأنها صارت أكثر قرباً منه. قربها منه أراحها، وجعلها تكف عن البكاء. نظرت إلى أصابعهما المتشابكة، وإلى التماهي بينها وبينه، إلى دفء أحاسيسه واضطراب مشاعرها.

كان وقع الخطوات كالحلم. سمعتها هي أولاً وابتعدت عنه، وسحبت كرسيها إلى الوراء. رأت الغرفة تغير هيئتها، وتعود إلى ما كانت عليه في البداية: أنوار «النيون» القوية، الأوراق التي احتلت

كل الأماكن، والأزيز العميق للكمبيوتر. جاء صوت دايان المألوف وهي تدفع الباب:

- لديّ بعض اللبان.

ثم توقفت عندما رأت المنظر غير العادي لأستاذها في غرفتها، جالساً على كرسيها. أفقدتها المفاجأة صوابها وثقتها بنفسها، فبدت صغيرة، غير مهندمة وهي تقف فوقهما، ممسكة بملفاتها وكتبها، ووجنتاها محمرتان من التعرض للبرد.

- مرحباً.

قالت سمر وهي تحاول تمليس الشعور بالذنب في صوتها. تأملت وجه دايان بحثاً عن المشاعر الدقيقة. بدت خائفة من علامات الشك والريبة. كان راي مقطب الجبين، عيناه تقولان: «ماذا تفعلين هنا؟» كان قد نسي أن دايان تنتمي إلى هذه الحجرة أيضاً.

تساءلت سمر:

- هل الجو بارد بالخارج؟

سؤال لم يكن يبحث عن إجابة. همهمت دايان شيئاً عن الجليد. كان يعني عدم وجود كرسي ثالث أن تقف بالقرب من الباب، مترددة، لا تدري ماذا تفعل.

عندها، كانت تقطيبة راي قد تحولت إلى فهم. حيا دايان تحية هادئة، وسألها:

- ماذا فعلت بالكتب المقررة للبحث؟ لم أستلم منك أي شيء في الفترة الأخيرة.

همهمت دايان بأنها ستسلمه بعض الأشياء عما قريب. فهي كانت

متأخرة في بحثها، وظلت منذ بداية الفترة الدراسية تتفاداه. تمنت سمر أن يذهب الآن، حتى يتبدد الجو المربك في الحجرة.

غادر راي بالفعل من دون أن يفسر وجوده. لم تستطع دايان أن تخفي انزعاجها من حضوره. سألت سمر:

- ماذا كان يفعل هنا؟

حاولت سمر أن تلفّق جواباً حول عمل طارئ طلب منها راي أن تنجزه قبل سفرها، بينما كانت دايان ترمي بكتبها فوق المكتب، وتبدأ في إفراغ جيوبها. استعادت كرسيها، وعادت إلى طبيعتها من جديد، وأخذت تقلد راي:

- لم أستلم منكِ أي شيء في الفترة الأخيرة!

أثار خبر ذهابه إلى إستيرلنغ اهتمامها.

- هذه هي المرة الثانية في هذه الفترة الدراسية التي يكلف شخصاً آخر بأداء محاضراته نيابة عنه.

قالت ذلك وأعطت سمر قطعة من اللبان.

كان الجو بارداً عندما عادت سمر إلى منزلها. برودة لها رائحة. برودة اخترقت أنفها وشوشت ذهنها. كانت هناك أنوار بغرفتها، ولم تبق في محلها سوى أشياء قليلة من أغراضها. كانت شخصاً آخر نتيجة لما قاله لها اليوم. لم تحسَّ بأنها كانت نفسها. منذ البداية كانت تأسرها الطريقة التي يتحدث بها إليها، ويخاطب بها أحاسيسها. لم يكن يتحدث حولها، أو فوقها أو حول كتفيها. كان الآخرون يتحدثون إليها بهذه الطريقة، أما هو فلا. كانت كلماتهم تتقافز مصطدمة ببشرتها، بأذنيها، تتراكم من دون أن تمسها، وكانت

هي في حالة ثبات مطلقة، وحيدة على الدوام. تمنَّت لو يتحدث إليها طوال الوقت، كل يوم، كلَّ حين، وأن يظلاّ كذلك العمرَ كلَّه. شغلت نفسها بحلم بسيط تحسَّرت لأنه لن يتحقق! كان الضياء الذي يشتعل داخل رأسها باهراً بحيث لا تستطيع أن ترى ما بداخل الغرفة. لم تعد قادرة على رؤية الحقائب، أو السرير الذي استندت إليه وهي تجلس على الأرض، وقنينة العطر التي أهداها إياها. لم تعد قادرة على الرؤية.

لم تكن لتهتم للعمى لولا ذلك الألم الذي يصاحبه. ألم ينز من الأنوار، يحرق عينيها، ويقبض بطنها. لو كان بإمكانها نسيان الألم لأصبحت هادئة ولغاصت في عماها بأفكار مفرحة، وهي تحلم بينما درجات الحرارة تنخفض في الخارج. كل ذلك لأن دايان جاءت إلى الغرفة. كانت تلك هي اللحظة التي تفجَّر فيها الألم، التغيير المفاجئ، الابتعاد عنه بسرعة خاطفة. لو أن دايان رأته وهو يمسك يديها، لو أنها سمعته... من الأفضل ألا تفكر في ذلك. من الأفضل ألا تفكر كيف. بعد لحظة الدهشة القصيرة والعابرة هذه، سيبدو الأمر سخيفاً في نظر دايان، مسلياً وهي تحكيه للآخرين، وتحوله إلى وجبة شهية من الهمس والتلاسُن في الشعبة. لو تستطيع أن تتوقف عن التفكير في هذا الأمر. ستكون إشاعة أشهى وألذ مما تعودته الشعبة، وذاك لاختلاف الطرفين، ثم بسبب صورتها هي، وطريقة ارتدائها ثيابها. من الأفضل لها أن تكف عن التفكير. كانا محظوظين، فقد كُتبت لهما النجاة. ومع ذلك ماذا عن تلك الأضواء التي في رأسها. حرف «لو» الذي يتلوى كالثعبان، لا يعرف الاستقرار.

لا شيء يحرّمه الله على عباده يمكن أن يكون خيّراً. لن يتمخض عن شيء آخر، غير الحظ من أقدارهم، سواء آجلاً أم عاجلاً، في هذه الدنيا أم في الدار الآخرة. وهي زلت قدمها اليوم. كما أن الاحترام الذي يحظى به من الآخرين كان يمكن أن يوضع موضع الخطر. يقول المثل: «لا يقع إلا الشاطر.» وهي كانت حريصة طول الوقت، كانت حذرة ومتيقِّظة، أو هكذا ظنت نفسها. ولكن جاء هذا اليوم ناعماً وحتمياً، قريباً وليس بعيداً، لصيقاً كابتسامتها ونبض قلبها.

تطلب المغفرة من الله. ترغب في أن تكون الأشياء صحيحة كما ينبغي لها أن تكون. ولكن شيئاً واحداً يمكن أن يجعل الأشياء صحيحة، مغسولة وواضحة. قبل أشهر عديدة سألتها ياسمين: «هل أنت واثقة من اعتناقه الإسلام؟» ولكن سمر تجاهلت مخاوف صديقتها، وواصلت ولوجها داخل روحه. كانت خائفة من تحديد هوية ما يجمع بينهما، حتى أنها امتنعت عن طرح أية أسئلة. لا تستطيع أن تسير الآن على المنول نفسه. عليها أن تعرف الآن، أن تكتشف حقيقة الأمور وتبتّ في أمر علاقته بها. لم تكن تعرف حتى درجة التزامه بمعتقداته. كان عليها أن تسأله عن أشياء كثيرة جداً ولكنها لم تفعل. هي على وشك الرحيل الآن حزينة، مضطربة، قلقة، لا تدري ماذا ينتظرها؛ ماذا ينتظرهما، هو وهي. مستقبلهما غامض، كشرخ عميق يحول بينها وبينه.

لم يكن ضميرها مرتاحاً. الضوء الذي في رأسها، رؤية غائمة ملساء. صداع مثل ذلك الذي أصابها عندما زارتاه في منزله هي وياسمين. تلك زيارة تبدو بعيدة الآن ولكنها لم تتعدَّ الأربعة أشهر.

كان ذلك في فصل الخريف وكانت قد غسلت الأكواب في حوض المطبخ. كانت تنظر من خلال النافذة إلى الأضواء والبنايات الأخرى والحديقة خلف المنزل. شعرت بأنها مرحَّب بها في ذلك اليوم، وبأنها في بيتها. إحساس ينتابها لأول مرة في هذه البلاد الباردة. كان ذلك أكثر مما كانت تأمل فيه في ذلك الوقت. لم تكن قوية بما فيه الكفاية وهذا هو السبب الذي أعاد الألم.

مرّ الجزء الأول من الليل، شيء يسير من النوم، خال من الأحلام، خفيف مثل الأحماض. عندما أصبحت ترى من جديد، أبصرت الجليد من النافذة. كان الثلج يملأ الفضاء وينهمر على الأرض كأنه لن يتوقف أبداً. غطى الشارع تحت النافذة، ومواقف السيارات، وسقوف المباني المجاورة كلها. عندما كانت صغيرة في الخرطوم، عندما تنزل الأمطار أثناء الليل، كان الرعد والبرق يوقظانها من النوم. كان المنظر مثيراً لدرجة أنها كانت تعتقد أن «يوم الحساب» قد أزف. كان البرق يشطر السماء شطرين ويشرخها كقشرة البيض. كان كل ما يخفيه الظلام ينكشف في لمعان الضياء.

كان هطول المطر يعني يوما تغيرت معالمه: لا مدارس، الشوارع غارقة، وكل شيء تمتد إليه الظلال. إذا استمر هطول الثلج بغزارة، ولم يتوقف حتى الصباح، فإن الشوارع ستتوقف حركتها. هذا حدث في فصول شتاء سابقة ويمكن أن يحدث مرة أخرى. لن يتمكن راي من الذهاب إلى إستيرلنغ، ويمكنها أن تراه مرة أخرى، وأن تسأله وتطمئن.

ربما تقفل الشوارع لعدة أيام، وتتوقف القطارات. وحتى هي يمكن ألا تتمكن من المغادرة بعد غد. شرحت صدرها هذه الفكرة،

وأراحها سقوط الثلج. هذا ما كانت ترغب فيه بالضبط. لم تكن ترغب في السفر إلى مصر، لتترجم المقابلات لبرنامج مكافحة الإرهاب، لم تكن راغبة في الذهاب إلى الخرطوم وإحضار أمير. لم يحن وقت ذلك بعد. ليس الآن. كيف يمكن لأمير أن يأتي وهي لم تستقر بعدُ؟

لو أن الثلج يستمر في السقوط! لو أن الشوارع تصبح غير قابلة للعبور! تعرف حينها ما ستفعله. إنها تملك الشجاعة لتفعل ذلك. كل شيء سيكون صحيحاً وبسيطاً. منذ الآن لم تعد تنتمي إلى هذه الغرفة. فقد انتهت أيام خدمتها في هذه الغرفة: المرض، النقاهة والشفاء. صارت الغرفة الآن عارية ويابسة، مضاءة بالثلج المتساقط.

تنفس الصبح، وبدأت تحزم أشياءها القليلة الباقية: سجادة صلاتها، وقطع قليلة من الملابس كانت على السخان، بعض ملفاتها وأوراقها الخاصة بالعمل، الأغطية، الستائر وأدوات المطبخ. حشرت أغراضها كلها في كيس واحد وضعته في المخزن. فتحت قنينة العطر التي أهدها إياها. غمرت رائحتها النفاذة الغرفة ولطَّفت من جو البرودة. فكرت في ما يمكن أن تقول له، كل الأشياء التي ستترجمها له. هو يعرف الكثير. ومثله مثل الآخرين هنا، استأثر العالم باهتمامه كله وبكل طاقته العقلية. ولكنه لا يعرف شيئاً عن نهر الكوثر، عن يوم الوعد الأكبر، وعما يحمي القلوب من الصدأ. وماذا عن التوازن الذي يعجبه! أكيدٌ لن يفهم هذا التوازن إلا إذا عاشه ورآه.

مر عليها زمن لم تكن تفعل شيئاً. كان يكبلها شيء ثقيل. كانت تجرجر رجليها نحو الصلاة. حتى إيمانها صار ضحلاً. لكن الله كافأها حتى على صلاتها المتقطّعة. حماها من كل أنواع التطرف:

الأقراص، الانهيار ومحاولات الانتحار. وضع حاجزاً بينها وبين هذه الأشياء، وحقق لها التوازن الذي أعجب راي. سيدفعها هذا الإعجاب إلى تجميع شجاعتها والتحدث إليه. يمكنها أن تسعده، ويمكنها أن تفعل أشياء كثيرة جداً من أجله.

تريد أن تعدَّ له طعاماً مختلفاً. ترغب في أن تقف في المطبخ بعد أن تكون قد فرغت من العمل وتقول لنفسها: أعتقد أبحيث غمرت أني سأغير ملابسي، وأغتسل، لأن شعري وملابسي تفوح منها رائحة الطعام.

يمكن لمايري أن تأتي وتقيم معهما. فهي لا تحتاج إلى الذهاب إلى المدرسة الداخلية بعد الآن، وهو سيكون مرتاحاً لذلك، لأن يرى ابنته كل يوم، من دون أن يضطر إلى السفر إلى أدنبرا. ومايري ستحب أمير، فالنساء في عمرها يحببن الأطفال الصغار. وهي ستكون رحيمة بمايري، ستمحضها عطفاً خالصاً، وستعمل كل شيء من أجلها، ستنظف غرفتها، وتعدُّ لها ملابس المدرسة، وتعاملها كالأميرة. وعندما يذهبان معاً إلى التسوق، ستشتري لها أشياء جميلة، قطع الصابون التي لها رائحة التوت، وشرائط الشعر المختلفة المقاسات.

١٤

كانت الشوارع مغلقة بالسيارات التي تكاد لا تتحرك. صارت دوارات المدينة وإشارات المرور بلا جدوى بفعل الجليد. بلغت سماكة الجليد عدة أقدام، وقد ذكرت الإذاعة أن أبردين لم تشهد جليداً كهذا منذ عدة سنوات. الفوضى زائرة نادرة لهذه المدينة المنسقة. هي مرتبكة حالياً، متوترة وعنيدة في محاولة استعادتها إيقاعها اليومي. يجب أن تفتح المحال التجارية أبوابها، وعلى الناس أن يذهبوا إلى العمل. هذه أشياء مقدسة. وإذا كانت سمر قد بحثت عن شيء مقدس في هذه المدينة ولم تجده لبعض الوقت، فإنها تجده الآن في هذا بالضبط. تراه في وجوه الناس وهم يكشطون الثلج ويزيحونه عن سياراتهم، وتراه على وجه المرأة المسنة التي حنتها السنون، الواقفة على رجليها، وكأنها بفعل معجزة، وتنقر الجليد بعصاها التي تتكأ عليها، لأنها تريد الوصول إلى مكتب البريد مهما كلفها الأمر.

فوق هذه الفوضى أشرقت الشمس بألق يبهر العيون، وازدادت أشعتها إشراقاً وهي تنعكس على البياض الذي يغطي كل الأشياء.

هذا إشراق إفريقي، أبطأت على أثره أبردين، وفقدت كفاءتها وكأنها أصبحت مدينة من العالم الثالث. من هنا استمدت سمر قوتها. هذه أوضاع تعرفها. أوضاع طبيعية وشافية للنفوس. قررت أن تمشي، أصابعها مجمدة برغم القفازات الصوفية، ورجلاها مخدرتان داخل حذائها. الشوارع صفوف طويلة من السيارات، والباصات الغريبة والشاحنات. المصاطب مغطاة ببقايا الجليد والثلج الزلق. ليس من الممكن أن تجد باصاً فالباصات صارت أبطأ اليوم من السلاحف.

عندما وصلت إلى الجامعة كان الحرم الجامعي هادئاً، في غياب الطلاب وجلبتهم وهم يجيئون ويروحون. لم تُركَن في موقف السيارات سيارات كثيرة، والسيارات القليلة التي كانت هناك موضوعة بأشكال غير منتظمة لأن الثلج أخفى الخطوط المحددة بحجم السيارات. يلعب بعض الطلاب بالثلج. يقذفون بعضهم البعض بكرات الثلج. كانوا يضعون القبعات على رؤوسهم، والأوشحة الملونة على أكتافهم، ويضحكون. لم يكونوا جادين وصارمين كما هم في العادة. يبدو أنه لم تكن هناك محاضرات اليوم، أو لم تكن هناك سوى محاضرت قليلة. فالجامعة، على خلاف المحال التجارية، استسلمت لهذا اليوم الاستثنائي.

التقت سمر بياسمين على درج المبنى. انتفخت بطنها بصورة واضحة برغم المعطف الواسع الذي كانت ترتديه. كانت لحظتها عائدة إلى المنزل، وعلقت قائلة:

- لا يوجد أحد تقريباً في كل هذا المبنى، ولا أجد سبباً لبقائي هنا.

ثم نفخت أنفها:

- أنا لست بخير. لا أستطيع التخلص من هذا البرد.

- هل راي موجود؟

أومأت ياسمين برأسها:

- يهاتف صحافياً من لندن... عن حادثة الاختطاف.

كانت سمر تعرف أخبار الجليد وليس أخبار الاختطاف. ولكن ليس أمراً غريباً أن يحدث مثل هذا الشيء في مثل هذا اليوم. فاليوم كله كان مختلفاً، وغير عادي من جميع الوجوه.

قالت ياسمين:

- هناك طائرة ليبية كانت في طريقها إلى عمان. ألم تسمعي؟ ورد ذلك في أخبار الصباح.

سمعت أن هناك قطوعات في الإمداد الكهربائي في بعض أجزاء أبردين. وسمعت أسماء المدارس التي أُغلقت، والشوارع التي يصعب فيها السير.

قالت ياسمين إن الطائرة في قبرص الآن. ويريد الخاطفون تزويدها بالوقود، ولا يعرف أحد أين يريدون الذهاب.

- كان فريد مع راي قبل فترة. وقد اتصلا بطرابلس. يبدو أن الأمر يتعلق بإطلاق سراح سجناء سياسيين في ليبيا. ثم ذهب فريد لإلقاء محاضراته. لا أعتقد أن أكثر من نصف الفصل قد وصل إلى القاعة، ولكنه قرر أن يبدأ مهما كان الوضع.

نفخت ياسمين أنفها مرة أخرى. كان الجو بارداً وهما تقفان على

درجات المبنى. قالت لها سمر:

- من الأفضل أن تذهبي.

- نعم. لم تحضر أية واحدة منهن.

كانت ياسمين تقصد السكرتيرات.

- الشوارع سيئة بالفعل.

قالت ياسمين:

- من محاسن الصدف أن ناظم ليس بعرض البحر هذه الأيام. وأنت محوظة لأنك ستسافرين. مواعيدك غداً أليس كذلك؟

- إذا تحركت القطارات. فقد ألغيت اليوم.

وضغطت سمر رجليها لتزيل الثلج الذي علق بحذائها.

- المطار مفتوح، وقد جهزوا المدرج. يمكنك أن تجدي مقعداً بالطائرة إلى لندن إذا لم تتحرك القطارات.

- نعم أعتقد أن هذا ممكن.

لا داعي لإخبار ياسمين أنها لا تريد السفر، أو أنها لن تسافر، وأن كل الأشياء ستختلف اليوم. ولكنها يمكن أن تقول «إن شاء الله» حتى لا تُشعرها بأنها تكذب. قالت:

- إن شاء الله غداً. حزمت أمتعتي وكل أغراضي.

ودعتا بعضهما البعض، وقالتا إنهما لن تلتقيا لفترة طويلة.

كان راي ما يزال يتحدث عبر الهاتف عندما ذهبت إلى مكتبه. كان يكفيها أن تجلس وتسمع صوته، أن تعرف أنه هنا، وأن تبتسم له من وقت إلى آخر. جلست على أحد المقاعد البنية المنفصلة عن

مكتبه. كان يتحدث، عبر الهاتف، بالطريقة التي لا يتحدث بها مع الجميع ما عداها هي: أكثر هدوءاً وتلقائية. كان يسجل، في بعض الأحيان، بعض الملاحظات، ويبتسم لها. لم يكن حزيناً كما كان البارحة عندما كان يحدثها عن موت خاله. أفرحها سماعه يحلِّل عبر الهاتف مغزى حادثة الاختطاف تلك وما تعنيه. كانت فخورة بأن لندن تسأله رأيه، مع أنه يوجد عدد كبير من الخبراء غيره في شؤون الشرق الأوسط.

الوضع السياسي في ليبيا، والغرفة التي تغمرها أشعة الشمس، وانعكاسات الضوء على أرفف الكتب، وعلى خزانة الملفات. هناك بطاقات على الخزانة: البحوث؛ الإدارة؛ التدريس. يأتي عملها معه تحت عنوان البحوث. فما تترجمه جزء من المراجع التي يعتمد عليها في إعداد الأوراق التي ينشرها في المجلات ويقدمها في المؤتمرات.

سألته عندما فرغ من محادثته:

- إذاً، لم تذهب إلى إستيرلنغ.

كانت ستسأله عما إذا كان سيتخلف عن التشييع عندما رنّ جرس الهاتف مرة أخرى. كان أحد زملائه هذه المرة لأنه كان مرتاحاً معه وضحك عندما تحدثا عن عملية الاختطاف، أخبره أنه ظل مستيقظاً نصف الليل لسماع الأخبار. بالفعل، كانت العملية ناجحة كما كانت في السبعينيات، ولكنها لا يمكن أن تنافس عملية عنتبي.

كان ينصت إلى الطرف الآخر ولم تكن تعرف موضوع المحادثة. ولكنها تسمع الطلاب وهم يمرحون ويلعبون بالثلج في الفناء الخارجي. كانت ضحكاتهم تترامى عبر النافذة. شذرات من

المحادثة: «تمويلنا انخفض هذا العام.» «لم أكن أعرف ذلك.» «باريس! يا لك من رجل محظوظ!»

عندما فرغ من المحادثة قال لها:

- أنا آسف.

فكرت في الذهاب معه إلى إستيرلنغ عند الظهيرة. سيتجهان جنوباً وستكون هناك أكوام من الجليد على جانبي الطريق. سيتوقفان من أجل التزود بالوقود وسيشتري لها المياه المعدنية والحلوى. ترك مكتبه وجاء ليجلس بالقرب منها، ثم حاول تقبيلها فأزاحت وجهها. لامست ذقنه وشاحها، ثم ضحكا ضحكة يخالطها الشعور بالحرج، شبيهة بالتنفس العادي. ولكن عزيمتها قويت أثناء الصمت الذي أعقب الحرج.

قالت له:

- أريد أن أطلب منك شيئاً.

- حسناً، اطلبي!

كان أكثر استسلاماً مما كان عليه عندما سمعته يتحدث عبر الهاتف.

- أريد أن أطلب منك أن تصبح مسلماً حتى...

خانتها شجاعتها. لم تُفصح له عما تريده منه، ولم تستطع أن تنظر إليه. نظرت إلى أسفل، إلى القفازين الراقدين في حضنها. إذا حدث ذلك بالفعل فستذهب معه إلى إستيرلنغ، لتكون وحيدة بجانبه، وتحس بالاستقرار معه. تقافزت الكلمات منها:

- كنت أريد أن أتحدث معك حول هذه المسألة طوال الوقت

ولكن الموضوع محرج وصعب في آن. كنا نتحدث عن الإسلام عندما نتحدث عن العمل. وهذا مختلف عن الطريقة التي كنت أريد أن أتحدث بها إليك.

طوت القفازين في يدها وأعادتهما من جديد إلى وضعهما الأول.

لم يقل شيئاً. ربما فاجأه السؤال. ربما لم يُرد أن تفرض عليه هي ما تراه في صالحها. ربما كان يريد أن يختار بنفسه توقيتاً للإجابة. رفعت بصرها إليه. لم تكتسِ عيناه بالتعب، ولا بالدهشة. غريبٌ أنها لم تشعر بذلك، ولو حدث لكانت شعرت بالحواجز بينهما، ولكانت قد تراجعت. ولكن ما وجدته هو الضِّيق، ما يكفي من الضِّيق ليجعلها تشعر نحوه بالشفقة. لماذا حصل ما حصل عندما أرادت أن تُشعره بالأمان، عندما أرادت أن ترعاه وتهتم به؟

- هل تتحدثين عن الشهادة بالإسلام؟

قالها بطريقته العادية التي كان يتحدث بها إليها.

- نعم.

أجابت وهي تدخل يديها في القفازات.

- هل تشعرين بالبرد؟

- لا.

هناك ما يكفي من ضوء الشمس والدفء في الغرفة، ولكن البرودة داخلها هي. جاءت بها من الخارج.

- هناك سخان متحرك في الخزانة في القاعة، هل أحضره لك؟

- لا، لا أحتاج إليه.

أصبح الكلام سهلاً نوعاً ما بعد ذلك، أن تقول ما تود أن تقول بالطريقة التي تود أن تقوله بها. لم يكن ذلك صعباً. وقد عادت إليها الثقة بالنفس.

قالت:

- كنت أريد أن أحدثك عن الشهادة، عن معناها.

وتنفست بعمق:

- إنها تعني شيئين في الوقت نفسه، وكلاهما يبدأ بالكلمات نفسها: أشهد... أي أشهد على شيء غير محسوس، ولكني أعرفه بقلبي... ألا إله إلا الله... ولا يستحق العبادة إلا هو. هذا هو الشق الأول. ثم هناك الأمر الآخر: أشهد أن محمداً رسول الله. وهو ليس رسولاً فقط للعرب الذين رأوه وسمعوه، بل للجميع في كل الأوقات.

قالت لنفسها: «يجب أن أشرح الأشياء شرحاً صحيحاً، وأن أكون واضحة في ذلك.» واسترسلت:

- كان هناك أنبياء سابقون، موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء. جاء كل نبي ببرهان على نبوته، معجزة تناسب الوقت الذي ظهر فيه. شيء يراه قومه خارقاً، يجعلهم يستمعون إليه. ولكن حتى مع هذه المعجزات لا يؤمن الجميع.

- كان القرآن هو المعجزة التي جاء بها النبي محمد، وهو مختلف عن معجزات الأنبياء السابقين لأنه ما يزال معنا. ما يزال يُتلى ويُحفظ. بالنسبة إلى العرب الذين سمعوه لأول مرة كان شيئاً غريباً، لم يكن شِعراً ولا نثراً. كان شيئاً لم يسمعوا مثله من قبل.

وعندما تُليت الآيات الأولى كان كثير من الناس يبكون من وقع الكلمات وجرسها. . .

علق قائلاً:

- الترجمة لا تُنصف النص. الكثير يتسرب من بين يديها. . .

- نعم. يمكن ترجمة المعنى ولكن ليس إعادة خلقه. وبالطبع، فإن معجزته لا يمكن خلقها من جديد. . . ولكن حتى مع ذلك ومع سماعه من النبي، فإن الجميع لم يؤمنوا. لم يصدق الجميع أن مصدر هذا الكلام الذي يسمعون هو الله. كان المسلمون الأوائل من النساء والعبيد. لا أدري لماذا. ربما لأن قلوبهم كانت أكثر رقة. لا أدري. . .

قال راي:

- ربما لأنهم لا يفقدون شيئاً كثيراً إذا تغيروا. فحكام مكة هم الذي رفضوا التخلي عن تقاليدهم وما وجدوا عليه آباءهم من أجل شيء جديد.

قالت:

- كان أهل مكة قساة مع المسلمين الأوائل. كان محمد يُعرَف بالأمين، وكان الجميع ينادونه بهذا الاسم، وذلك لما عُرف عنه من الأمانة والصدق. ولكن عندما قال لهم: «أنا رسول الله،» نادوه بالكذاب والمجنون والشاعر. هذا بسبب الشكوك التي تراود الناس. والله يقول لنا في القرآن، يذكرنا مرة إثر أخرى، بأن هذه الآيات ليست من كلام الشعراء، بل هي وحي يُوحى، وهي الحقيقة عينها.

صمتت لبرهة، ربما لتترك وقع كلامها يفعل فعله، ثم قالت:

- ينبع كل شيء في ديني من هنا: من كلمات القرآن التي أخبرتني بأن البابا في القرن السابع قال عنها إنها تجديف... والآن، قل لي هل تؤمن بالإسلام أم لا؟

ذهبت إلى النافذة. كانت هناك خيوط من الجليد تنحدر من السقف، مثل بودرة التلك، مثل ذؤابات السكر تترسب عند حرف الكعكة. رأت الطلاب الذين كانت تسمع أصواتهم. كانوا في موقف السيارات. شاهدت طالبين يدفعان كرة ثلج ضخمة، أصبحت رمادية بفعل الأوساخ التي علقت بها من الأرض. كانا يضحكان وهما يضربان بها باب إحدى السيارات. شعرت بأنها تقدمت في السن وهي تنظر إلى الطالبين. كانا صغيرين وبلا مسؤوليات كثيرة. لو رفض راي، فأي منفى سيكون قد اختاره لنفسه؟ لو قال «لا»، فإنها ستخرج إلى صقيع الجليد: منفىً تحمله معها أينما تحل.

عندما التفتت قال لها:

- لست متأكداً!

كانت تتوقع «نعم» أو «لا». كانت تعرف ما تقول لو أنه قال «نعم»، وكانت تعرف ما تفعل لو أنه قال «لا». أما أن يكون متردداً، فذلك لم تحسب حسابه.

جلست. غرقت في لجة صمتها منتظرة إجابة حاسمة. كرر قوله:

- لست متأكداً!

قالت:

- هل تدري ما يعني هذا بالنسبة إلى علاقتنا؟

- أعرف ذلك، وقد ظللت أعرفه على الدوام.

- تصورت أننا يمكن أن نتزوج اليوم.

أدهشها صوتها وجرحها. مثل ورق السنفرة، مثل ملح البحر.

- الآن، كان يمكن أن أذهب معك إلى إستيرلنغ. فأنا لا أريد الذهاب إلى مصر.

- كيف يمكن أن نتزوج الآن؟

قال ذلك وصوته ينمّ عن تعاسة لا تقل عن تعاستها.

- كنت أعتقد أن فريداً يمكن أن يزوّجنا، ولن يكون صعباً أن نجد شاهدين.

كانت تعتقد أن الطلاب يمكن أن يكونوا شهوداً. يمكن لهما أن يجدا طالبين مسلمين برغم الجليد. لم تكن هذه هي الطريقة التي تزوجت بها من طارق ولكن هذه هي الطريقة التي كان يتّبعها الناس عندما كانوا يعيشون وفق الإسلام وحده. شاهدان وهدية. هدية مهما كان حجمها ومهما كانت قيمتها. في زمن النبي، كان جزءان من القرآن يمثلان هدية مقبولة من رجل لا يملك ما يقدمه إلى زوجته الجديدة غير آيات يحفظها عن ظهر قلب. في الدول الإسلامية الآن يدفعون الذهب والدولارات، وتدور النقاشات الطويلة حول من سيشتري الفيديو ومن سيشتري الديب فريزر.

ساد صمت في الغرفة. تساءلت بينها وبين نفسها: «لماذا لا يقول شيئاً؛ لماذا لا يتحدث إليّ، لمَ أنا متبلدة، ولا زلت أكابر على البكاء حتى الآن؟»

قال لها أخيراً:

- كنت أظن أنك تشتاقين إلى وطنك، وأن هذا المشروع الخاص

بمكافحة الإرهاب سيكون فرصة تذهبين بعدها إلى الخرطوم، وتلتقين بابنك. ربما أكون قد أخطأت في تقديم ترشيحك للذهاب. . .

- لا، لم يكن ذلك خطأً. أنا كنت فعلاً مشتاقة إلى الخرطوم، كمكان ليس إلاّ، وإلى صُور الأشياء هناك ليس أكثر. لكني لا أعرف أي نوع من الشوق سأكابده إذا ابتعدتُ عنك؟

- أعرف أي نوع من الشوق سأكابده أنا.

- لا تقل «لا». لا تقل «لا» مطلقاً.

- لست من أولئك الذين يمكن أن يتدينوا. درست الإسلام من أجل معرفة سياسات الشرق الأوسط. لم أدرسه لغرض خاص بي شخصياً. لم أكن أبحث عن شيء روحي. بعض الناس يبحثون عن مثل هذا الشيء. أحد أصدقائي ذهب إلى الهند وأصبح بوذياً، ولكنني لست من ذلك النوع. كنت أرى أن خير ما يمكن أن أفعله، وما يجب أن أشعر به نحو المكان والناس الذين يهمني أمرهم، هو أن أكون موضوعياً، ومتجرداً. كنت أريد في خضم كل هذا التحامل والنفاق، أن أكون واحداً من القلائل الذين يقولون الشيء الصحيح والعقلاني.

قالت وهي تضغط يديها معاً:

- هذا ليس كافياً. ليس كافياً. ليس كافياً أقلّه بالنسبة إلي.

انحنى واضعاً كوعيه على ركبتيه، ووجهه بين كفيه.

قالت:

- ألا تحس بأنك تجرحني وأنت تقول: موضوعي ومتجرد. كأنما أنت فوق كل هذا، كأنما أنت فوقي تنظر إليَّ من علٍ.

- لا، لا، ليس الأمر هكذا.

قال ذلك ووجهه يكتسي لوناً أكثر بروزاً وكأنما ضغط وجهه بقوة بين يديه.

- بل هو كذلك. إنه نوع من التعالي... أن تقول إن الأمر لا يعنيك... ليس موجَّهاً إليك. وأنت تعرف تماماً أنه موجه إلى الجميع. تعرف أنه ليس للعرب وحدهم. وأنت تعرف الأرقام. وتعرف أكثر مني النسب المئوية للصينيين والروس...

- لم أقل إن الأمر لا يعنيني. لم أقل ذلك.

- أنت لا تُطمئنني. لم تقل أي شيء يزيل قلقي.

كانت ترتجف وهي تقول ذلك. إذا لم تضغط على أسنانها فإنها ستبدأ في الاصطكاك.

قال لها:

- أنت ترتجفين من البرد. هذه الغرفة يمكن أن تصبح باردة جداً.

أومأت برأسها. الغرفة تفيض بضوء الشمس، والضحكات الخفيضة تنبعث من خلال النافذة ولكن الدفء مفقود... مفقود.

- سأذهب وأحضر السخان من الدولاب.

كان غيابه قاسياً، ومفاجئاً. أحست بالغرفة كئيبة في غيابه، ومكتظة بالأشياء: الكتب، الأوراق، والهاتف الذي يرن له وحده. كانت تجلس حيث كان يجلس طلابه، على ذلك الكرسي نفسه وهم يعبّرون عن مخاوفهم من الامتحانات، وعن مصاعبهم المالية، والبعض منهم يكاد يترك الجامعة. كانت تتصور أنه منصف معهم

جميعاً، مهتم بقضاياهم اهتماماً صادقاً. تذكرت أنها جاءت هنا إلى مكتبه لتطلب منه أن يتزوج بها وأنه لم يوافق. لم يقل «نعم»، ومع ذلك ها هي جالسة، تمنّي نفسها الأماني. لو كان لها نصيب من الكرامة لغادرت الغرفة الآن. وبدلاً عن ذلك ها هي ما تزال جالسة تنتظر.

عاد وهو يجر سخاناً كبيراً على عجلات. استغرق بعض الوقت في فك الأسلاك وتوصيل الكهرباء. كانت حركاته بطيئة، ولا تخلو من خرق، شأن رجل لم يعط الإنجازات اليدوية كثير اهتمام.

توهجت الأسلاك باللونين الوردي والبرتقالي. قال لها عندما جلس:

- كوني صبورة معي، فأنا لا أعرف ما أفعل. برغم كل هذا الاضطراب فإنني لم أحس بأي نوع من التماهي الوجداني مع أي شخص في كل حياتي... سواكِ.

لم تفهم معنى «التماهي الوجداني» هذا. كان في بعض الأحيان يقول كلمات لا تفهمها، وتطلب منه شرحها. كلمات مثل: «مشهد الستينيات»؛ «الثقافة السلتية»؛ «الاكتظاظ». ولكنها الآن لم تسأله عن «التماهي الوجداني.» لا تستطيع اليوم أن تسأل. قالت لنفسها: «إنه، أي هذا التماهي الوجداني، يبدو قريباً من التعاطف، ولا بد من أنه يشعر بالشفقة نحوي. وربما كنت على الدوام عاجزة وتعيسة بالنسبة إليه.»

تمكنت بطريقة ما أن تتحدث، وأن تقوم بالمحاولة الأخيرة.

- إذا ردَّدتَ الشهادة فإن ذلك يكون كافياً. ويمكن أن نتزوج. لو

أنك فقط تردد الكلمات. . .

- يجب أن أكون متأكداً. سأحتقر نفسي إن لم أكن متأكداً.

- ولكن الناس يتزوجون بهذه الطريقة. هنا في أبردين هناك من يتزوجون بهذه الطريقة.

- لكن نحن لسنا مثل هؤلاء. أنت وأنا مختلفان. لا يعدو الأمر بالنسبة إليهم أن يكون شيئاً رمزياً.

قالت لنفسها:

«المسألة أصبحت واضحة الآن. أصبحت واضحة وضوحاً كاملاً، فهو لا يحبني بما فيه الكفاية، وأنا لست جميلة بما فيه الكفاية. ليست أنوثتي مكتملة وأنا أجيء إلى هنا كالبلهاء لأطلب منه أن يتزوج بي، بينما كان يُفترض أن يبادر هو إلى طلب الزواج بي.»

قالت له:

لماذا تحدثت معي إذاً؟ من لماذا بدأت كل ذلك؟ لماذا لم تتركني وشأني؟ لم يكن من حقك أن تفعل بي ذلك. وإذا كنت قانعاً بدينك. . .

لم يدعها تكمل:

- لست قانعاً. هناك أشياء كثيرة لا أستطيع أن أبررها لنفسي. لست قانعاً بالطبع. أليس هذا واضحاً بالنسبة إليك؟

- ليس واضحاً. لا شيء واضحاً بالنسبة إلي.

لا شيء واضحاً سوى أنها تجرح كبرياءها، تجرجرها، تدميها وهي تسحبها إلى الأمام ثم إلى الوراء فوق السلك الشائك:

- أتمنى لو أنني لم أثق بك مطلقاً. ما هي النهاية التي كنت تتصورها لكل ذلك؟

قال والألم باد في عينيه:

- كنت أتصور أنني أحتاج إلى وقت أطول.

- منذ البداية كان يُفترض أن تنظر إلي وتقول «أنتِ لست لي.»

- لا، لم أكن لأفعل ذلك.

وضع وجهه بين يديه وضغط على عينيه وجبهته.

- نعم، كان ذلك هو الشيء المناسب. الشيء الموضوعي والمتجرد كما تقول. ما الذي تريده مني إذاً؟

حاولت أن تجعل صوتها ساخراً، بارداً وساخراً في آن، ولكنه بدلاً من ذلك كان ملتوياً وصبيانياً.

لم يلتفت إليها، بل استمر في الجلوس ورأسه بين يديه. لو نظر إليها، لفقدت القدرة على مواصلة الكلام.

- إنك لم تخدعني. ربما كان مجرد عطف عليّ، لا أكثر من ذلك. ولكنك لن تكون الأخير في حياتي. أنا لا أريد أن أعيش هنا كل حياتي في هذا الجو البشع وهذا الثلج البليد. هل تعرف ما أتمناه لك؟ هل تعرف اللعنة التي سأتمناها لك؟ سأدعو ألا تجد أخرى بدلاً عني، وأن تعيش بقية حياتك وحيداً وتعيساً. لا بد من أن بك عيباً شائناً لتطلّق مرتين. ليس مرة واحد بل مرتين!

صوت ما هو الذي أوقفها، حركة من كتفيه. حركة أفزعتها. كان رأسه ما يزال بين يديه، وحدست أنه يبكي. ظنت أنها جرحته حتى حملته على البكاء. لثانية شعرت بالانتصار، بالسعادة المجنونة وهي

تفكر: إنه يحبني، حسناً، إنه ليس محصَّناً ضدي.

قامت ومشت إلى حيث كان يجلس، تريد أن تضع يدها فوق كتفه وتقول له: لا تبك. لم تتوقف عندما همهم: «اخرجي». لم تسمعه بوضوح وهو يقول لها:

- اخرجي من هنا.

اتضحت لها الحقيقة عندما نظر إليها. لم يكن يبكي كما كانت تعتقد، بل كان ينظر إليها بطريقة لم تشهدها من قبل. كان صوته مختلفاً تماماً عن الصوت الذي تعرفه. وقد سمعته بوضوح شديد هذه المرة عندما قال لها:

- اخرجي من هنا.

فعلت ما طلبه منها. استدارت، وأخذت حقيبة يدها من الأرض. وجدت أكرة الباب، وغادرت الغرفة من دون أن تلتفت إلى الوراء. نزلت السلم. خرجت من المبنى، ودخلت في ضياء الشمس والجليد. كان كل شيء واضحاً وبارداً. تتصاعد أنفاسها، وتحس بالثلج حبيبات من الماس تطأها بقدميها.

١٥

أطاعته ونفذت ما طلبه منها. ذهبت إلى منزلها وطلبت سيارة أجرة تأخذها إلى المطار. نزلت إلى البهو وطرقت على باب غرفة ليزلي لتأخذ منها مفتاح القبو لتخزين الصناديق التي لم ترد بدايةً أن تأخذها معها.

كان مشوار المطار بطيئاً. المركبات تتحرك على مهل، لم تكن تقف في مكانها كما كانت في وقت مبكر من اليوم. وفي المطار وضعوها في قائمة الانتظار. فالسفريات الصباحية إلى لندن كانت قد تأخرت، وكان هناك الكثيرون من الركاب الذين تأخروا عن مواعيد سفرهم. ولكن ما دامت تريد تذكرة واحدة إلى لندن فقد قالوا لها إنها ستجد فرصة في السفر قبل حلول المساء.

المطار نظيف ومترف. كان مزدحماً برجال من شركات النفط في طريقهم إلى شطلاندا؛ ونساء يحملن أطفالاً صغاراً؛ ورجال في بزاتهم الرسمية. كانت عينا سمر لا تخطئان شيئاً، لا يغيب عنهما شيء. ترى الأشياء كلها، وتسجلها جميعاً. لم يكن عقلها يفكر؛ لم يكن يتوقف عند شيء أو يستقر على حال. كان نظرها فقط هو

المشغول. والأشياء الجديرة بالرؤية كانت بلا حدود، وتبسط تفاصيلها من دون حساب.

محلات المطار التجارية. الحلوى لأمير. هدايا اسكتلندية من أجل حنان.

يعصر الجوع معدتها ألماً. وقفت أمام الكافيتريا في انتظار دورها ضمن صف طويل. لزانيا من الخضار. كمية كبيرة من الجبن، الصوص الأبيض. كيك الشوكولاتة. الكابتشينو.

ذهبت إلى التواليت. نظرت إلى وجهها في المرآة. لم تكن حالتها تُسر العين. ولكن ما المدهش في ذلك؟ غسلت يديها: «لا أحب رائحة هذه الصابونة. اضغطي الزر يندفع الهواء الحار. التكنولوجيا الحديثة.»

جلست على مقعد أخضر، تقرأ المعلومات التي على الشاشة: الوصول؛ المغادرة. تقرأها المرة تلو المرة. تشعر بالشمس وهي تخبو وراء النافذة. يحين وقت الصلاة، تشعر بالأسى لأن المطار ليس به مكان للصلاة. لو وقفت في تلك الزاوية وشرعت في الصلاة لأصيب الناس بالصرع. تذكر قصة حكتها ياسمين ذات مرة: بعض الأتراك اصطفوا لأداء الصلاة في تيرمينال «١» فقام أحد المارة باستدعاء الشرطة.

صلت سمر حيث كانت تجلس. صلت من دون أن تتحرك. بعد ساعات قليلة ستغادر: «اذهبي، اذهبي، اذهبي بعيداً من هنا.»

الساعة على الحائط. قبل أربع وعشرين ساعة لم تكن حتى تعرف أن خال راي قد توفي. أربع وعشرون ساعة كافية لتدمير العقل. لا

تفكري. فقط انظري حولك، افتحي عينيك على اتساعهما وحملقي.

حان وقت الصعود إلى الطائرة. الظلام المبكر للشتاء. كانت هناك خارج زجاج المطار الصقيل زخات من الهواء الصقيعي... الصعود على الدرجات المعدنية وحتى الطائرة. المضيفة الباسمة مزوقة ومفرطة في المكياج. أعطتها صحيفة المساء. المقاعد الزرقاء الداكنة: نيفي بلو. رائحة الطائرات المميزة. الحركة المضطربة حول الأدراج العلوية.

اربطوا الأحزمة. سياسة خطوط الطيران البريطانية التي لا تسمح بالتدخين في سفرياتها المحلية. على الصفحة الأولى من الصحيفة صورة الطائرة التي اختُطفت على مدرج مطار قبرص. تاريخ اليوم مكتوب في أعلى الصحيفة. اليوم الخميس. غداً هو اليوم الذي كان من المفترض أن تغادر فيه. غداً، لا أكثر. لا تنطوي هذه السفرية على أي شيء درامي. لن يلاحظ أي شخص أنها غادرت. لقد أهدرت نقودها على تذكرة الطائرة، وأهدرت ثمن التذكرة التي دفعتها للسفر غداً بالقطار. ولكنه قال لها: اخرجي من هنا، غادري هذا المكان.

الإقلاع، هدير الإقلاع، الاندفاع والطيران في الفضاء. حلقت الطائرة فوق المدينة. وفي ظلال الشفق كان العالم تحتها مرشوشاً بنثار الجليد. نظرت سمر من خلال النافذة ورأت منازل وعربات وأشجاراً، بدت صغيرة كلعب الأطفال. ورأت البحر باهتاً ومربداً. رأت مدينة صغيرة متلاصقة البيوت، قزّمت آمالها.

الجزء الثاني

ولكن الضباب راح، واستيقظتُ ثاني يوم وصولي، في فراشي الذي أعرفه، في الغرفة التي تشهد جدرانها على ترهات حياتي في طفولتها ومطلع شبابها. وأرخيت أذنيّ للريح... ذاك لعمري صوت أعرفه، له في بلدنا وشوشة مرحة. صوت الريح وهي تمر بالنخل، غيره وهي تمر بحقول القمح. وسمعت هديل القمريّ، ونظرت من خلال النافذة إلى النخلة القائمة في فناء دارنا. وعلمت أن الحية لا تزال بخير. أنظر إلى جذعها القوي المعتدل، وإلى عروقها الضاربة في الأرض، وإلى الجريد الأخضر المتهدل فوق هامتها، فأحس بالطمأنينة. أحس بأنني لست ريشة في مهب الريح، ولكنني مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل، له جذور، وله هدف.

الطيب صالح،

موسم الهجرة إلى الشمال

١٦

أصبحت تستعمل النظارات الشمسية، فهي تجعل زرقة السماء داكنة، وكذلك زرقة المبنى الذي أقيم في المربع الذي كان خالياً أمام منزل عمتها. إنها جمعية تعاونية تزدحم أثناء ساعات العمل الشارع بالصخب والعربات المنتظرة. كانت نظاراتها تضفي لوناً أزرق على الحديقة، على صفرتها الجافة، وعلى شخصيات ديزني المرسومة على الحوض المتحرك الذي يتعلم فيه الأطفال السباحة. قوّمت حواف الحوض ووضعته في الظل، وملأته بالمياه التي كانت تندفع حارة من الخرطوش. تبقّت ساعتان للغروب، ومع ذلك كانت الشمس يلدغ وهجها كالإبر عينين تعوّدتا على رؤية الجليد والضباب. جلست سمر تحت العريشة قرب شتلات الصبار العجوز في أصصها الفخارية، والجهنمية المغروسة في الطين. تناهت إليها أصوات الأطفال وضحكاتهم. يا لمنظرهم! كانوا بملابسهم الداخلية: سروال أمير تسيل منه المياه. ملابس داليا البيضاء، الملتصقة الشفافة. والتوأمان حسن وحسين في ملابسهما المخططة بالأحمر والأخضر. بللوا النجيلة حول الحوض فتحولت إلى طين ووحل. صارت

مسطحة تحت شجرة اليوكاليبتس.

كان المنزل خلف سمر نائماً، تحت أزيز المراوح ومكيفات الهواء. إنها القيلولة قبل المغيب ووقت الصلاة والشاي، ثم الخروج، أو الزوار الذين يوقفون عرباتهم على الرصيف في الخارج. كان منزل عمتها مزدحماً بالحركة، بالدخول والخروج، بقرقعة زجاجات الميرندا وهي تُفتَح كل حين، وغليان المياه المُعَدَّة خصيصاً للشاي، والآنية التي تُستخدم للضيوف، والسكرية الأنيقة. كانت حنان تقيم في الطابق العلوي مع زوجها وأطفالها الأربعة. كانت سمر تعرف داليا لأن عمرها مثل عمر أمير، ولكنها لم تر التوأمين إلا من خلال الصور. عمرهما الآن عامان. أما الطفل الصغير المولود حديثاً فهو الآن مع محاسن في الطابق الأرضي. جلست سمر تحت العريشة. لم تكن هناك نسمة تهب؛ ولم تشعر بذرّة رطوبة في الهواء. ليس سوى الحرارة والجفاف والغبار الصحراوي. كانت عظامها قد اكتفت بذلك وتعودت عليه، بعد أن استعادت لدانتها وصباها. نسيت هذه العظام كيف كانت مطبقة. صارت بشرتها غامقة من الشمس، وصارت أكثر صفاءً بعد أن تحرَّرت من الصوف والقفازات. انتظرت طويلاً لتنسى بدورها: دواخلها. عيناها بالذات خذلتاها، فهما لم تعودا قويتين كما عهدتهما في الماضي؛ لم تعودا قويتين كعيون أولئك الذي لم يذهبوا شمالاً. لذلك، عليها أن تحميهما بهذه النظارات الزرقاء، وأن تنتظرهما حتى تنسيا كما نسيت البشرة والعظام. تريد أن تستأنف الحياة هنا من جديد: «الناس هنا يبتسمون عندما أدخل الغرفة. هذه الشجرة شجرتي، هذه الحديقة المتواضعة حديقتي. هذه الشمس لي. وهؤلاء الأطفال أطفالي؛

أولئك الذين حملتهم في بطني وأولئك الذين لم أحملهم. لا أحد هنا يمكن أن يقول لي اخرجي من هنا، اخرجي. ابتعدي عني الآن.»

- سمر، سمر.

نادتها بنت الجيران من فوق الحائط. عبرت سمر الشرفة ونزلت الدرجات نحو مكان العربات. هناك ماسورة وحوض على الأرض له حافة مرتفعة من الإسمنت. عندما تقف على هذه الحافة يمكنها أن تتحدث مع نهلة التي تقف على كرسي من الجانب الآخر من الحائط. قبل يومين فقط، وفي هذا الموقع نفسه، فقدت نهلة توازنها ووقعت. ولكن ذلك لم يردعها وها هي الآن تفعل الشيء نفسه. صافحت سمر وقبلتها من فوق الحائط.

- إذا سقطت ثانية فستصابين بكسر وستكونين مضمّدة عندما يحين موعد الزواج.

ستتزوج نهلة الشهر المقبل. هي فتاة جميلة، بغمازتين ووشاح غامق لا ينزل عن شعرها، بالرغم من أنه ليس مسنوداً بدبوس أو بروش.

- لن أسقط هذه المرة. المرة الماضية كنت أضع هذا الصندل «اللئيم،» وهو الذي تسبب في وقوعي.

- وماذا تلبسين الآن.

- أنا حافية الآن. أحضري الأطفال وتعالي عندنا.

- لا أستطيع. إنهم يسبحون.

- أين يسبحون.

- أحضرت لهم هذا الحوض عندما أتيت. كانت عمتي محاسن تريدني أن أحضر زحافات لأمير، ولكني بدلاً عن ذلك أحضرت الحوض. ومع أنني وصلت قبل شهر إلى هنا إلا أنني لم أستطع أن أملأه لهم إلا اليوم. تعالي شوفيهم. شكلهم لطيف خالص.

بعد دقائق قليلة كانت نهلة تتأمل الحوض. خلعت حذاءها، ورفعت فستانها وخاضت في الماء، مما زاد من فرح الأطفال. اتكا أمير على جانب الحوض فبدأ الماء يتدفق خارجاً.

- توقف يا أمير. دلقت كل الماء.

أمسكته نهلة من ذراعه وجذبته ولكنه تملص منها وأفلت. كانت ضلوعه بارزة وركبتاه مغطاتين بندوب الجروح القديمة ولسعات الناموس.

تناولت سمر الخرطوش لتضيف إلى الماء في الحوض. ورشّت أمير وداليا بالماء، فصرخا وخرجا من الحوض جاريين عبر الحديقة. كان الشريط في شعر داليا مبتلاً ومسترسلاً على كتفيها. أما حسن فقد كان وجهه مغطى بالماء وبدا يبرطم ويشهق. كان شعره المبتل يغطي جبهته.

- آسفة يا حبيبي.

وضعت سمر الخرطوش ومسحت وجهه المرعوب. لم يكن يبكي، وسرعان ما عاد إلى لعبته التي يملأ فيها كوباً من الماء ويدلقه بجانب الحوض.

- سمر، تعالي. الماء لطيف جداً. أنا لا أشعر بأي حرارة الآن.

- لا، أنا أكبر من ذلك.

قالت ذلك وهي تبتسم وذهبت تنفض الغبار عن ورود الياسمين التي تحيط بالحديقة.

- أنت لست كبيرة يا سمر. ما شفت حنان؟

ونفخت نهلة وجنتيها، وتهادت بخطوات مبالغ فيها من طرف الحوض إلى طرفه الآخر.

ضحكت سمر والتفتت حتى لا تكون داليا قد لاحظت أنهما تتحدثان عن أمها. ولكن الملاحظة صحيحة، فحنان أصبحت تمشي وكأنها ما تزال حبلى.

- هذا بسبب الطفل. ستصبح رشيقة في فترة قصيرة وخاصة أنها رجعت إلى العمل.

كانت حنان طبيبة أسنان. وقد قالت سمر عبارتها تلك وهي تضع الخرطوش لتسقي أحواض الزهر.

- كانت هكذا حتى قبل الطفل. أنت ما شفتيها. والآن أنت تبدين أصغر منها بسنوات.

خلعت سمر نظاراتها. كانت أشعة الشمس باهرة وقاسية. مسحت الماء من زجاج النظارة بطرف فستانها. تحجَّرت عبارات الإطراء عن جمالها داخلها. ما الفائدة؟

- كيف حال أمك الآن؟

كانت أم نهلة مريضة بالملاريا. وقد ذهبت سمر ومحاسن يوم أمس لزيارتها.

- الحمد لله، هي أحسن الآن. خايفة ترتيبات العرس تتعبها. حظنا مش كويس!

قالت ذلك وهي تضرب الماء فتنداح دوائر من المويجات الهادئة.

- ليه تقولي كده؟

- النادي السوري محجوز في يوم عرسنا.

- شوفو نادي آخر.

- النادي السوري هو الأفضل ولذلك يمكن نغير اليوم.

انحلت نهلة وبدأت تلعب مع التوأمين بكوبيهما، وتعلمهما كيف يصبان الماء من إناء إلى آخر.

- لم أحضر عرساً منذ سنوات. عرسك سيكون الأول.

- ألم تحضري أعراساً في اسكتلندا؟

- لا.

رمقتها نهلة بعينين مزوَّقتين بالكحل وتساءلت:

- ليه؟

- لم أكن أعرف أناساً كثيرين هناك. في بعض الأحيان أرى العرسان وهم خارج الكنيسة يلتقطون الصور. هم لا يتزوجون مثلنا في المنازل. يتزوجون في الكنائس أو...

- أيوه شفتهم في الأفلام.

لم تكن نهلة تهتم كثيراً بالطرق التي يتزوج بها الناس في الأماكن الأخرى من العالم.

- أتمنى أن تحضر عمتك محاسن عرسي.

- ما عارفة والله. هي بتمشي أعراس؟

- لا أبداً. من زمن طارق. الله يرحمه.

- الله يرحمه. ولكن حتى لو عمتي محاسن ما مشت للحفل في النادي لازم تجي العقد في بيتكم.

خرجت نهلة من الحوض وحذاؤها يخر منه الماء. رسغها جميل، أظافرها مطلية: كل الاستعدادات الخاصة بالعروسة.

كانت سمر هكذا أيضاً قبل عدة سنوات من سفرها إلى اسكتلندا، وقبل موت طارق.

هنا في هذا المنزل، في هذه البلاد الناطقة بهذه اللغة، في هذا المكان، ترقد كل الذكريات. كل الأشياء التي سُلِبَت منها. صورة لطارق عندما دخلَتْ هذا البيت لأول مرة. كان باسماً، جالساً على الكرسي، متراجعاً في جلسته، مرتاحاً في حضرة كل الأشياء. كان ممتلئاً بالشباب. كان شاباً واثقاً بنفسه. لم يكن مثلها. وهو لم يعد يعرفها. الشاب الذي في الصورة لم يعد يعرف سمر التي عاشت وحيدة في أبردين. حملتها الصورة على البكاء. انسكبت الدموع من تعب الرحلة؛ من ضغوط الأسابيع الماضية في مصر؛ من الانفعال وهي ترى أمير مرة أخرى؛ وهو في هدوئه اللامبالي يتلقى قُبَلها وضمه إلى صدرها وكأنما يقوم بها أحد الزوار العابرين في حياته. عندما انخرطت في البكاء، شاركتها حنان وعمتها. كانت حنان تُرضع الطفل وتجفف أنفها بمنديل ورقي، ومحاسن ساكنة ومستقيمة العود. تنهمر دموعها من دون مهانة النشيج. بعد أن بكين معاً، بدأ حَرَج اللقاء في التلاشي، بدأت سنوّ الغربة تخف وطأتها بالتدريج. استعادت بعد ذلك البكاء، هويتَها من جديد: أم أمير وأرملة طارق العائدة من بعيد.

ذهبت مع نهلة حتى الباب. حان بعدها موعد إخراج الأطفال من الحوض، وإدخالهم إلى المنزل ودفعهم نحو الحمام. كان الحمام ساخناً جداً، لدرجة جعلتها تتقطر عرقاً بينما يقطر الماء من أجسام الأطفال.

قال حسن وعيناه المتهمتان خالطهما الاحمرار، ويداه الزلقتان تضربانها فوق الفستان.

- أدخلت الصابون في عيني. سمر وسخة... شينة.

بدرة التلك والملابس النظيفة.

قالت داليا ويداها معقودتان فوق صدرها ووراءها كل تسلط أمها:

- لن ألبس هذا.

- وليه بقى؟ هذه لبسة حلوة. هذه أرنب حلوة.

- لا، شينة.

- أمير، تفتكر دي قبيحة؟

- لا.

- شفت، أمير يراها جميلة، وماما عندما تصحو ستراها جميلة وماما محاسن...

عاوزة ألبس الفستان الأحمر.

- الفستان الأحمر في الغسيل، لأنه وسخان.

- عاوزة الأحمر.

- مش ممكن تلبسي الفستان الأحمر. البسي بتاع الأرنب وأعدك بالخروج معي أنت وأمير في المساء.

- نمشي وين؟

أدخلت سمر الفستان الذي عليه صورة الأرنب في رقبة داليا. لم تكن هناك مقاومة. دفعت الطفلة بيديها داخل الفستان ونظرت إلى سمر في لهفة للجواب.

- سنذهب إلى منزل خالو وليد.

قطبت داليا حاجبيها، فهي لا تذكر من هو خالو وليد.

قالت سمر:

هو أخي. ألا تذكرين! عندهم بلكونة بها طيور في قفص.

وسوّت حاجبي داليا اللذين بعثرتهما المياه، وسوّت عنق القميص.

خلّينا نخرج من الحرارة الفظيعة ديه.

فتحت باب الحمام وهي تتنفس الصعداء لأنها خرجت من الجو الخانق إلى برودة القاعة. تقود القاعة إلى حجرة الجلوس حيث يوجد التلفزيون والمكيف الكبير. هناك أيضاً سريران جوار الحائط وثلاثة مقاعد جلوس قديمة. وهناك مقاعد لجلوس الأطفال وطاولة خشبية مستديرة للقهوة. كانت الطاولة تتمايل وتهتز ولكنها كانت تُستخدم مع ذلك كمائدة للطعام، ولأداء واجبات أمير وداليا المدرسية في كل مساء. في المنزل صالون آخر مخصَّص للضيوف الكبار والاستقبالات الرسمية؛ حجرة يسودها الهدوء الكئيب، لا تُستخدم يومياً. كانت سمر قد استقبلت بعض أصدقائها هناك عندما جاؤوا لزيارتها والترحيب بها بعد عودتها. وبينما كانت تجلس معهم كانت منتبهة طول الوقت لصورة زفافها إلى طارق معلقة على الحائط.

كانت عروسة بريئة وصغيرة.

- ألا تعتقدين أنه من الأفضل أن نأخذ تلك الصورة من الصالون؟

صعقتها إجابة عمتها القاطعة بـ«لا»، ونظرة الشك والاتهام التي رمقتها بها. لا بد من أن محاسن اشتكت لحنان لأن حنان أخبرتها في اليوم التالي:

- لم تنسَ أمي ما حدث. بالله عليك يا سمر لا تقولي شيئاً يزعجها. طارق كان ابنها الوحيد.

ابنها الوحيد. أصبح الأمر هكذا منذ أن عادت بطارق، على متن طائرة، محمولاً في صندوق. ابنها الوحيد. الكلمات التي تفوَّه بها الجميع، وهم لا يصدقون. ولد محاسن مات. ولد محاسن مات.

- ابنها الوحيد! مسكين اليتيم. يا وجع قلبي عليك يا محاسن. ولدها الوحيد.

أصبحت الأمور هكذا منذ أن جاءت سمر بطارق من أبردين، وكانت هي التي تحمل الفشل بين يديها. كانت حياتها قد تحطمت، وتغيرت إلى الأبد. فقدت الأمل، فقدت المحور الذي تدور حوله حياتها. ولكن محاسن وحنان استمرتا كما كانتا، بينما لم يكن أمير يذكر أباً يكاد لا يعي أنه وُجد في يوم من الأيام.

كانت محاسن قد استيقظت وهي في حجرة الجلوس، والطفل ما يزال نائماً بين الحائط وظهر محاسن. وبالرغم من الحزن الذي ظهرت خطوطه على وجه عمتها، إلا أنها ما تزال أنيقة، أناقة تظهر في جلستها وحديثها. كانت تشاهد فيلم فيديو مع الأطفال. قط يطارد فأراً عبر الشاشة. القط يشعر بالإحباط الأبدي، بالنصر الذي

يفلت منه في آخر لحظة. حيّت سمر عمتها وجلست على أحد المقاعد لتصفف شعر داليا. إذا لم تصففه وتضفره الآن وهو ما يزال مبتلاًّ فسوف يتجعّد ويصبح من المستحيل تصفيفه. المشط بأسنانه الكبيرة الواسعة كان زلقا في يدها.

«أوه،» تأوهت داليا وعيناها مثبتتان على الشاشة.

- عفواً يا حلوة. خلاص انتهيت. عاوزة ضفيرة واحدة ولاّ اثنتين؟

- اثنتين.

قالت محاسن:

- اثنتين أنسب ليها، شديهم كويس. المرة الفاتت عملتيهم مرخيات وعشان كدة اتفرتقوا.

أومأت سمر برأسها، وشقت شعر داليا عند مفترق الرأس وبدأت في الضفر. كانت تشعر بعمتها وهي تراقبها. إذا رفعت رأسها الآن عن شعر داليا ونظرت إلى عمتها فستلتقي عيونهما، وسترى التعبير الذي على وجه عمتها. شيء كخيبة الأمل، كالاعتراض، نوع من الاحتقار. في مرات عديدة عندما تلتقي عيناها بعيني عمتها كانت ترى ذلك الاحتقار، حيث كان هناك، قبل عدة سنوات، الرضى والحب.

«حبي لأمك أكبر من حبي لك.»

هكذا كانت تحب أن تغيظ طارق قبل سنوات مضت. كان ذلك قبل زمن، زمن آخر، قبل أن تزحف خطوط الهزيمة وتحتل مكانها على وجه محاسن، وتصيبه ببعض الشحوب.

ركزت سمر على شعر داليا ولم ترفع رأسها نحو عمتها. ومع أن المكيفات كانت تنز وتنفخ الهواء، إلا أنها كانت ما تزال تشعر بالقيظ. رفعت ذراعها ومسحت العرق الذي سال على جبهتها بكم البلوزة.

- ليه شعرك مبشتن كده اليوم.

كان صوت عمتها مختلفاً عن أصوات فيلم الكرتون وأنغام الموسيقى.

- كنت مع الأطفال في الحديقة. كانوا يلعبون في الحوض. وجاءت نهلة بعد ذاك.

كان الأدب يقتضيها أن ترفع رأسها. ولكنها خفضت عينيها مرة ثانية.

- إن شاء الله ما يكونوا ناوين يعملوا حفلة العرس في البيت. الموسيقى العالية والزحمة في كل الشارع.

- لا أبداً. قالت حجزوا النادي السوري.

وأوشكت أن تقول لها إن نهلة تأمل في حضورها، ولكنها غيرت رأيها في النهاية.

- ما عندي نفس للأعراس والحفلات.

كأن عمتها كانت تقرأ أفكارها.

- من يوم دفنوا المرحوم، أصبح ما عندي نفس لهذه الأشياء. حنان تمشي ولكن من دون نفس، وطبعاً واجبها أنها تمشي. الناس تتوقع حضورها.

- نعم.

لم تكن ترتاح إلى عمتها عندما تقول المرحوم ولا تشير إلى طارق باسمه. هذا يجعله يبدو كبيراً في السن بينما توفّي وهو شاب؛ وسيبقى شاباً إلى الأبد. هي لم تصدق كذلك أن حنان كانت تذهب إلى الحفلات «من دون نَفْس.» ولكنها ظلت ساكتة بعد أن انتهت من تصفيف شعر داليا، ولم تعارض عمتها ولم ترفع رأسها. فوق أزيز المكيف، وفوق موسيقى فيلم الكرتون، سمعت من بعيد صوت أذان المغرب. كانت تفتقد هذا الصوت في أبردين. كانت تتخيل أنها تسمعه من خلال أنابيب التدفئة المركزية، وفي صوت تخال أنه يأتيها من شقة مجاورة. كان سماعه يُسري داخلها نوعاً من الراحة، نوعاً من التذكير بأن هناك شيئاً أكبر من كل شيء: «الله أكبر، الله أكبر.»

ذهبت لتتوضأ. كان عليها أن تنظف الحمّام أولاً لأن الأطفال ملأوا جنباته بالماء، ورموا المناشف والملابس على الأرض. في غرفة النوم أدارت مروحة السقف وتناولت سجادة الصلاة التي كانت ترقد مطوية في سرير عمتها. كل ملابس سمر وأشياؤها في غرفة منفصلة، بها دواليب مغلقة وكراتين الميراندا، وأكياس السكر والأرز. لكنها تنام في هذه الغرفة مع عمتها وأمير. فالكهرباء مكلفة بحيث لا يمكنهم أن يتركوا أكثر من مكيف واحد يدور طوال الليل. كان هذا ما جعلهما تتشاركان هذه الغرفة، وتتشاركان المكيف. في بعض المرات يكون هناك انقطاع للكهرباء أثناء الليل، وكان الصمت المفاجئ للمكيف يجعل سمر تصحو من النوم. كانت تغلقه حينها، وذلك لأن اندفاع الكهرباء عند رجوع التيار يمكن أن يعطل المكيف. كانت، بعض المرات، تعود إلى النوم مرة أخرى مستعينة بالبرودة

المتبقيّة في الغرفة، ولكن بعد دقائق معدودة يوقظها الحر مرة أخرى. ليس أمامها سوى أن تفتح كل النوافذ، ومع ذلك وفي كثير من الأحيان، فإن نسمة واحدة لا تتفضل بالدخول إلى الغرفة الخانقة. كان أمير يتحرك في نومه، ويركل الغطاء بعيداً عنه، كما كانت عمتها تستيقظ وتتكئ على الحائط، وهي توسع الحكومة وشركة الكهرباء سباً وشتماً، ولا تتردد في أن تلعن الحياة نفسها. تنهض سمر وتخرج من الغرفة، وتتجول في الحوش تحت سماء مرصعة بالنجوم، وهي تترنح من النعاس، مبهورة بالسماء الحبلى بالأثقال. في الماضي كان الجميع ينامون في الخارج، وعلى السطوح، يستظلون بالسماء وينعمون بالنسمات العليلة التي تهب حتى في أكثر الأيام حرارة. لكن حنان بنت شقتها على السطوح.

- الناس ما عادوا ينامون في الخارج يا سمر.

وذلك بسبب الناموس الذي تولده المجاري المفتوحة والأبخرة التي تنفثها أجهزة التوليد عندما ينقطع الإمداد الكهربائي عن البيوت اللامعة التي تستطيع أن تقتني المولدات.

خرجت إلى الحديقة بعد أن أدّت الصلاة. صارت مختلفة في غياب الأطفال ولم تشعر بأنها تحتاج إلى النظارات الشمسية. تستطيع أن تبصر الآن كل الألوان التي كانت تفتقدها في أبردين: الأصفر والبني. كانت كل الأشياء الأخرى واضحة. الأرض المنبسطة والفضاء الذي يسوده السلام، والاتساع. لا ألوان رمادية، لا رياح عاتية، لا خطوط من الغرانيت. طوّقت الشمس البيوت أسفل الشارع، وتركت وراءها لفات من الوردي والبرتقالي. كانت تلوح في الشرق الزرقة الواثقة لليل الزاحف، هلال واهن يبدو يطل من هناك، نجمة، نجمتان، صارت

الآن ثلاث نجمات. كانت الطيور ما تزال تخف نحو الأشجار، وهي تزقزق وترسل أصواتها الحادة، يختلط حفيف أجنحتها بحفيف الأشجار، وتصبح أكثر إزعاجاً مما كان عليه الأطفال قبل قليل. على الجانب الآخر من الشارع، كان الخفير الليلي للتعاونية يقدم الشاي إلى أصدقائه. جلسوا كلهم على برش كبير من السعف المضفور على جانب الطريق. سجاجيد الصلاة وأصداء الضحكات. كان الجمر يتقد، والماء داخل الإبريق تغلي وترسل بخارها في ثنايا الشفق. كان هيامها بالوطن، وشوقها الممضّ إليه، قد ارتويا، وكانت عيناها قد قرتا بما رأتاه من الألوان، ومن اتساع السماء بالقياس إلى ما تحتها وإشراقها العجيب. سمعت صوت الجرس بعدما بان ضوء متأرجح واهن من دراجة تسير على الطريق. ماءت قطة كصرخة طفل. كان لكل شيء رائحته من دون الرياح: الرمل، وشتلات الياسمين وأوراق الصبار المتساقطة.

١٧

كان أخوها وليد يسكن مع زوجته شقة في الطابق الثاني في واحدة من العمارات الجديدة. كانا قد تزوجا حديثاً ويعملان في مكتب معماري واحد. أوقفت سمر سيارة حنان تحت الوهج الخافت لمصباح من مصابيح الشوارع. اتضح أن دروس القيادة التي تلقتها في أبردين كانت مفيدة في النهاية، مع أن التغيير للسير على يمين الشارع كان صعباً في البداية. فتح أمير وداليا باب السيارة وقفزا إلى الخارج.

- إذا كنا في اسكتلندا كنتوا حتركبوا في المقعد الخلفي وتربطوا الحزام.

لم يفهما ما ترمي إليه. فهما لم يريا مطلقاً شخصاً يربط الحزام، ولم يكن بمقدورهما أن يتصورا بلداً بعيداً اسمه اسكتلندا. كان الشارع الذي عبروه مليئاً بالحفر، وببقايا مواد البناء من الإنشاءات الجديدة. الطوب وكتل الإسمنت في كل مكان، يلعب بها الأطفال الذين لا يجدون مأوىً غير الشوارع. كان هناك دكان صغير بالقرب من المبنى يتزاحم الأطفال على بابه. ملابسهم ممزقة، ملطخة

بالأوساخ، وأرجلهم حافية يغطيها الغبار حتى الركب. كانوا يريدون الحلوى واللبان، ويتضاحكون ويتدافعون. كانت أسنانهم بيضاء، وتبدو أكثر لمعاناً من إضاءة هذا الشارع الفقير. ومع أن سمر جاءت من المطر ومن مدينة غنية من مدن العالم الأولى، إلا أن العوز الممسك بتلابيب هذا المكان لم يكن غريباً عليها. هذه البيئة الرثة امتصت الشمس منها رحيق الحياة ولم تترك مجالاً للترف أو الأكاذيب.

في اللحظة التي فتح فيها وليد الباب، انقطع التيار الكهربائي. أثار الظلام المفاجئ كثيراً من الفوضى، إذ صار أمير يتقافز فرحاً وضاحكاً وساخراً من داليا لأنها كانت تخاف الظلام. حدثت حركة نشطة لجلب الشموع والبطاريات، ومحاولات لتهدئة داليا، ونكات حول أن سمر هي التي تسببت في انقطاع التيار بمجرد حضورها، وأن الظلام قد جاء معها.

قادهم وليد عبر الشقة ليجلسوا في البلكونة. أفرح هذا الأمر الأطفال الذين صاروا يضايقون الحَمَام النائم في قفص كبير تغطيه الشباك. كان الأطفال يُدخلون أصابعهم من خلال فتحات الشبكة ليصلوا إلى الحَمَام. كانت المنازل والشوارع المجاورة غارقة في الظلام، مما يدل على عطب كبير في الإمداد الكهربائي، وليس مجرد خلل في نظام الإضاءة بالمنزل. لاحت من بعيد أنوار المطار، صفراء وحمراء. أما في الكنتين في الطابق الأرضي، فقد أضيء فانوس من الغاز، وارتفعت صرخة من الشارع أجابتها ضحكة مماثلة. كان ضوء كاف من القمر والنجوم يمكّن سمر من رؤية أخيها بوضوح: الجلابية التي يرتديها، وأسنانه المفلجة حين يفتر ثغره

باسماً أو ضاحكاً. قال إن زوجته ذهبت إلى درس اللغة الألمانية.

سألته سمر:

- لماذا تدرس اللغة الألمانية؟

كانت تفكر في النجوم، في عددها غير المحدود، في توغل بعضها في البعد ودنو أخريات. كيف يمكن أن تكون هذه هي السماء نفسها التي رأتها في أبردين؟

- أنت متصورة أني عارف هي بتمشي ليه؟ هي تريد دراسة الألمانية. ماذا أقول؟ لا تدرسي اللغة الألمانية؟

- كنت أعتقد أنها تدرس الكمبيوتر في «نمرة ٢».

كل الناس يمكنهم أن ينظروا إلى هذه السماء، لا رسوم للدخول، لا نقود. في اسكتلندا هناك محلات تجارية لكل الأشياء، تبيع جميع الأشياء، ولكن أحداً لا يستطيع أن يشتري سماء مثل هذه.

- كانت فعلاً تدرس برمجة الحاسوب هناك، ولكن المشكلة هي أنه لا توجد أجهزة كافية، لم تجد فرصة كافية للتدريب. ولذلك تحصَّلت على الأوراق وتستطيع استخدام الجهاز الذي نملكه بالمنزل.

- الحقيقة أنا عايزة أستخدم الكمبيوتر بتاعك اليوم. عايزة أكتب رسالة؛ رسالتين في الحقيقة. لكن ما فيش كهرباء.

هنا التفتت إلى أمير وداليا:

- أنت وهي، سيبو الحمام من فضلكم.

صفع أمير الشبكة بكفيه، فتحركت إحدى الحمامات من دون أن

تصحو.

- إن شاء الله ترجع. ليلة أمس قُطعت بالضبط زي الوقت ده، ورجعت بعد خمس عشرة دقيقة.

- جميل.

اندهشت لأنها لم تهتم كثيراً بانقطاع التيار الكهربائي، لم تزعجها هذه العقبة. في العادة كانت ترغب في تنفيذ الأشياء بمجرد وصولها إلى قرار. ربما يكون السبب هو السماء، والنسمات الندية الرقراقة. أم أنه الشعور المحبط بالاستسلام. كانت النجوم تسخر من أضواء الأرض بعد أن تغلبت عليها.

سألت أخاها:

- ماذا كنت تفعل قبل وصولنا؟

قال لها وهو يغالب التثاؤب.

- كنت أشاهد فيلماً على الفيديو.

- هل تذكر أننا كنا في الماضي نذهب إلى السينما كثيراً؟

- ما فيش حد يمشي السينما حالياً.

وهو يقصد «ما فيش حد» من أصدقائه أو أسرته.

- هذا شيء مؤسف!

- الأشياء تتغير. أنت عايزة تسافري وتجي وتلقي كل شيء على حاله؟

هزت كتفيها في الظلام. هناك دائماً نغمة في كلامه تبدو لها خشنة وقاسية. ولكنها تعرف أنه لا يقصد أن يكون قاسياً معها. ربما لأنها

أصبحت حساسة أكثر مما يجب، هي التي غابت كثيراً عن السودان.

قال بصورة مفاجئة:

- أنا عايز أسافر من هنا. مللت هذا المكان. مللته مللاً شديداً.

- مللت ماذا؟

كان صوتها رقيقاً، كأنها كانت تريد أن تخفف من حنقه وغضبه.

- ما فيش أي تقدم. الأشياء كلها لا تسير إلى الأمام.

وأين تريد أن تذهب؟

- الخليج أو السعودية. أفضّل الخليج.

- اذهب.

ضحك.

- لا تكوني غبية. الناس كلهم يريدون الذهاب إلى هناك وجمع بعض المال. ليست المسألة بهذه السهولة.

جعلته تعليقاتها يشعر بمرح حقيقي. كان يهز رأسه. قال لها وهو ينظر في عينيها:

- أنت ليست لديك أية فكرة! ماسحة خالص!

بدأت هي أيضاً في الضحك، ونظرت إلى السماء وهي تقول:

- أنا ماسحة خالص!

جاءت داليا وانحنت عليها وهي تقول:

- أنا عايزة أمشي الحمّام.

كان الحمّام حاراً وخانقاً، لا تغشاه نسمة من الهواء. رأت سمر وجهها في المرأة على ضوء الشمعة. كم يمر عليها من الوقت حتى

يكون منظرها كما ينبغي له أن يكون: أرملة عجفاء، وامرأة متلاشية تقبع في خلفية الصورة؟

- انتهيت.

قالت داليا.

كان على سمر أن تدفع مقبض السايفون ثلاث مرات حتى تندفع المياه. اختفى القلق الذي كان على وجه داليا وتحول إلى ابتسامة، ولاحظت سمر أن الخزان لم يمتلئ بالمياه.

قالت لداليا:

- غالباً عندما تنقطع الكهرباء تتوقف الطلمبة التي تدفع الماء إلى فوق عن العمل. دعينا نجرب المواسير.

فتحت داليا الحنفية. سالت قطرات قليلة يصاحبها صوت مزعج، وتوقف كل شيء. قالت سمر:

- لديهم دلو.

كان هناك فعلاً جردل مليء بالماء في حوض الحمام، وإبريق معدني. غسلت داليا يديها في الحوض. كانت الصابونة البيضاء أكبر من يديها الصغيرتين. ثم رجعتا وهما تتحسسان طريقهما على الضوء الخافت للشمعة التي كانت تحملها سمر. استقبلتهما برودة البلكونة. كان وليد قد أحضر في غيابهما زجاجات البيبسي كولا، وأكواباً وضع داخلها قطع الثلج، وصحوناً ملأها بالفول والبلح. فرح أمير وداليا بالمشروبات الباردة وأسكتتهما حبات الفول والتمر. هزت سمر الثلج في كبايتها. كان الثلج واحداً من الأشياء التي افتقدتها في أبردين. مكعبات الثلج في أواني المشروبات والشعور ببرودة المشروب في

الجو الحار.

سألها وليد وهو يضع يديه خلف ظهره:

- إيه رايك بقى في بلادنا المظلمة؟

كان يقصد انقطاع التيار الكهربائي.

- جميلة.

ضحك. كانت ضحكته عالية ومعدية.

- أصبحت في النهاية مجنونة كمان!

ابتسمت وقالت له في هدوء:

- أقسم بالله العظيم، أراها أجمل من أي مكان آخر!

شعرت بأن قلبها انتفض لذكر الله، ولأنها قالت الحقيقة في الوقت نفسه.

- أعطيك مهلة أسبوعين إضافيين. ستأخذين أمير وتعودين.

هزت كتفيها وقالت:

- ليس لدي وظيفة أعود إليها. أنا جئت اليوم إلى هنا لأكتب رسالة الاستقالة وأرسلها إليهم.

قال وهو يكاد يصرخ:

- ولماذا تفعلين ذلك؟

وجلس على حافة الكرسي وكف تماماً على الضحك.

- عليك ألا تفعلي ذلك مطلقاً. هل تظنين أن الوظائف موجودة على قارعة الطريق لكل من يرغب في الحصول عليها؟ هل تعتقدين أنك يمكن أن تجدي وظيفة هنا؟

- سأحاول. وإن شاء الله أجد وظيفة ما.

نفضت بعض قشور الفول التي سقطت على حضنها وتمنت لو أنها لم تبلغه ما تود أن تفعله. لو كانت زوجته بالمنزل لكان أكثر هدوءاً واستسلاماً، ولما كان بهذه الحيوية والنشاط. أما الآن فقد استرسل في الحديث من دون توقف.

- أي نوع من العمل تعتقدين أنك ستعثرين عليه؟

- ربما أعمل بمحو الأمية.

- الأجر سيكون لا شيء، لا شيء يمكن أن تعيشي عليه. وستندمين على كل ذلك، فضلاً عن أنك لم تعملي بالتدريس من قبل.

- هم يحتاجون إلى الناس ولذلك لن يعترضوا.

نعم لن يعترضوا، ولكن لماذا؟ لماذا وأنت لديك وظيفة جيدة في أبردين؟ لماذا تضيّعين الفرص؟ لماذا؟

- كان من المفترض أن أكون هناك منذ الأسبوع الماضي. ربما يتساءلون الآن عما يمكن أن يكون قد حدث لي.

هذا ليس سبباً لتقديم استقالة.

نظرت إلى كوبها. راقبت قطعة الثلج التي بدأت في الذوبان، ولون البيبسي الداكن، ومسحته الذهبية، قالت:

- الحياة هناك لم تكن مثلاً في النجاح.

- كيف يمكن ألا تكون ناجحة؟ أنت كنت محظوظة. وظيفة ممتازة، بلاد متحضرة. لا انقطاع في الكهرباء، لا إضرابات، لا

وجع دماغ. . . ماذا أصابك يا سمر؟

- لا أعرف.

- هل هذا كل ما هناك؟

- هذا كل ما هناك.

كان هناك شعور الذنب في صوتها: نوع من العناد. كانت واعية بما ينطوي عليه الموقف من مفارقة. هي تملك الخيار للحياة بالخارج، ولا تريد ذلك، وهو يريد أن يذهب إلى الخارج ولا يستطيع!

قالت في محاولة منها للشرح:

- لا يمكن أن تكون الغربة شيئاً لطيفاً.

- لو أخذت معك أمير، فلن تشعري بالوحدة، وسيكون ذلك في مصلحته. أنت لا تعرفين كيف أصبحت المدارس هنا!

- لن أستطيع تربيته وحدي.

تمنت لو أنها تستطيع أن تشرح له كيف سيكون المكان موحشاً وهي وحدها مع أمير في أبردين. ليالي الشتاء الطويلة، الغرفة الصغيرة التي سيقيمان فيها، وحدهما، الاثنين، وجهاً لوجه، مع الكلوستروفوبيا.

- هذا كلام فارغ. أنت الآن تربين أمير مع أطفال حنان. ألم تتخلص عمتي محاسن من الخادمة بمجرد وصولك؟

ضحكت سمر لهذا التحول الفجائي في المحادثة. وابتسم وليد من دون حماسة.

قالت:

- لم يُطرد أحد. المرأة خرجت من تلقاء نفسها بعد أسبوع من وصولي. ولم تجد عمتي محاسن بديلاً لها.

- بالله! عمتي محاسن وحنان معاً لم تجدا أي شخص؟

- بالمناسبة، أنا لا أمانع مطلقاً. لا أمانع حقيقة.

كانت تودُّ إخباره أنها تريد حقاً أن تتلهّى بأي شيء عما يختلج داخل نفسها. كان العمل المنزلي وأطفال حنان يشغلونها، ويتعبونها حتى النهاية كيلا تجد الوقت لتختلي بنفسها، وحتى لا تستفرد بها أحلام الليل.

- كيف تتعامل معك؟

صار صوته حذراً الآن. لم يكن سؤاله أكثر من استطلاع. لو كانت زوجته موجودة لما كان قد سأل.

- كويس.

- تعرفين أنها طردت «عم أحمد» من المنزل.

هزت سمر رأسها وعضت شفتها. كان الخطأ خطأها هي، ولم يكن هو يستحق ذلك. تساءلت كم عدد الناس الذين يعرفون القصة الحقيقية؟ لم تكن أقل من فضيحة. الرجل المتدين الورع، المتزوج من اثنتين، لا يتورع مع ذلك عن التطلع إلى أرملة شابة. لم يمض عام واحد على وفاة زوجها. والفتاة الحمقاء لا ترده إلى صوابه مباشرة. بل تعده بالتفكير في الأمر. فتاة متعلمة مثلها!

- ما الذي حدث؟

سألت من دون حماسة وكأنها لا تريد أن تعرف.

تململ وليد في كرسيه وقال:

- جاء الرجل زائراً. كنت أنا هناك. كانت فترة العيد بعد سفرك بقليل. كنا جميعاً جالسين عندما التفتت إليه محاسن وصرخت فيه:

- لا تدخل بيتي أبداً بعد اليوم... زوجة طارق لن تكون زوجتك.

ولم تسكت بعذ ذلك.

- يا إلهي!

- نعم. كانت مسألة سخيفة. وقد ذهبنا واعتذرنا إليه، أنا وحنان. كان مقيماً مع أخيه في الصافية.

- حنان لم تخبرني مطلقاً بهذه الحادثة.

- ما فيش داعي. المسألة كلها انتهت. لا أعتقد أنه يأتي كثيراً إلى الخرطوم حالياً. لم تعد التجارة كما كانت من قبل. وأنا لم أقابله بعد ذلك. كان مهذباً جداً معنا عندما ذهبنا للاعتذار إليه، ولكن الأشياء لا يمكن أن تعود كما كانت بالطبع.

- كان إنساناً طيباً.

كان صديق عمر بالنسبة إلى العائلة. عندما كانت صغيرة، كان يرفعها لتقف على قمة سيارته، وكان يعطيها قطع الحلوى. لم تكن تخافه مطلقاً.

- ما عمله كان مبالغة.

كانت نغمة وليد تنطوي على شيء من الاحتجاج. وعندما لم تقل

شيئاً استمر في الكلام:

- ما يهمني هو كيف تعاملك عمتي محاسن؟ هل أنت مرتاحة في العيش معها؟ وخاصة إذا كنت مصرة على عدم الرجوع إلى أبردين.

- هي لا تتحدث عما حدث في الماضي. أما العيش معها فأنا وأمير عندنا نصيب في البيت، ومن حقنا أن نعيش هناك.

في يوم ما كان المنزل مملوكاً بين محاسن وحنان وطارق. بعد موت طارق زاد نصيب محاسن، أما نصيب حنان فقد بقي كما كان. ذهب جزء منه إلى سمر، ولكن الجزء الأكبر كان من نصيب أمير. ومع أن نصيب أمير كان الأكبر بالقياس إلى الآخرين، إلا أنه أقل من نصف البيت. ولا يملك أي منهم المال الكافي ليشتري أنصبة الآخرين. وإذا باعوا المنزل واقتسموا المال، فإن نصيب أي منهم لن يكون كافياً لتوفير منزل آخر في مكان محترم.

قال وليد:

- ليس من المألوف أن تعيش الأرملة مع أهل زوجها. كأنما ترسلين إشارة إلى الجميع بأنك لا ترغبين في الزواج مرة أخرى.

- هذا لا يهم، فأنا لا تعنيني الإشارات التي يتلقاها الناس.

بدا عليه الحزن فجأة، وعندما تحدث كان صوته أكثر رقة، يشبه صوت أخيها الصغير الذي اعتادت سماعه قبل سنوات خلت.

- أنا آسف يا سمر. آسف لأنني أنا الوحيد من الأسرة الذي بقي لك، ومع ذلك لا أستطيع أن آخذك وأمير للعيش معي.

كانت مجرد فكرة بأن تعيش هي وأمير مع وليد وزوجته في شقتهما الجديدة، فكرة سخيفة كادت تنفجر منها ضاحكة. ولكنها

سيطرت على نفسها. وفي اللحظات الصامتة لاحظت تغير المزاج الذي اعترى وليد. كلماته: «أنا الوحيد من الأسرة الذي بقي لك،» والذكرى الأليمة لوالديهما اللذين توفيا منذ زمن، وما يمكن أن يفعلاه من أجلهما.

قالت تحاول إغاظته والمزاح معه:

- كنت جالسة هنا أفكر في أنك تريد التخلص مني وإرسالي إلى أبردين. وبدلاً من ذلك يتضح أنك تريدني وأمير هنا بالقرب منك، حتى تستشيط زوجتك غضباً وتذهب إلى بيت أبيها.

قال وقد عاد إليه قلقه الطبيعي:

- لازم ترجعي إلى وظيفتك في أبردين...

مسّدت شعره بأصابعها واحتضنته. أزّت لمبة النيون فوقهما واحمرّت ثم أضاءت من جديد. أضاءت كذلك مصابيح الشارع. صرخ الأطفال: «هاي»! وعادوا إلى الداخل وإلى حجرة الجلوس المضاءة.

كان الحاسوب موضوعاً على طربيزة الطعام، مغطّىً بأكياس البلاستيك. أما الطابعة، المغطاة أيضاً، فقد كانت موضوعة على الدولاب الجانبي. أرجعت سمر الكرسي المقابل لشاشة الحاسوب وجلست. جلبت عودة التيار الكهربائي الضوضاء معها: التلفزيون العالي الصوت، أزيز المكيف، ومن الحمام كان بوسعها أن تسمع خزان الماء وهو يمتلئ.

كان وليد يشرح للأطفال أن ليس لديه أية أفلام كرتون. سألت:

- كيف أستطيع تشغيل هذا الجهاز؟

- أعتقد أننا اتفقنا على أنك لن تستقيلي.

قال ذلك بقلق حقيقي.

- لا، لم نتفق.

- أنت عنيدة. لم تسمعي كلامي مطلقاً، أليس كذلك؟

هزت رأسها بالنفي، وهز هو كتفيه وبدأ يكشف كمبيوتره النفيس. أزاح أولاً الأغطية البلاستيكية التي تحميه من الغبار. كل شيء غال في الخرطوم، حتى الحبر والورق، لأن الأشياء كلها مستورَدة ولا يمكن تعويضها عندما تضيع أو تصاب بالتلف.

لم تكن كتابة الرسالة بهذه الصعوبة، فهي قد كتبتها بالفعل عندما كانت بالمنزل وتحتاج إلى تنضيدها وطباعتها. كانت تحتاج إلى نسختين. الرسالة نفسها ولكن يجب أن ترسل نسخة إلى شؤون الموظفين والأخرى إلى رئيس الشعبة. هذا هو الأسلوب الصحيح للاستقالة. وقد أوردت «الالتزامات العائلية» باعتبارها السبب الذي يمنعها من مغادرة الخرطوم والعودة إلى أبردين.

كان وليد يحوم حولها أثناء الكتابة. قال لها إنه سيطبع لها النسخ وهو يزيحها من الطريق.

انسلت النسختان من الطابعة بسلاسة وهدوء، الواحدة إثر الأخرى.

- آيلز؟... بروفيسور ر. آيلز؟... اسم غريب.

- نعم هو رئيس الشعبة.

عدة شهور وأسابيع وهي لم تتفوه باسمه، ولا مرة واحدة. ولم تسمعه، ولو مرة واحة، ولا حتى همساً، بينها وبين نفسها؟ قالت

لوليد بصوت واضح.

- خمّن الآن إلى أي اسم ترمز الراء؟

- ريتشارد؟

- لا. . .

- رونالد ريغان؟

- لا تكن سخيفاً.

- أعلن استسلامي. وبالمناسبة لست متشوقاً إلى أن أحزر.

قال ذلك وهو ينفض الشاشة بقماشة كانت في يده، أخرجها من كيس بلاستيكي.

- راي.

لم تنطق الاسم على الوجه الصحيح. ومسحت يدها على الفستان.

- راي؟ هل تقصدين أنه راي؟

- نعم راي بالعربية. وكانت له بالفعل آراء كثيرة جداً.

قالت ذلك وهي باسمة، رانيةً ببصرها إلى البعيد.

١٨

أرسلت الرسالتين وأقنعت نفسها بأنها لا تنتظر ولا تتوقع شيئاً غير الإفادة بقبول الاستقالة، رداً رسمياً على رسالتها التي تبدأ: «عزيزي البروفيسور آيلز. . .» رداً يمكن لإحدى السكرتيرات أن تكتبه نيابة عنه، وتضع نسخة في الملف المعنون: إدارة.

لا يوجد في الخرطوم سعاة البريد الذين يجوبون الطرقات ويسلمون الرسائل في البيوت. استأجرت عمتها صندوق بريد وكانت تحتفظ بمفتاح للصندوق الذي يشبه الدُرج. داخل هذا الدُرج يوجد دائماً بريد العائلة، مغطى بغلالة من الغبار. فتحت سمر الصندوق ولم تجد شيئاً بالداخل.

أثناء وجودها في مصر وهي تترجم المقابلات في القاهرة والإسكندرية والصعيد، كانت تنتظر رسالة منه، كلمة ما. كان يعرف مكانها، كان يعرف كيف يمكن أن يتصل بها. كانت في حاجة إلى العبارة منه يقول فيها:

- لم أقصد ما قلت حينما طلبت منك أن تبتعدي عني. لم أقصده يا سمر.

كان ذلك ما تتمناه في تلك الأيام المشحونة. الفنادق المختلفة، كل من تعمل معهم يستمتعون بالمكان، يعبّرون عن إعجابهم بمصر، يخرجون لرؤية الأماكن السياحية كلها. أما هي فكانت مريضة في الداخل، ليست واثقة من شيء واحد سوى أنها يجب أن تعمل، وأن تعمل باستمرار، وأن تحافظ على تبلد حواسها وألا تستسلم للبكاء. ظلت لثلاثة أسابيع تمنّي نفسها بأنه سيتصل غداً. هو يعرف كيف يتصل، يعرف مكاني وغداً سيتصل. كانت تتناول وجباتها، وتبقى في الفندق ذاته مع الناس ذواتهم الذين ينتمون إلى العالم الذي ينتمي إليه، والذين يعملون في المجال نفسه الذي يعمل فيه؛ مع منافسيه الذين يكتبون إلى المجلات نفسها التي يكتب إليها، ويذهبون إلى المؤتمرات إياها التي يذهب إليها. ولكنهم كانوا يختلفون عنه في نظرها، قسماتهم ليست بوضوح قسماته، ولكنهم أكثر انشراحاً بالمقارنة إليه. كان يمكن أن يكون هنا، واحداً منهم، جزءاً من هذا البرنامج.

قال لها في الونتر غاردنز:

- أخذوا شخصاً آخر؛ شخصاً له من الآراء ما يمكنهم ابتلاعه.

لم تفهم حينها ما هي الآراء التي تكون أكثر قابلية للابتلاع .

كانت تقول لنفسها في الإسكندرية، وفي سوهاج بالصعيد، بأنه سيتصل بي، ولن يتركني هكذا. كانت مخطئة في ما حدثت به نفسها. كانت تدغدغها الآمال، وكانت تعمل بتركيز، تترجم الكلمات العربية إلى الإنكليزية، والإنكليزية إلى العربية، وتسهر حتى وقت متأخر من الليل. تطبع كل المقابلات. كانت تبدو مرهقة مثل الشباب

الذين توجَّه إليهم الأسئلة كل يوم. كانوا نحيفين ومحبَطين، أصابعهم تقبض على السجائر بعصبية، مزايدات وأضغاث أحلام. كانت تطرح عليهم أسئلة وضعها الآخرون، وتترجم إجاباتهم إلى اللغة الإنكليزية.

- كنت أعمل صبياً في صالون حلاقة، وأقوم بالأشياء العادية: أكنس أكوام الشعر من الأرض، أغسل المناشف...

- كان أخي سجيناً وعندما خرج...

- كان أبي يعمل في بغداد، وفقد وظيفته عندما نشبت الحرب...

- نحن عشرة، نعيش في غرفة واحدة.

عندما يتحدثون كانوا يتوجهون إليها بالخطاب. واحد منهم فقط هو الذي نظر إليها مباشرة متطلعاً إلى وجهها، محاولاً إرباكها، كان مختلفاً عن الآخرين:

- كنت في أميركا، ماسشوسيتس. كنت هناك ولذلك أعرف ما أقول. الرجال الغربيون يعبدون المال والنساء. بعضهم يرى العالم من خلال ورقة الدولار، وبعضهم يراه من خلال فخذي امرأة.

كان يتحدث هكذا، ولكنها حافظت على شلل حواسها وتبلُّدها. لم تكن تشعر بشيء أبداً، كانت تصمت بينما لا يكف الآخرون حول مائدة العشاء عن الحديث في الموضوع نفسه. ابتسمت بغباء عندما قيل لها:

- أنا آسف لتعرُّضك لهذه التجربة؛ تجربة غير مستحَبة.

بقيت على تبلُّد حواسها، وظلت هكذا حتى وصلت إلى

الخرطوم، ودخلت بيت عمتها ورأت صورة طارق معلَّقة على الحائط.

فتحت صندوق البريد ووجدت رداً من شؤون الموظفين. قالوا إنها مدينة للجامعة بماهية شهر لأنها لم تقضِ فترة الإنذار.

فتحت صندوق البريد ولم تجد شيئاً، لم تجد حتى الرد الرسمي الذي كانت تتوقعه منه.

فتحت صندوق البريد ووجدت رسالة من ياسمين. أنجبت بنتاً، وهي في إجازة الوضع، ولم تعد تذهب إلى العمل. لم يرد ذكر لراي في رسالتها، ما عدا فرحتها بمولودتها الجديدة:

- وأنت تفعلين الشيء الصحيح يا سمر، إذ تبقين مع أسرتك، ولا تفكرين في العودة. نحن أيضاً نرغب في مغادرة بريطانيا.

فتحت صندوق البريد ولم تجد شيئاً. كانت تعرف أنها لن تجد شيئاً. أرجعت المفتاح إلى حنان، وقالت لها:

- لا أتوقع رسائل في المستقبل.

وحتى إذا كتب فما عادت ترغب في أن يعتذر عما قاله حين طردها من منزله.

ما هي فائدة ذلك الآن؟ لن يكون لهما مستقبل مشترك. لن يكون ذلك كافياً.

إن مستقبلها هنا حيث تنتمي. إنها تنتمي إلى ابنها وإلى الغرباء الذين يبتسمون حينما تدخل غرفة ما. يجب ألا تخدع نفسها. سوف ستنساه مع مرور الزمن. الشمس والغبار كفيلان بمسح وجرف عواطفها نحوه. عليها أن تتخلص من قنينة العطر التي أهداها إياها.

عليها أن تنتزع كلماته من رأسها كما تنتزع العشب البحري، وأن تقذف بها بعيداً، بعيداً.

هنا، حياتها هنا، في هذا المكان!

عليها أن تبدأ المهنة الجديدة، وأن تتعود على التدريس، وأن تربط الوجوه بالأسماء. تحضر أمير وداليا من المدرسة. العمل المنزلي. الحياة الاجتماعية في المساء، وعودة الناس جميعاً إلى منازلهم قبل حظر التجول في الحادية عشرة. الزوار، وزيارات العزاء عندما يحين الموت، والتهاني بقدوم المولود الجديد. استقبال من يعود من الخارج، ووداع من يغادر البلاد. وأولئك الذين يلزمون الفراش، ويتحدثون في أصوات خافتة. وروائح غرف المرضى.

هنا، حياتها هنا!

الحياة هي العواصف الرملية البنية اللون مع لمسة الوردي الخفيفة المنعكسة من السماء، الحركة المحمومة لإغلاق الأبواب والشبابيك، وصفير الرياح بين الأشجار والأغصان. العاصفة المجنونة الهوجاء، تجيء بعدها الرمال، طبقات كثيفة من الغبار تغطي كل شيء، أكوام من الرمل الناعم على البلاط، تنتظر الكَنس والتنظيف. الستائر، المساند، المخدات. مطاردة الغبار بذراته الصغيرة المتشبثة بكل سطح ثابت أو إناء مستقر. ذرات الغبار في طيات جميع الأشياء، داخل مسام الجلد، بين صفحات كرّاسات التلاميذ. الحياة هي المطر الذي ينهمر عند الفجر تتخلله البروق، والقطرات العريضة فوق الغبار والهزيمة التي تلحق بالشمس ليوم واحد فقط. يوم واحد، شيء من اللطف والنعومة، صورة من الماضي، الميدان الخالي مغطىً

باللجين، مفروش بلون القمر، وهناك من تتحدث معه. . .

«تذكّري يا حنان يوم ذهبنا أنا وأنت في زينا المدرسي لإحضار اللبن من الدكان؟ لم تكن هناك دراسة يومها بسبب المطر. ذهبنا إلى المدرسة في الصباح ووجدناها مغلقة ورجعنا. ولكننا لم نخلع زينا كل اليوم.»

«تذكري يا سمر كيف كان طارق يركب دراجته، خائضاً في البرك عمداً حتى شارع المطار، لا يترك بركة واحدة إلا خاض فيها؟»

«تذكري يا حنان، يوم ذهبنا إلى سينما النيل الأزرق، ونزل المطر على رؤوسنا بينما استمر طارق جالساً شاخصاً ببصره إلى الشاشة؟»

«هل تذكرين اليوم؟ هل تذكرين الوقت؟ هل تذكرين طارق؟»

كان حسن يشبهه. يشبه خاله الذي لم يره. فقط حسن هو الذي يشبهه وليس حسين، فهما ليسا متماثلين. وحتى أمير لم يكن يشبه أباه بدرجة حسن. أليس هذا غريباً؟ قالت ذلك لحنان وهما تطويان الغسيل معاً. يا له من غسيل كثير! تلال من الملابس النظيفة لفرزها ووضعها في حزم أنيقة.

أسبوع إثر أسبوع: تربت على شعر حسن، تروي الحديقة، تزيل الحَب من شرائح البطيخ. تراقب طفل حنان وهو ينمو. اليوم الأول الذي أكل فيه البقول، اليوم الأول الذي ذاق فيه المانغو، ولون حفاضاته بعد تلك التجربة الأولى. رنين جرس الباب، والجري من الداخل ونزول درجات الحوض، لفتح البوابة الحديدية السوداء. الميراندا للضيوف، مكعبات الثلج، وعلبة الحلوى التي تدور على الجميع. «ماء» يقول البعض:

- ناوليني فقد كوباً من الماء يا سمر ولا شيء غير ذلك.

أحبت أمير من جديد. كانت تحمله في كل أرجاء المنزل، كما كانت حنان تحمل طفلها. كانا يلعبان. يتظاهران بأن أمير ما يزال طفلاً وأنها يجب أن تحمله. هذه هي اللعبة الوحيدة التي يصبح فيها عذباً ومتعلقاً بها. كان في كل الأوقات الأخرى متباعداً، مستقلاً. لم تحسَّ به خائفاً. لم يكن يذكر أباه أو يفتقده. كان يعيش قانعاً من دون أمه. ثمة شيء حول ابنها لا يفجر مكنونات الحب: ثمة قوة خصوصية داخلية لا تعرف عنها شيئاً، أغلقتها دونها سنواتُ الغربة وروح الشعور الذنب. هذه اللعبة وحدها، لعبة الأم والطفل، هي التي تقربهما. أن تحمله وتطوف به المنزل غير عابئة بثقله. هل تعرف يا بيبي، أنك وُلدت في بلد بارد، وأنك كنت تلبس الصوف الأبيض؟ بيبي، هل تريد أن تذهب إلى الحديقة؟ انظر، هذه شجرة، هذه هي النجيلة. ماذا هناك؟ يقول ذلك في صوت الطفل الصغير الذي صاره، وهو يشير إلى أعلى. تلك طائرة. إنها تأخذ الناس بعيداً، بعيداً من هنا.

الوظيفة الجديدة. ناس مختلفون، وفصول تُعقد في عدة أماكن. بعض فصول محو الأمية تكون في المساء، في الجامعة. أشجار النخيل الملوكي وحرم جامعي باهت، حيطانه تميل إلى السقوط، وطلاب لا يشبهون، في أناقة ملبسهم أو كمال صحتهم، أولئك الذي اعتادت رؤيتهم في أبردين. لم يختلف الفصل الذي تدرّسه عن بقية الفصول. يأخذ الطلاب فسحة لصلاة المغرب. يغادرون غرفة الدراسة بينما تواصل مروحة السقف دورانها مبعثرة الأوراق التي على الأدراج. يخرجون إلى صهد الخارج. لم تكن تعرف من كان يبسط

بروش السعف على النجيل. فهي تكون مبسوطة دائماً عندما تخرج من الفصل. بروش ذات لون بيجي، خشنة نوعاً ما على الجبهة والراحتين. عندما وقفت، تلامست كتفاها مع كتفي المرأتين اللتين كانتا تقفان على الجانبين. صفوف مستقيمة، ثم الركوع معاً، ولكن ليس في اللحظة ذاتها، ليس برشاقة خاصة، ليس بانسجام تام، ولكن بموجات متدافعة، مع حفيف الثياب حتى لحظة التصاق الجباه بالسعف. تحت قبة السماء، على النجيل. الصلاة هنا تختلف عن الصلاة داخل البيوت. جذوة مختلفة. تذكر كيف كانت تختبئ في أبردين، عندما كانت وحيدة. تذكر كيف كانت تريد منه أن يصلي كما كانت تصلي. جعلتها الذكرى تدعو: «اللهم باعد بيني وبين الهم والحزن.»

شغلت نفسها حتى لا تعود بها الذكريات إلى ماضٍ تُجهد نفسها على أن تنساه. كانت ترهق نفسها حتى لا تترك مجالاً للأحلام تسرقها من نفسها أثناء الليل. تدريب التوأمين على النظافة الشخصية، مشاهدة أفلام الفيديو مع الجميع، الأفلام البوليسية الأميركية، المسلسلات المصرية الصاخبة، مرافقة عمتها إلى الطبيب، والاستماع إليها في طريق العودة.

- كان يمكن أن يكون ابني طبيباً مشهوراً مثله.

تستمع إلى نهلة لعدة ساعات من دون انقطاع. كانت غاضبة لأن زفافها تأخر إلى أجل غير مسمى لمشاكل لا تنتهي إلا لتبدأ من جديد، مرة بسبب عمل خطيبها، ومرة بسبب عطالته، وبحثه المحموم عن عمل في الخارج، كونهما لا يملكان مكاناً يعيشان فيه، ووالده الذي يملك كل شيء ولكنه لا يملك المروءة التي تجعله

يجود على ابنه بشيء من ذلك.

نادراً ما تكون وحيدة. لا يحدث مطلقاً أن تكون وحدها. كانت عمتها تتقلب أثناء الليل، وتجلس على السرير، وتصب لنفسها كوباً من الماء من الحافظة التي تحتفظ بها تحت السرير. أمير يهمهم في نومه، يركل الأغطية، ويحلم أحلام الأطفال. تنزل داليا أول الصباح، حاملة الشرائط والمشط، وأنبوبة من كريم ويلافورم

- صففي شعري بسرعة. سأتأخر على المدرسة.

جعل كريم ويلافورم شعر داليا لامعاً والتصق بأصابع سمر. سرّحت سمر أصابعها في شعرها وغطته قبل نزول والد داليا ليصبّح على حماته قبل ذهابه إلى العمل. كان يعمل في مصنع الثلج الخاص بأسرته. وكان يقول الكلام نفسه كل صباح:

- هل تحتاجين إلى أي شيء؟

وكانت عمتها تجيب الجواب نفسه:

- سلامتك ليس غير.

تقول ذلك مع أنها في كل الأوقات الأخرى تطلب منه أن يفعل هذا وذاك، وأن يحضر هذا أو ذاك. كانت ترسل رسائلها من خلال حنان. بعض الأحيان، عندما يكون لديه بعض الوقت، كان يشرب القهوة مع عمتها. سمر كانت تحرك السكر، وتقدم البسكويت. ولكنه في أغلب الأوقات كان في عجلة من أمره في الصباح. كان يمسك داليا من يدها، وهي حلوة في زيها المدرسي وضفائرها، ثم يحيي حماته ويقول لها:

- هل تريدين شيئاً يا عمتي؟

ما هذه الحياة؟ حرمان ورفاه، جنباً إلى جنب، كالمعجزة الماثلة أمام العيون. استسلمي لهما معاً. الفقر والشمس المشرقة، الفقر والجواهر التي في السماء. الجفاف والنيل الدفاق العذب. المرض والقلوب النقية. قصص يحكيها الجيران، علاقات بين الناس جميعاً. شاب عمره عشرون سنة، مصاب بشلل الأطفال. انظري إليه الآن، سمين وغير أنيق، يتكّز على عصا.

على طاولة العمليات، قبل غيابي عن الوعي بفعل التخدير، رأيت الذباب يطن فوق رأسي. هذا غير موجود، وذاك غير موجود. الماء غير موجود. في هذه البلاد التي يفيض فيها النيل، لا توجد المياه. لا مياه للاستحمام، لشفط دورة المياه، للطبخ، للشراب. عليك أن تقود سيارتك عبر الشوارع لتتمكن من ملء الجركانات من ماسورة الحديقة لواحد من معارفك. صب جرادل الماء على دورة المياه، وحمل المياه إلى الحمام.

تبلغ الروح الحلقوم عند انقطاع المياه. الضِّيق في حال انقطاع المياه أكثر حدة مما يحدث إبان قطع الكهرباء. عندما تعود المياه، كانت تبقبق وتصطفق في حلق الحنفية، وتبصقها الحنفية بطميها الداكن المسموم. تتقيأها وكأنها مصابة بالحمى. وبعد قليل تصفو المياه قليلاً قليلاً. ولكنهم لا يستطيعون شربها أو استخدامها للطبخ، من دون تصفيتها. إنه لتحدّ هائل أن نواصل الحياة من يوم إلى يوم، صراع البقاء فوق الأرض بدلاً من تحتها.

مع ذلك هناك النكات. نكات حول القطع، حول القطع المبرمج وحول الحكومة. ضحكات تنطلق من الحديقة في الليالي الساخنة. تبتسم عمتها كما كان يحدث في الماضي. الجنادب والضفادع ذات

الأصوات الأعلى من أصوات الأطفال.

وهناك أمير، بقميصه المدرسي الأبيض، الملطخ بالعرق والغبار، وحذاؤه الوسخ.

«لماذا أضعت قلمك؟»

«لا، غير مسموح لك بشراء الحلوى من الرجل الواقف على الباب. فهي مليئة بالجراثيم.»

كانت تلك هي حياتها. مقاومة الملاريا، ووضع بودرة البنسلين على جراح الأطفال. حظر التجول في الحادية عشرة. كانت تُغرق نفسها، وتحاول أن تفقدها حتى لا يسكنها التردُّد والتذكارات ساعاتِ النهار، ولا تعيش مزيداً من الكوابيس والخيالات أثناء الليل.

١٩

رأته في الحلم. كان يعبر غير عابئ بها، لا ينظر إليها، لا يخصها بكلمة واحدة. هجست به في حلمها مشغولاً بالكلام مع آخرين. وعندما تحاول لفت انتباهه، كان يقطب حاجبيه، وتصلها منه نظرة شَذَر باردة، خالية تماماً من المودة. كانت تصحو من هذه الأحلام بعيون مبتلة بالدمع، مهمهمة وخرقاء. تسقط الآنية من يديها، تضع الأشياء في غير مواضعها. وعندما يسألونها ماذا دهاها، كانت تتحجج بالدورة الشهرية.

لا أخبار عنه، ولا ذكر لاسمه. في خطابات ياسمين كانت الحروف كبيرة مائلة: لم تكن طفلتها الصغيرة تنام كل الليل، كانت تمر بفترة التسنين. صورة للطفلة، ولا ذكر لراي. عندما كانت ترد على رسائل ياسمين كانت تجبر نفسها على عدم السؤل عنه، وعن أخباره، حتى ولو على سبيل الذكر العابر. لم تكن تردد حتى العبارات التي كانت تسمعها في أبردين كل يوم، من ديان، من السكرتيرات المضمّخات برائحة القهوة، من طلاب الدكتوراه الذين كان يشرف عليهم، من الرجل السيراليوني. كانت تريد أن تعرف:

كيف هو؟ كيف صحته؟ هل جاءه طالب جديد من طلاب الدكتوراه؟ نشر الورقة التي كان هو وفريد يعدّانها معاً؟ من يترجم له الآن؟

سؤال واحد لم تستطع أن تذهب، في رسائلها، إلى أبعد منه: «هل وجدوا مترجمة تحلُّ محلي؟»

وضعت السؤال بهذه الصيغة حتى لا تذكر اسمه، حتى لا تسطّره على الورق. ولكن ياسمين كانت في إجازة الوضع. كانت في عالم آخر، مع طفلتها، ولم تكن حريصة على العودة إلى العمل، لم تكن متعلقة بالعمل. كتبت تقول:

- لا، لا أعتقد أن الشعبة بها مترجمة الآن. ولكني لست متأكدة.

شعرت سمر بالحنين يراودها إلى مهنتها القديمة، للعمل نفسه، ترجمة العربية إلى الإنكليزية، محاوِلةً أن تكون شفافة كامرأة مجلوة، لا تخفي ظلال المعاني لأية كلمة. شعرت بالشوق للغرفة المزدحمة، وأزيز الكمبيوتر الذي ارتبط بها. اشتاقت إلى دايان، ورائحة شرائح البطاطا والبصل المقلية، إلى براءتها حين قالت:

- كانت محاضرة راي رائعة اليوم. وقد سأل أحد الرجال عنه.

هذا هو المنفى إذاً! عدم سماع اسمه ولو مرة واحدة. العيش في مكان لا يعرفه فيه أحد. وعندما يهدها الحلم، ويمتص طاقتها، تحتاج إلى شخص تحدثه عنه، من دون أن تجد أحداً، ومن دون أن تقوى على احتمال البُعد عنه. كانت ترغب في أن تقول أي شيء مهما كان تافهاً، وحتى لو كان من دون معنى. كانت تشعر في بعض المرات بالرغبة في الحديث عنه مع نهلة، بل حتى مع حنان. كان يمكن لسؤال من أي منهما أن يكون حافزاً؛ أي سؤال عن حياتها في

اسكتلندا. سؤال تعقبه هنيهة صمت، واحتمالات تغيير الموضوع، ثم تشب كلمات أخرى لتملأ الفراغ. كانت تخشى صوتها وهي تتحدث عنه، الشعور بسخف الموضوع والخجل الذي يصاحبه. كانت تعرف أنهما ستتوقفان عند حقيقة أنه أجنبي، وسيوصد العقل أبوابه بعد ذلك. العيون الواسعة، الدهشة الشاخصة: أجنبي؟ ستتخيلانه كشخصية في فيلم أميركي. أفلام الفيديو التي تشاهدانها، الحارس الشخصي، رجل ليس أكثر من كائن آلي تكسوه بشرة إنسانية. لم تكن تريدهما أن تتخيلاه هكذا. عيونهما المحاطة بهالات الكحل. عيونهما الدافئة، الواسعة. وهي التي تعرف ما يدور داخل مخيِّلتيهما وعقليهما. تعرف أن عليها أن تدافع عنه بشكل ما. ولطالما تمتمت في سرِّها وهي ترد على أسئلتهما التي كانت لا تنتهي:

- لا، هو مختلف. ليس من هذا النوع.

- هل هو من المخلطين؟

- لا. هو فقط مختلف. ليس... نافد الصبر، ليس... بارداً.

- ما أزال لا أصدق. مسيحي؟

- ليس في الحقيقة... لا.

- لكن ماذا تقصدين؟

- هو ليس متديناً. لا يذهب إلى الكنيسة. هو ليس متأكداً...

- ليس متأكداً؟

- هو مؤمن بالله، ولكن عندما سألته هل يؤمن بمحمد، كنبي، قال إنه ليس متأكداً.

- أنت يا سمر، من بين جميع الناس؟ أنت لست مثل البنات

الحديثات اللاتي يتزوجن الأجانب. أنت لست من هذا النوع.

- على كل حال الموضوع لم ينجح. . . فشل.

- ولكن، لماذا سمحت لنفسك بالتورط في الأساس؟

كانت تجد نفسها، بمجرد الشروع في الحديث عنه، مضطرة إلى الإجابة عن كل أنواع الأسئلة، وستشعر بالحرارة الخانقة من جراء الخجل، لأنها تكتم ما لا تستطيع البوح به، كونها تخطت الحدود كلها، وترجته واستجدته كبلهاء: «ردِّد الشهادة، قل الكلمات فقط وسيكون هذا كافياً، نستطيع أن نتزوج بعد ذلك مباشرة.» لم تكن تلك قصة تدعو إلى الفخر. وربما ترددها حنان على مسامع زوجها، من قبيل التسرية عنه بعد يوم عمل شاق. وربما تحكيها نهلة لأمها، كسرٌ من أسرار الجيران. كان عليها ألاّ تبوح بما يجدر بها وحدها أن تعرفه. عليها أن تلزم الصمت، وتشغل نفسها، وتتمادى في التناسي علّها تنسى. كانت تحدث نفسها. تحاول أن تُقنع ذاتها بأنها لا تعرفه. لم تكن قد فهمت بعدُ ماذا كان يعني بمصطلحه الشهير: «مشهد الستينيات.» ولم تفهم لماذا، في ظهيرة ذلك السبت البعيد، تزوج في الكنيسة وارتدى القرباب («الكيلت») الاسكتلندي؟ كيف يمكنها أن تفهم مثل هذه الأشياء، وأن ترتبط بها؟ كانت تلقي على نفسها المواعظ عندما تجيئها مثل هذه الأفكار والهواجس وتصيبها بالوهن.

«عليّ أن أبدأ حياة جديدة، ألا أكون عاطفية، أن أكف عن الشفقة على نفسي. كل الذين حولي محرومون من هذا الشيء أو ذاك. بعض الناس لا يملكون حتى المياه الجارية في منازلهم. كل الأطفال

الذين يموتون، والتضخم الذي يأخذ بتلابيب الجميع. أنا محظوظة لأنني أستطيع أن أوفر الدواء لابني وملابس العيد، والوجبات الجيدة، بل حتى الكماليات، والأشياء التي لا طائل من ورائها، مثل استئجار أفلام الفيديو. عليّ أن أكون ممتنة. إذا كنت خيّرة، إذا كنت قوية الإيمان، لشكرت الله على ما أملك.»

لكنها مع ذلك كانت تحلم به أحلاماً مفعمة بالحيوية. كانت تراه وهو يمر بها، قريباً منها. كانت تتحسسه قربها بحيث تستطيع أن تغيب بين ذراعيه وأن تشم رائحته. لكنه لم يكن ينظر إليها، ويتجنّب الحديث معها. شاهدت نفسها في أحد أحلامها قصيرة كطفلة في غرفة امتلأت بالكبار والدخان. كانت قد جاءت إلى هذه الغرفة بحثاً عنه. كانت تقف قرب طاولة عالية وضخمة، على أطراف أصابعها. تذكر أن الطاولة كانت خضراء، مستطيلة وصلبة. ليس عليها أية آنية ولا طعام ولا شراب. تشابت مادةً يديها، فإذا بالطاولة كأنها صندوق مسطّح له حواف من الصوف الخشن الأخضر. على الجانب الآخر من الطاولة كان راي يتحدث مع رجل لا تعرفه، رجل يضع نظارات على عينيه وله شعر مرسل ينسدل على جبهته. كانت الغرفة مكتظة بعدد من الناس الأكبر منها حجماً وسناً. كان ضِيقهم واحتجاجاتهم تنز في فضاء الغرفة، من خلال الدخان. وكما في أحلامها الأخرى تحرك راي في اتجاهها ولكنه تجنَّبها ولم يلتفت إليها. كان مشغولاً بشيء آخر. لم يكن واعياً بوجودها لأنها كانت أصغر وأقصر قامة من أن يبصرها.

أفاقت من نومها مغرورقة العينين بالدمع. يعكّر حلمها صفو يومها كله. كانت مروحة السقف تدور ببطء وتقطع الطريق على نسمة كانت

تهب من خلال النافذة. الطيور ترسل أصواتها الحادة في الخارج. يا لمقدرة الحلم على تبديد أي إحساس بالفرح، وإذكاء الذاكرة وإيقاظها من سباتها. كانت تدرك أنه ليس سوى حلم لكنه كان يسبب لها الغثيان، ويحيل عينيها الجميلتين إلى بركتي دمع.

سكبت اللبن الحامض في كوب عمتها وكان عليها أن تعد شاياً آخر. أرسلت أمير إلى المدرسة من دون أن ينظف أسنانه، ثم تركت المروحة دائرة في الغرفة الفارغة طوال الصباح. عندما وصلت إلى مكان العمل شعرت بأن الأمر لا يعنيها، لا يعنيها مطلقاً ما إذا كان طلبتها الكبار لا يقرأون ولا يكتبون. كانت نسبة الأمية بين ٦٠٪ و٨٢٪، إلاّ أن الأمر، تحديداً هذا الصباح، لا يعنيها. لا تنتابها أية رغبة في خفض هذه النسبة ولو بمقدار ضئيل.

سألوها في باهتمام:

- ماذا دهاك؟ هل أنت متعبة؟

- يا أختي، ارفعي صوتك قليلاً بالله عليك حتى نسمعك.

كانت الفصول الدراسية الصباحية للنساء: أمهات وجدات، وبدلاً عن القراءة كان الدرس اليوم عن الصحة، وتحديداً عن الرضاعة من الثدي. المقرر المدرسي وضعته لجنة حكومية، وبسبب قلة الكتب، استخدمت الكتب المدرسية للأطفال. الكتب نفسها التي تدرسها داليا وأمير.

«أنا بنت. جئت من القرية. هذا جمل. هذه تمرات.»

كانت القراءة في مثل هذه الكتب نوعاً من الإهانة. كانت تشعر بذلك في أصواتهم، في نوع من الحدة الخفيفة الممزوجة بتلك

الأصوات. كانت تشعر بها عند الرجال الذين يمثلون أغلبية الفصول، أكثر مما تشعر بها عند النساء. كانت النساء يُغرقن المهانة في الضحكات، وكن يقلن:

- أستطيع الآن أن أقرأ كتب أولادي المدرسية.

لهذا السبب كانت المواضيع الصحية والاجتماعية أكثر أهمية. ومن حسن طالعها أنها في هذا اليوم الذي فقدت فيه الحماسة، كان الدرس عن موضوع محبَّب لديها هو ارضاع الأطفال.

قالت لها عمتها:

- تركت المروحة دائرة في غرفة النوم اليوم كلَّه.

لم تستطع أن تتجاهل علامات الاحتقار في نظرات عمتها. نغمة صوتها كانت مرسَلة من زاوية خاصة، تحددها الرغبة في توتيرها واستفزازها. كانت تلك أُولى كلماتها عندما عادت سمر وداليا وأمير من المدرسة. كانت داليا تمص قطعة من الحلوى أهداها إياها صديق، وأمير يجر حقيبته المدرسية خلفه، متظاهراً بأنه لا يغير ولا يحسد. خلعت سمر نظارتها الشمسية، وصبت لنفسها كوباً من الماء من الثلاجة. جلست على واحد من مقاعد الأطفال أمام مكيف الهواء، ووضعت كوب الماء عى طاولة صغيرة أمامها. راقبت قطرات الندى تتجمع على صفحة الكوب لأن الماء كان بارداً.

قالت تخاطب عمتها:

- أنا آسفة.

لم يكن بإمكانها أن تقول إن هذا حدث بسبب الحلم. لم يكن بمقدورها أن تقول إن كل شيء سار في غير اتجاهه بسبب الحلم.

بدأت تحتسي كوب الماء. مياه النيل العذبة والرقراقة بعد العطش. الحمد لله.

ذكّرتها محاسن:

- الكهرباء ليست مجانية.

كانت جالسة على السرير تحاول تنويم طفل حنان الصغير. تربت على ظهره وهو ينام على صفحته في مواجهة الحائط. لم تكن حنان قد عادت بعد من العمل. كانت تعمل ساعات أطول من سمر، وكانت أكثر إنتاجاً منها، وأكثر كفاءة. رفع الطفل رأسه وابتسم لسمر، وابتسمت هي في وجهه أيضاً. ورسمت اسمه بتمتمات من فمها من دون صوت. ربتت محاسن على ظهره بقوة أكبر.

- كفى. عليك أن تنام الآن.

أحست سمر بأن عمتها كانت تريد أن تقول أكثر مما قالته. عبارة «الكهرباء ليست مجانية» كان لها ما بَعدها. ولذلك فضلت الهروب، ذهبت إلى غرفة النوم لتغيير ملابسها. ثم نادت أمير لتُدخله إلى الحمام حتى يكون نظيفاً قبل أن يحين وقت الطعام. كان يتحدث إليها وهي تنشف جسمه وتلبسه ملابسه. ولكنها لم تكن تستمع. كان عقلها خاملاً خلف عينيها الجافتين. ثمة خوف اعتراها بأنها ربما لا تكمل اليوم، بكل طوله وتماديه. كأنه يتحداها. حتى عندما صلّت كانت تشعر بأن تصلباً داخلياً يعزيها، وشعوراً غامضاً يُنبئها بحدوث أمر مشؤوم.

قدمت الوجبة الرئيسة كالعادة، وجاء زوج حنان بالتوأمين، ثم قفل راجعاً إلى الطابق الأعلى. جلس الأطفال حول المائدة في المقاعد

الطويلة. أصوات الأطباق البلاستيكية. همهمات صادرة عنها هي:

- قل باسم الله قبل الأكل. خليك ولد كويس ولا تترك بقية الطعام بصحنك.

في بعض الأحيان يكون الأطفال أكثر حيوية، تعتريهم حالة من الهدوء في مرات أخرى. أما اليوم، وبعد لقيمات قليلة، كان المنزل كأنما غشيته طائفة من الجن والعفاريت، تتقافز على قطع الأثاث وتلسع الأطفال بوخزات حادة على الظهور. تطايرت حبات الأرز في كل اتجاه، وصدرت أصوات حادة، ونشبت معارك. تناثرت حبات الأرز على الأنوف والآذان. قرص أمير داليا، وأخرج لسانه سخرية منها وغيظاً لها. لم تتركه داليا ينجو بفعلته. عضته بيده ثم بصقت في وجهه حبات من الأرز ممضوغة وممزوجة بلعابها. وقام هو يشد شعرها، ولفَّه حول يده بقوة حتى صرخت صرحت مدوية لم تصدق سمر أنها يمكن أن تصدر عنها. فرقت سمر بينهما. كانت العفاريت ترقص في أرجاء المنزل وتجعل كل شيء غائماً في عيني سمر. تشعر وكأن ملايين الأطفال حولها يُصدرون الأصوات المضطربة، القصف وحركة الصحون البلاستيكية، وهي في خضم الجلبة المجنونة، غارقة ومنوَّمة مغناطيسياً. أيقظت صرخة داليا الطفل. قبض الهواء بيديه، وصار وجهه حزمة ملفوفة من الغضب: أسلوبه الشخصي في الصراخ. التقطته محاسن وبدأت تهزه بين يديها. كان إذا لم ينم أثناء النهار يتكدر مزاجه بقية اليوم.

صرخت فيها عمتها:

- أسكتيهم يا سمر. افعلي شيئاً بدلاً من النظر إليهم هكذا كالبلهاء.

لكن الأطفال كانوا مشاغبين، وكانوا أقوى منها. يدورون حول الغرفة وهم يصرخون ويركلون الأشياء بأرجلهم. كانوا يجرون بسرعة مذهلة. ظهرت أخيراً حنان على الباب كبطلة. صلبة ومحكمة القبضة في المواقف الحرجة. تكسوها المهابة وهي ترتدي ملابس أطباء الأسنان. ضربت داليا، وأخذت طفلها الباكي في يديها ودفعت توأميها إلى الطابق الأعلى. تركت داليا مع سمر وهي تتنهد وتتشبث بها. هبط على الغرفة سكون رتيب. كأنما لم يحدث شيء قبل قليل. نظم أمير لعبه من العربات على الأرض، تكلم إليها وسحبها باهتمام شديد من البساط إلى البلاط.

قالت لها عمتها:

- حدث كل هذا لأنك عاجزة. بضعة أطفال لا تستطيعين السيطرة عليهم. أنا لا أعرف ما الذي حدث لك. في الماضي كنت قوية، وتحولت الآن إلى مجرد بلهاء.

شعرت بالرغبة في الهروب من عمتها ولكن داليا كانت متعلقة بها، ملتصقة ورخوة. كانت تريد أن تهرب من البقاء في المنزل، كما قالت عمتها، كالبلهاء، مصلوبة إزاءها تتعرّض لإهاناتها ولا تقوى على الردّ. أرادت أن تتذرّع بأي شيء حتى لا تبقى واقفة في مكانها: الشروع في تنظيف الغرفة، وكنس حبات الأرز التي تبعثرت على الطاولة وعلى الأرض.

- ليست لك حتى وظيفة حقيقية، وظيفة ذات مردود. كم تدفعين لمصاريف البيت؟

- ليس كثيراً.

كان صوتها خفيضاً، ومطيعاً. تقدم الإجابات التي تود محاسن أن تسمعها.

- وأنت ترضين أن تلبسي ملابس الغير، لأن الكرامة لم تكن من ضمن صفاتك.

كان ذلك صحيحاً. فقد تحولت لها ملكية دولاب كامل من الملابس كانت تخص حنان. ملابس أصبحت أضيق بعد ولادتها. لم تعد تناسبها مطلقاً. صحيح أيضاً أنها كانت بلا كرامة. فعندما قدمت لها حنان تلك الملابس شعرت بالسعادة. كانت فضفاضة على جسمها، وطويلة. كانت حنان لطيفة. وكانت تقول لها وهي تجرب كل قطعة وتنظر إلى صورتها في المرآة بالحجم الحقيقي وتدور إلى هذه الجهة وإلى الجهة الأخرى:

- كل شيء يبدو جميلاً عليك يا سمر.

وها هي عمتها الآن، تأتي لتحول بادرة حنان اللطيفة إلى شيء قذر، وتريد لها أن تشعر بالمهانة.

- يجب أن ترجعي إلى إنكلترا، وأن تعملي، وتتدخَّري بعض المال.

- لا أريد الرجوع إلى هناك.

- دفنا المرحوم، فبدأت تقولين للناس: «هذا أفضل، فقد تركني مع طفل واحد، وليس ثلاثة أو أربعة، ماذا كنت أفعل مع هؤلاء؟» يا لوقاحة ما تقولين. يوضح كلامك إلى أي مدى أنت وضيعة وبلا أخلاق ولا تحترمين ذكراه. الآن لديك هذا الطفل الواحد ولا تريدين أن تأخذيه إلى إنكلترا مراعاة لمصلحته.

لم تعد تحتمل أن تسمع أكثر. كانت ترغب في غسل الأواني، وشم رائحة الصابون، ورؤية الماء في انسيابه الأملس على الملاعق والصحون. لكن منعتها داليا، بالتصاقها بها، بتنهداتها المتواصلة ورأسها الموضوع على حضنها. لا بد من أن شخصاً ما ردد على مسامع محاسن هذا الكلام. فهي لا تذكر أنها قالت لمحاسن إنها سعيدة لأن لديها طفلاً واحداً. ويمكن لهذا كله أن يقود من جديد إلى الخصام حول «عم أحمد،» وعودة ذكريات الماضي التي فرحت لأنها انقضت لتعكّر صفو حياتها من جديد.

واصلت عمتها الحديث. يتناغم صوتها وأزيز المكيف:

- أنا أعرف ما حدث. أعرف لماذا عدت من هناك. فقد فصلوك من العمل، أليس كذلك؟ لأنك لم تؤدِّ عملك على الوجه المطلوب. إياك أن تفكري أنني صدقت قصتك بالذهاب إلى بيت وليد وإرسال خطاب استقالة، أو الكلام الفارغ الذي ترددينه حول شوقك إلى وطنك. أنا أعرف أن الأجانب لا يحتملون الكلام الفارغ. أعرف ذلك. ولا يمكن أن تكون بلدانهم بهذا التقدم إذا كانوا يحتملون ذلك.

لاحظتها سمر تومئ إلى جهاز التلفزيون، إلى شاشته المظلمة، بإشارة غامضة كبرهان على ما تقول. كان مصدرها الوحيد للمعلومات حول العالم. وواصلت:

- أنت فقط لم تكوني نافعة، ولذلك طلبوا منك أن تغادري.

- لا.

قالت ذلك وهي تنظر إلى رأس داليا الراقد في حضنها، إلى

شعرها الذي بدأ ينفلت من الضفائر.

- أنت كذابة.

- لستُ كذابة.

وصفقت شعر داليا بيدها. يداها باردتان وخرقاوان.

- أنت كذابة وأنت قتلت ابني.

هزت رأسها. لم تكن واثقة مما إذا كانت عمتها تعني فعلاً ما تقول أم أنه عقلها المشوش تخيل كل ذلك واصطنعه اصطناعاً، أم كان عبارة من مسلسل مصري رأت عمتها أن من المناسب تكراره؟

- أنت قتلت ابني.

قالت محاسن هذه الكلمات بصوت عال. وبدا على وجهها نوع من الظفر، كأنها قد استطاعت في النهاية أن تُخرج من أعماق أعماقها ما كانت تنوي البوح به على الدوام.

أحست سمر لحظتها بغضب العالم كلّه يسكن قلبها. أرادت أن تواجه عمتها، أن تدافع عن نفسها، أن تبرّئ ساحتها من ثوب الجريمة الذي تحاول عمتها إلباسها إياه. غير أنها لم تستطع. هل هو الخوف، أم عدم الرغبة في إثارة مشاكل إضافية.

كان منظر سمر يدعو إلى الشفقة، ولكن عمتها كانت في هذه اللحظة أبعدَ ما تكون عن إنسان رحوم:

- ظللتِ تنقّين حتى يشتري تلك السيارة. نققت ليلاً ونهاراً حتى جاء يطلب المال مني أنا.

هزت سمر رأسها، لم تكن تعرف أن المال يعوزه. لم تكن تعرف

أنه طلب المال من والدته.

- لم يخبرني بذلك. لم يخبرني!

قالت ذلك وهي بالكاد تقدر على أن تتنفس بسبب خوفها. خوفها من أن يميل عقلها، مستسلماً لهذا الجنون، راضياً بهذا الاتهام، مشيَّعاً إلى الأبد بهذا الشعور الممض بالخطيئة.

- نقفت فيه لشراء تلك السيارة، وتلك السيارة هي التي قتلته. كتب لي قائلاً: «من فضلك يا أمي، ساعديني، سمر تضايقني، تثير أعصابي. تقول إن الجو بارد هنا، ومن الصعب الذهاب إلى أي مكان، وتريد أن نشتري سيارة.»

ثم أرسلت له النقود.

كتب طارق إلى محاسن يتشكى. سمر تضايقني. هذه عبارة تشبهه تماماً، هذه طريقته في الكلام. سمر تضايقني. قفزت العبارة في وجهها برغم مرور السنين، برغم البرزخ الفاصل بين عالمه وعالمها. عبارة فيها ملامحه. طريقته في التعبير عن الذات. سمر تثير أعصابي. الطريقة التي يتحدث بها مع أمه أحياناً. كأنما هناك مؤامرة ضده، تهدد «رسالته» في الحياة. كان دائماً هكذا... حاولت سمر أن تتذكر الفترة السابقة لشراء السيارة. حاولت أن تتذكر نقَّها. كان هذا قبل أعوام مضت. لم يقل لها إنه لا يملك المال. لم يقل لها إنه كتب إلى محاسن يطلب منها المالاً. كانت تعتقد أنه كان يرغب في شراء السيارة بمقدار رغبتها هي. هو الآن ليس موجوداً هنا لتسأله. ظلت كلمات عمتها معلقة في الهواء. راية خفاقة من رايات النصر، لا يمكن نفيها أو طيها.

- انهضي يا داليا.

حملت رأس الطفلة بعيداً عن حضنها. نهضت داليا ومسحت عينيها. بدأت سمر تأخذ الصحون عن المائدة، وتكنس الأرز عن الأرض. كانت تحسُّ بعمتها تراقب عملها الذي لا يمكن أن يوصف بالكفاءة. كانت خرقاء في حركاتها، بطيئة وخرقاء. شعرت بالبرد. برد يتسلل إلى عظامها، يصيبها بالتصلب، فتصبح غير قادرة على الحركة الخفيفة الرشيقة. كانت تتوق إلى سرير وغطاء. تتوق إلى النوم. كانت تريد أن تنام هنا كما كانت تنام في أبردين. أن يكون كل شيء ملفعاً ورمادياً. كانت تريد أن تنطوي وتلتف على نفسها، أن تغطي وجهها بالبطانية، وأن تدفئ أنفاسها التجويف الذي خلقته لنفسها.

شغّل أمير جهاز الفيديو، وانطلقت أنغام فرحة ملأت الغرفة. جلست داليا على الأرض تشاهد ماري بوبينز تطير في الهواء. استلقت محاسن على السرير، رافعة رأسها بيدها وهي تشاهد التلفزيون. كان هناك تعبير مسالم على وجهها، كأنما أخرجت أثقالها، وشعرت ببعض الرضى بعد انفجارها الكبير.

كانت أصابع سمر مستقرة وهي تغسل الصحون. تندفع المياه خارجة من الحنفية. كانت هناك ألوان في فقاعات الصابون: الوردي والأخضر. نفضت الكبايات ووضعتها مقلوبة حتى تجف... وحولت ثقلها من رِجل إلى رِجل. شيء يمكن الاستناد إليه، وضع يجلب معه بعض الراحة، سند ما. فقط لو كانت واثقة من حبه لها، وأنه في هذه اللحظة يشعر بوجودها وما تعانيه. لكنها لم تكن واثقة، ولم تكن قادرة عى خداع ذاتها. ليس هذا الشعور من أعماقها. في

أعماقها فقط هذه الصلابة الفاقعة. مرت شهور منذ أن رأته لآخر مرة، شهور منذ أن غادرت أبردين. وهو صار بعيداً. نسيها. هو أجنبي وهي... هي ما كانته دائماً وما ستكونه في المستقبل. ولا بد من أنه تعرَّف حتى الآن إلى امرأة أخرى. مر عليه وقت طويل منذ أن عاش مع زوجته، وعلى المرء أن يكون واقعياً في هذه الأشياء. عالمه محكوم بقوانين مختلفة. ربما يكون قد تنفس الصعداء عندما ذهبت. ربما يكون قد تحرَّر من كل الاضطراب والتعقيدات الذي يمكن أن تجلبه علاقته بها. امرأة أخرى غيرها إذاً، سهلة وخفيفة. امرأة بعينين أخف لوناً، بقلب أخف ثقلاً. امرأة لا تعبأ إن كان يؤمن بالله أو لا يؤمن.

عندما فرغت من غسل الصحون، ذهبت سمر إلى غرفة الجلوس ووقفت على بابها. ما زالت داليا مسمَّرة أمام التلفزيون. كانت محاسن جالسة على السرير تمسح يدها بدهان ما وتفرقع أصابعها حتى تطلق مفاصلها. كانت تريد أن تقول لعمتها، إن طارق لم يقتله أحد، وإن موته حدث لأن ساعته كانت قد دنت. كانت تريد تخبرها أن الله يحيي ويميت، وأنها لا تشعر بالذنب لأنها قالت لطارق أن يشتري تلك السيارة. وإن الذنب لم يكن ذنبها. كانت تود أن تصارحها بأن طارق لم يخبرها بأنه لا يملك مالاً، ولو كان باح لها بالحقيقة، لكانت تفهَّمت الأمر وقَبِلته. ولكنه لم يخبرها. كانت تريد أن تقول لعمتها، كوني حذرة بعض الشيء وأنت تتحدثين عن الموتى لأنهم ليسوا هنا ليدافعوا عن أنفسهم. كانت تودُّ الاستفسار منها لماذا تقول إن طارق تشكّى منها، وإنها تضايقه وتثير أعصابه؟ فهو لم يكن يريد لها أن تعرف ذلك.

قالت محاسن وهي ترفع بصرها فجأة:

- هل فرغت؟

- نعم.

نظرت محاسن إلى يديها مرة أخرى، ومسحت المسحوق الأبيض عن بشرتها الرخوة. حانت اللحظة التي تتكلم فيها سمر، وتقول ما تود أن تقوله.

قطعت عليها محاسن أفكارها حين قالت:

- عندما أقول إنك يجب أن تذهبي إلى إنكلترا، فهذا لمصلحتك أنت ومصلحة أمير، وليس لمصلحتي أنا. سفركما إلى هناك أجدى لكما بالرغم من أن أمير يملأ علي المنزل وأنت تخدمينني.

المنزل، لا بد من أن يجيء ذكر المنزل. فهم يشتركون في ملكيته.

قالت سمر:

- من الأفضل لنا أن نكون هنا...

ما كانت تود أن تقوله عندما خرجت من المطبخ، كان يغلي داخلها، يفور بينها وبين ذاتها. كان صوتها عنيداً كأصوات الأطفال وهي تقول:

- أنا لم أفقد وظيفتي. لم يفصلوني، بل تركتها من تلقاء نفسي.

تنهدت محاسن وكأنها لا تصدقها. كأنما كانت تسخر منها. وقالت لها:

- حسناً!

والتفتت من جديد إلى التلفزيون.

لم تكن غرفة النوم حارة جداً. كان جوّها معتدلاً بوجود مروحة السقف ومع إغلاق الستائر لمنع تسلل أشعة الشمس. ملأت عمتها رائحة الغرفة بمزيج من روائح الكريمات والكولونيا التي تستعملها. جلست سمر على السرير، واستندت إلى الحائط، واحتضنت ركبتيها وجعلت تنظر إلى الشروخ التي ظهرت على السقف. بعضها عميق وغائر، وبعضها الآخر رقيق وباهت: امرأة أوروبية من الزمان القديم ترتدي فستاناً منتفخاً، تشبه شجرة الأرز. تمنت لو أنها كانت تشعر بأن راي كان قريباً منها برغم الكلمات الغاضبة التي قالتها له، وبرغم الطريقة التي تخلص منها بها. دعت في سرها أن تشعر بقربه، ليس كما في الحلم، ليس مشغولاً عنها ومتجنباً لها كأنه لا يراها. ليتها ترى حلماً جميلاً عنه، حلماً جميلاً يطمئنها ويريحها. هو بعيد الآن بحيث ولا تستطيع أن تتصور صوته، لا تستطيع أن تصدق الأشياء التي قالها لها. الشكُّ منفىً آخر، منفى متمثل في انعدام اليقين بأن شيئاً واحداً حدث بينهما. غياب الدليل الملموس. قنينة العطر التي كان قد أهداها إياها مغلقة بالحجرة المجاورة مع الأشياء التي لا تحتاج إليها: الصوف والجوارب اللاصقة، معطف الدافيل الثقيل. كل الملابس التي رآها ترتديها، أغلقتها في المخزن مع أكياس العدس والأرز.

كانت واهنة اليوم بسبب حلم البارحة وإزعاجها لعمتها. لا تذكر على وجه التحديد ماذا فعلت لتزعج عمتها، لتقدح شرارة الانفجار الذي انطلق من أعماقها. الشروخ على السقف؟ المروحة؟ الأطفال؟ كان الأطفال يجرون كالشياطين ويحدثون صخباً يصم الآذان. آه! بعد

أن جاءت حنان وذهبت، قالت عمتها تلك الأشياء. اتهمتها بقتل طارق. كان ذلك أمراً مثيراً للسخرية. تمنت لو أن حنان كانت حاضرة، أو وليد. كانت استطاعت أن تحتفظ بتوازنها العقلي، ولربما استطاعت أن تتغلَّب على خوفها. كانا سيدافعان عنها. وحتى إذا اختارا الصمت احتراماً لعمتها، كانت ستشعر بأنهما يساندانها. كان راي واقفاً إلى جانبها. قال لها ذلك عندما أطلعته على رسالة عمتها في المستشفى، بعنوانها على الظرف: «أبردين، إنكلترا.» قال لها وقتها: «لقد ضمنت انحيازي إلى جانبك في أي معركة تنشب بينك وبين عمتك.» كان هذا هو ما قاله. وهي تذكره الآن. كان ذلك بالمستشفى، حيث الباب الزجاجي الذي يستعصي على الدفع. نظرته حينما رآها. تذكر الآن كل شيء. الابتسامة، التحديق في المرأة التي كانت ترتدي التنورة المؤطرة، التي تشبه أغضان شجرة الأرز.

كانت تلك مزحة. كسبتني يا سمر في أي معركة تنشب بينك وبين عمتك. كانت تلك نكتة حول العنوان الذي على الظرف، وقد ضحكت حينها. قام شخص ما في مكتب البريد بشطب كلمة إنكلترا بالحبر الأحمر. أعطته الظرف وأمسكه بيده. كانت هناك لزقة في ظاهر يده من حقن الأمكسوسيلين الوريدية. قال إنها كانت جميلة. كانت ترتدي معطفها الجديد، بلون الحناء، ذا «التوغلات» بدلاً عن الأزرار. كان الجو دافئاً داخل العنبر، دافئاً جداً. رغبت في خلع المعطف ولكنها شعرت بالخجل. وعندما قال لها إنه يحبها، كان وقع الكلمات غريباً لأن أحداً لم يقل لها هذه الكلمات باللغة الإنكليزية من قبل. لم يكن الموقف شبيهاً بما يحدث في الأفلام،

بل كان بالطريقة نفسها التي يتحدث بها. كان عادياً. وإذا تيسر لها الآن، أن تنال ما ترغب فيه، لما رغبت إلا في رؤية صوره القديمة عندما كان شاباً، بالأسود والأبيض، والقليلة منها الملونة. شعره والملابس التي يرتديها. كانت تحب أن تشاهد صوره وأن تسأله بعض الأسئلة. سيكون مهتماً بها هي، أكثر من اهتمامه بالصور. سيجيب عن أسئلتها من دون حماسة، لأنه لم يكن له رغبتها هي في الحديث عن الماضي. الطريقة التي ينظر بها إليها هي التي دفعت الأمور إلى المرحلة الحاسمة. شعرت حينها بالحرج. حرج غلّف كل تصرفاتها في ما بعد. لو لم يكونا رجلاً وامرأة؛ ولو كانا صديقين لا أكثر؛ ولو كان كل ما بينهما هو هذا الهواء النقي؛ لربما لكانت أكثر صبراً حينما قال لها «لست متأكداً» عندما سألته عن إيمانه بالله.

هناك بعض الناس يجذبون الآخرين إلى الإسلام. أشخاص ذوو إيمان راسخ قوي. النوع الذي لا ينام الليل إلا قليلاً. النوع الذي تتفجر جوانحه بطاقة فياضة. هؤلاء لا يفعلون ذلك من أجل مكسب ذاتي، ولا من أجل مكسب دنيوي، بل يفعلون ذلك لوجه الله. لقد سمعت قصصاً عن أشخاص اعتنقوا الإسلام: سجناء في بريكستون، دبلوماسي ألماني، أميركي يتحدر من أصول يونانية. شخص يؤثر في شخص آخر، لا ضغطاً ولا إرضاءً لغرور. ولكن ماذا عنها هي؟ ماذا كانت تنوي عندما تحدثت إلى راي، طالبة هذا وراغبة في ذاك، ممتلئة الأعطاف برغبتها الجامحة. وماذا كانت تفكر حين أرادت أن تذهب معه إلى إستيرلنغ، وتعدَّ له الطعام؟ هل كانت تبحث عن الاستقرار؟ هل كانت تريد أن تصير زوجة رجل ما؟

لم تدع له مرة واحدة أن يكون مسلماً لذاته هو، من أجل الخير

الذي يعود إليه ولا شيء غير ذلك. كان الأمر يتعلق دائماً بها هي، يتعلق برغبتها في الزواج مرة أخرى والتغلب على الوحدة التي ضاقت بها. ليتها تسمو فوق ذلك. ليتها تخلص نواياها وتطهّرها من الغرض. كان هو حانياً معها وعطوفاً عليها، ولكنها لم تَجُد عليه بشيء في المقابل. لكنها ستفعل ذلك الآن، من البعيد، ومن دون أن يشعر بها. سيكون هذا هو سرها. ستفعل ذلك حتى إذا استغرق الأمر عشرة أشهر أو عشر سنين أو حتى عشرين عاماً أو أكثر من ذلك.

٢٠

قالت وهي تجيب عن سؤال وليد:

- هذا أول «رمضان» أحضره هنا منذ عودتي.

أجابتها محاسن وهي تمد يدها لتناول قطعة أخرى من الخبز:

- نعم، لم تكوني معنا العام الماضي.

كانت سمر قد قطعت الخبز إلى قطع صغيرة. صارت قطع الخبز رقيقة هذه الأيام، بينما تُنذر أسعارها بالارتفاع.

كانوا ثلاثتهم يتناولون طعامهم في الحديقة، يستضيؤن بنور القمر وحده من دون أضواء كهربائية. لم تكن مصابيح الحديقة مضاءة. عندما اكتشفت سمر أن الشمعة التي جلبتها معها من الداخل لم تكن ضرورية، بادرت بإطفائها. كان ذلك منتصف شهر رمضان، وكان البدر مكتملاً. منذ الغد سيبدأ في المحاق، وسيستنفد نفسه يوماً إثر يوم. عندما يظهر الهلال الجديد ستكون تلك نهاية رمضان؛ نهاية الصيام، ويحلّ العيد فيلبس الأطفال ملابسهم الجديدة، ويعايد الناس بعضهم بنهاية الشهر الفضيل.

لم يكن أمراً معتاداً أن تكون وحدها مع وليد ومحاسن، من دون

الأطفال. ذهبت حنان وأسرتها لزيارة أهل زوجها، وأخذوا معهم أمير. كان من المفروض أن تفطر سمر ومحاسن وحدهما. ولكن رنَّ جرس الباب مع التكبيرة الأولى لأذان المغرب، وقبل أن تتناولا تمرات الإفطار. فتحت سمر البوابة. كان وليد هو الطارق. فاجأها بقدومه، ولم تستطع أن تخفي فرحتها فعانقته وقبلته ولم تكتف بمجرد مصافحة عادية. اندهش وسألها مستفسراً ومستغرباً:

- ماذا دهاك يا سمر؟

- ماذا دهاك أنت، تجيء من دون زوجتك؟

- هي تفطر اليوم مع أهلها.

قال ذلك ولم يزد.

لم تسأله سمر لماذا لم يذهب هو أيضاً. انشغل ثلاثتهم بالإفطار. البلح والكركدي. قالت عمتها لوليد:

- لو كنا نعرف أنك ستجيء هذا المساء لحضرنا لك عصير العنب.

وضعت سمر دورق الكركدي داخل الثلاجة، وتخلصت من نوى التمر، وقام ثلاثتهم يؤدّون الصلاة. صلوا جماعة، يؤمهما وليد، بينما وقفت سمر ومحاسن وراءه متلاصقتين، يداهما وملابسهما متلامسة. كانت حركات محاسن بطيئة وخاصة عندما تركع وتسجد وتضع جبهتها على سجادة الصلاة. شعرت سمر بأن وليد، يتباطأ عمداً في أداء الصلاة، مراعاة لبطء محاسن. عندما فرغوا من الصلاة انقطعت الكهرباء. أطبق هدوء وصمت غريبان على الجميع: الصمت المفاجئ لمكيف الهواء؛ الغياب الفجائي للإضاءة؛ سكون حركة

المروحة. كان كل شيء ساكناً كأن على رؤوسهم الطير. وحده، ما تبقّى من أشعة الغروب الحمراء الواهنة، تسلّل إلى هدأة المكان. رددت سمر سبعاً وعشرين مرة: «لا إله إلاّ الله، واستغفر الله لذنبي وللمؤمنين والمؤمنات.»

جاء صوت عمتها هادراً من داخل الغرفة:

- الله يلعنهم ويلعن يومهم. هل هذا وقت يقطعون فيه الكهرباء؟

تقصد عمتها بـ«هم» شركةَ الكهرباء والحكومة. فالاثنتان لا تنفصلان في ذهن محاسن. واصلت محاسن شكواها:

- كرّهونا الحياة.

ازدادت حرارة الغرفة من دون المكيف، ولكنهم لم يحتاجوا إلى إنارة لرؤية بعضهم البعض. كان ضوء القمر كافياً.

وقف وليد وطوى سجادة الصلاة.

- عمتي محاسن، دعوة الصائم مستجابة. لا بد من أن شركة الكهرباء في أسوأ حالاتها الآن.

قالت محاسن وهي تهب واقفة:

- كل الناس يدعون ضدها.

تناولت سمر السجادة من وليد، والتقطت سجادتها وسجادة عمتها من الأرض. بدا لها مضحكاً أن يكون كل الحي يدعو ضد شركة الكهرباء. كل هذه الطاقة البشرية ترتفع مع أنفاس المغيب. يتعامل بعض الناس بغضب شديد مع انقطاع الكهرباء، مثل عمتها.

قالت سمر:

- دعونا نتناول الطعام في الخارج، بالحديقة.

قدمت محاسن وهزت رأسها موافقة. منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي اتهمتها فيه محاسن بقتل ابنها، تحسنت العلاقات بينهما ولطفت. كأنما قالت محاسن أسوأ ما يمكن أن يخطر ببالها ويجري به لسانها، ولم يعد هناك اتهام آخر يمكن أن يطرأ لها.

حضّرت سمر الطعام على ضوء الشمعة. كان ظلها يتمايل هائلاً على الحيطان. المطبخ ساخن وخانق من دون المروحة. كانت تشعر بحركة الجنادب وهي تدب وتقفز عبر أرضية المطبخ. تحسنت حرارة الطقس عندما جلسوا في الخارج. وضعت الوسائد فوق المقاعد، والمفرش على المائدة المتمايلة. بدَّدت النسمات الخفيفة غضب عمتها. بدا الطعام أطيب مذاقاً هنا في الحديقة منه في الداخل، بل كان أفضل من أي يوم عادي يتناولون فيه طعامهم في الداخل مع المكيف والأضواء.

قالت محاسن وهي تغمس قطعة الخبز في الصحن:

- خلال رمضان الماضي لم تنقطع الكهرباء مرة واحدة. من المفترض أن تتحسن الأوضاع، ولكن بدلاً عن ذلك تزداد سوءاً.

لم يكن وليد يتحدث كثيراً وهو يتناول الطعام. لا يزيد على همهمات يؤيد بها ما تقول عمته، ويردِّد عبارة واحدة كلَّما أحس بالحر والرطوبة:

- صبي لي ماءً يا سمر.

بدا لها وليد متعباً. ليس التعب العادي المصاحب للصيام. ربما يكون قد تشاجر مع زوجته، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله لا

يرافقها إلى بيت أهلها. ها هو هنا معهم اليوم، وكانت محاسن حصيفة ولم تبادر بطرح الأسئلة. كانت سعيدة لرؤيته. هكذا محاسن، يمكن أن تكون حصيفة جداً، إذا راقها ذلك. ووجود وليد، زودها بحيوية مفاجئة. لو كانت وحدها مع سمر، لَلاذت بالصمت وانسحبت إلى عالمها الداخلي.

فرغوا من تناول الطعام، فقامت سمر تحمل الصحون إلى المطبخ، وأعدت الشاي. وضعت وريقات النعناع في براد الشاي، وملأت السكرية، ثم وضعت شمعة في الصينية للذهاب إلى الحديقة. سارت من المطبخ إلى القاعة، ثم إلى غرفة الجلوس. كانت تمسك الصينية بيد، وتفتح الباب باليد الأخرى. أغلقت الباب خلفها حتى لا تتسلل القطط الضالة إلى داخل المنزل. في الحوش تسرب ضوء القمر الواهن الرمادي إلى شجيرات الصبار وإلى فروع الجهنمية الغامقة. يمكنها أن تطفئ الشمعة الآن. تنزل الدرجات القليلة وتهتدي بصوتي عمتها ووليد.

انشرحت لهذا السلام الداخلي الذي تشعر به وهي تجلس بينهما من دون أن تتحدث، وحتى من دون أن تستمع إلى ما يقولان. انبسط وليد الآن وانشرح صدره، كباية الشاي في يده. يحكي ومحاسن تبتسم ابتساماتها النادرة. هذا الشعور الطيب كان من «بركة» رمضان، بسبب الطعام والشراب بعد صيام النهار بكامله، والصبر على لظى الشمس وحرارة الجو. العطش هو المشكلة وليس الجوع. عدم الرغبة في الحديث مع الآخرين. الاقتصاد في الكلمات، والاكتفاء بالضروري تماماً من القول؛ بذلك القدر من الكلام الذي يجعل الدنيا تسير نحو الغروب. شهر كامل من هذه الحرية. القمر

يستدير الآن، ومعرفة أن الشهر قد انتصف. بعد أسبوعين فقط سيغيب محور التركيز، تغيب بؤرة الانتباه. سيتبدد ذلك القرب الحميم من الأعماق.

هذه الليلة، مثلها مثل كل ليلة من ليالي رمضان: ستصحو قبل ساعات من الفجر، وستصلي مرة بعد مرة، وتقرأ القرآن. هذا وقت تستجاب فيه الدعوات. هذا هو خلاصة الوقت من العام.

سألت عمتها:

- سمر، ألا يعمل خطيب نهلة في شركة أبو ظبي للكهرباء؟

- قطر، وليس أبو ظبي. هو الآن في الدوحة.

قال وليد:

- إذاً، استطاع أن يضمن له وظيفة محترمة.

كانت هناك نبرة إعجاب في صوت وليد، نبرة حسد ممسوكة من الذنب.

قالت محاسن:

- نعم. نال وظيفته بعد صراخ وشجار واضطر إلى تأجيل الزواج مرتين. كان من المفروض أن تتزوج هذه البنت قبل شهور، ولكنها ما تزال تنتظر.

واصل وليد حديثه:

- وظيفة في شركة كهرباء قطر، وظيفة محترمة. كيف حصل عليها؟

قالت سمر:

- بعضهم يعرف بعضهم. . .

- طبعاً بعضهم يعرف بعضهم، ولكن من هو هذا البعض؟

- لا أعرف. لم أستطع أن أعرف من هو بالضبط.

- كنت فقط أتساءل.

قال ذلك غير مكترث وأتى على بقية الشاي برشفة واحدة.

قالت سمر وهي توجه الحديث إلى عمتها:

- لن يتزوجا حتى ديسمبر. قالت لي نهلة ذلك أمس. هناك مشكلة التأشيرة، وهي نفسها من المفروض أن تبقى هنا للتفرُّغ لامتحاناتها. تريد أن تتخرج قبل الزواج.

- هذا أفضل لها. قطر بلد كويسة ويمكن أن تجد وظيفة هناك.

قالت محاسن ذلك بتركيز لا يخلو من عنف. تريد للجميع أن يحصلوا على وظائف ممتازة، وأن يصبحوا أغنياء، ويصعدوا إلى الذرى.

قالت سمر:

- لي صديقة في قطر. امرأة باكستانية عرفتها في أبردين. زوجها يعمل في مجال البترول وقد نقل إلى هناك. وهي تحب قطر كثيراً.

كانت ياسمين في الدوحة، مع ابنتها وزوجها ناظم. لم تعد ياسمين مع راي في البلد نفسه. ولا يمكن لسمر أن تكتب إليها وتسألها عن أخباره. عندما كان بإمكانها أن تفعل ذلك، لم تفعله، ولكنها الآن لا تستطيع حتى إذا أرادت. وهذا هو الفرق. قالت لنفسها: «لا تربطني الآن به رابطة من حيث وجود معارف مشتركين.

مَن من معارفي يعرفه؟ دايان؟ فريد؟ لن تكون لديّ الشجاعة لأكتب لأي منهما.»

لكن ثمة روابط أخرى: الأحلام، اليقين الذي ينزل عليها فجأة. خرجت في أحد الأيام مع الأطفال إلى الحديقة. كانت حافية القدمين، ترتدي واحداً من فساتين حنان القديمة. كانت تنظر إلى الطمي في أحواض الزهر، تحت شجيرات الياسمين. تنظر إلى نعومته وخطوطه الدقيقة المعرجة. غرزت أصبع قدمها في الطمي، مكونة ثقباً صغيراً وانحنت ولمست الطمي بأصابعها. كان ناعماً كعجينة الخبز، لدنا كالجبس. ومع ذلك فإن أصابعها كانت نظيفة عندما أخرجتها. طمي نظيف من الوزن الثقيل. هكذا كان راي مثل هذا الطمي. كان من الوزن الثقيل، من الداخل. لم يكن مثل الآخرين. كان يبدو هكذا عندما يدخل غرفة ما، وعندما يصمت لهنيهة قصيرة أثناء الحديث، وهو يجيب عن سؤال وجهته إليه.

كان هناك أيضاً عندما فتحت الثلاجة لتعطي عمتها كوباً من الماء. لفحة البرد المفاجئة حينما فتحت الثلاجة في ذلك اليوم القائظ؛ البرودة الزرقاء، الندى. ونافذة الغيب المفتوحة على أبردين حيث يقيم. جاكتته وهو يسير ضد اتجاه الرياح. طيور البحر البيضاء، والبحر الشاحب. وقفت هناك حتى أفاقت على صوت عمتها وصراحها:

- ماذا تفعلين وأنت تقفين كالبلهاء وباب الثلاجة مفتوح؟ كل الأشياء ستذوب.

كان الأمر هكذا في البداية. اللحظة التي في الحديقة واللحظة التي

أمام الثلاجة. لحظتان تتميزان بالفجاءة المباغتة والوضوح الباهر. ولكن كلما صلّت من أجله، كلما تواترت هذه اللحظات وتطاولت حتى صارت دائمة. لم تعد أفكاراً فحسب، بل وعي ساطع، يحل ويبقى.

تحدث وليد مع عمتها وكان القمر ما يزال ساطعاً من دون منافس من أضواء المدينة من أسفل. كان ضوء القمر، برومانسيته هذه، هدية من أجلها، أكثر صفاءً من الماء، وأشدَّ بهاءً من السماء.

سمعت راي يقول:

- حلمت بي أراكِ؛ الحلم نفسه في كل مرة. أرى أنني أصعد سلَّماً. الدرجات عطنة وضيقة. وعندما أصل إلى القمة وأفتح الباب، ألقاكِ هناك.

- هل كنتُ سعيدة بلقائك؟

- نعم... كنتِ سعيدة جداً. وأعطيتني كوباً من الحليب لأشربه.

- حليب؟ يا له من تصرف طفولي من جانبي!

- لكن عندما أشربه يحدث شيء غريب. شيء لا يحدث إلا في الأحلام. تتساقط الجواهر من فمي وتقع على راحتيّ. أفتح راحتيّ وأعرضها عليك لتتأمليها.

٢١

جاء شهر ديسمبر. هبت الرياح الباردة وتقرَّحت بشرتها بعد نشافها. قالت لنفسها:

- أنا أحب هذا الوقت من العام.

نظرت من داخل السيارة إلى الأشجار التي تظلل شارع النيل. جذوعها المتينة الراسخة ومن ورائها النيل الأزرق العربيد. تأملت المنظر. أزاحت نظارتها ونظرت حتى غمر الشجى قلبها.

كانت نهلة هي التي تقود السيارة. ذهبت إلى محل الفيديو، وبعد ذلك أخذت نهلة بطاقات دعوة الزفاف من المطبعة. كانت البطاقات في حضن سمر. بطاقات سميكة بيضاء موضوعة داخل المظاريف.

سألتها نهلة:

- لماذا أنت هادئة هكذا اليوم؟

- أبداً، فقط أتفرج على الأشياء. هل تعتقدين أنك ستشتاقين إلى الخرطوم عندما تذهبين إلى قطر؟

ستتزوج نهلة في نهاية ديسمبر وستذهب إلى الدوحة حيث توجد

ياسمين، مع ابنتها وناظم. إذا كانت تتحمل نفقات الرحلة، لكانت سمر ذهبت إلى الدوحة لزيارتهم.

- لا أعرف والله. ولكن ليس في البداية. ربما في ما بعد. أما الآن فإننا نريد فقط الإفلات من هنا، فقد تأخرنا كثيراً.

- إن شاء الله، كل شيء سيسير على ما يرام هذه المرة.

- ينتابني بعضَ المرات خوفٌ مريب. أفكر أحياناً في أن شخصاً من أسرتنا أو من أسرته؛ رجل طاعن في السن أو جدة مخرفة تسقط صريعة فجأة وتدمر كل شيء.

قالت ذلك وهي تغير التعشيقة. ضحكت سمر وهي تقول:

- قولي إن شاء الله لن يحدث شيء كهذا.

كان هناك مركب في النيل، أشرعته بيجية وبنية اللون. ومزارعون على الضفة الأخرى من النهر، تنحني ظهورهم وهم يعملون. الشمس تتساقط أشعتها على الماء وتجعل سطحه خفيفاً، ولكن الأعماق زرقاء، ممعنة في الزرقة.

ديسمبر الماضي، في موقع آخر من هذه الأرض، لم تكن هناك شمس. كانت أعياد الميلاد. وراي مع أصهاره السابقين بإدنبرة. الهدايا المغلفة من أجل مايري. هل ما يزال يفعل الشيء نفسه يا ترى؟ هل ما يزال يقود سيارته عبر اسكتلندا وهو يستمع إلى أغاني بوب مارلي؟ الكمين الليلي... كل البنادق موجهة إلي. هل ما يزال يصحح أوراق الطلاب؟ ويشاهد «سي أن أن» «في هتش ـ ١؟» هل ما يزال يقرأ كل ذلك العدد من الكتب؟ بعض المرات يقول: «أنا اشتراكي من الطراز القديم...» وبعض الأوقات يقول: «وراء الدعاية

الغربية حول الأصولية الإسلامية.» ربما يكون العام الواحد أقصر في عالمه مما هو في عالمها. لا توجد لديه تغيرات كثيرة. أما هنا فإن قوانين جديدة قد صدرت، وارتفعت الأسعار، ويموت الكبار بيسر ويكبر الصغار ويتغيرون. أما زال يستخدم جهاز الفنتولين نفسه الذي كان يستخدمه من قبل؟ هل ما زال يدرّس طلبته أن الفرق بين الليبرالية الغربية والإسلام هو أن مركز أحدهما الحرية ومركز الآخر العدل؟ لم تكن تعرف ماذا يفعل في هذه اللحظة، في هذا اليوم. ولكن لا بأس. كان قريباً منها كما رأته في الحلم. الحلم الذي تراءت لها نفسها فيه في فناء المنزل. كان القمر غائباً، وكانت هي طفلة تلعب في «الحجلة» في مربعات البلاط. كان هناك أشخاص كثيرون في الحوش. مجموعة من الكبار يتحدثون في الظلام، وكان هو من بينهم. عندما رأته لم يدهشها أنه هنا في هذه القارة، في هذا البلد، وفي حوش عمتها. كانت راضية عن لعبها، يداها على الحاجز الخشبي، وهي تحجل على الدرجات، وتقفز فوق فواصل البلاط. غاب عن ناظريها ونسيته كما اعتاد الأطفال النسيان. كان اهتمامها منصرفاً كلياً إلى الدرجات، حتى وضع يده على كتفها. وعندما نظرت إلى أعلى، ابتسم في وجهها وقال:

- هل ظننت أنني لن أهتدي إليك في الظلام؟

ولكنها لم تقل شيئاً. كانت قد أصبحت كاملة وملساء مثل الماء الذي ينسال من خرطوش الحديقة.

القوة التي جعلتها تصمد اليوم إثر اليوم، كانت الأمل في أنه سيصبح مسلماً قبل أن يموت. لم يكن ذلك طلباً مستحيلاً. لم يكن

مستعصياً على الدعاء لحدوثه. سيلتقيان في الجنة حيث يستحيل الخطأ.

بالأمس ذهبت هي ومحاسن لزيارة قبر طارق. ذهبتا بالسيارة خارج المدينة. لا مباني هنا تعرقل مسيرة الهواء. السفر، والاهتداء إلى مكان منبسط، إلى مهد من الرمل تعرفان أن طارق يرقد تحته. تحيّيان القبر، وتحيّيان كل الراقدين هناك. جلست عمتها على الأرض، من دون حراك، المصحف مفتوح في حضنها. وجدتا بعض الأوساخ على القبر. أشياء حملتها الريح إلى داخل سور الأسلاك الشائكة. قشر البرتقال؛ علبة سجائر فارغة، نفايات من عش ما. عنق زجاجة ميراندا متآكل ومسنَّن. خدش يد سمر حينما التقطته عن الأرض. بدأت تنظف المكان. أقعت على يديها وقدميها، تحاول باهتمام شديد أن تلتقط كل الأوساخ من دون أن تطأ الراقدين تحت الأرض. قالت لعمتها:

- يجب أن نفصل حارس المقبرة الحالي. هو الذي كان عليه أن يفعل ذلك كل يوم.

لم تتلقَّ إجابة من عمتها. كانت تخشى أن تجد ما هو أسوأ من الأوساخ التي تجمعها الآن: فضلات الكلاب الخلوية. مهمة الحارس هي طرد الكلاب الخلوية والحيلولة بينها وبين الوصول إلى هذا المكان؛ وأن ينظف المقبرة؛ ويطرد اللصوص. ولكنه لا يقوم بمهمته كما يجب، ولا يلبي مواصفات حارس المقبرة حسب تصور سمر. لم يكن لديه شعر نظيف أبيض؛ ولا سجادة صلاة؛ ولا صوت رخيم يرتل القرآن. إنه شاب صغير متشرد، أهتم، تفوح منه رائحة الحشيش. وبينما كانت هي تنظف الأوساخ، كان هو يقف هناك

مستنداً إلى حائط غرفته، يراوح مكانه وينظر إليها من بعيد. غضبت حينها وذهبت إليه وقالت له:

- إذا وجدت فضلات كلاب هنا، فعليك منذ الآن أن تبحث عن وظيفة جديدة.

همهم باعتذار ما، وتوارى في ظلمة غرفته. صرخت وهي تناديه:

- أنا لا أمزح. سامع؟

كانت تشعر بأمان عميق فترةَ وجودها هنا. كل القبور حولها؛ كل حقيقة الوجود.

رجعت تواصل ما بدأت: صحيفة رمادية ملطخة، عليها صورة سياسي معروف، شفرة حلاقة، بعض أوراق الأشجار. وعندما فرغت من النظافة، توضأت مرة أخرى من الحنفية القريبة. جلست متلاصقة مع عمتها، ووضعت يديها حولها، وقبلتها فوق خدها. ثم أخذت منها المصحف وبدأت التلاوة: كلمة بعد كلمة، آية بعد آية، صفحة بعد صفحة.

قالت لنهلة عندما أوقفت سيارتها أمام المنزل:

- ادخلي لبعض الوقت.

- شكراً. ليس لديّ أي وقت.

- تعالي لترى عمتي محاسن البطاقات.

- سأمكث فترة قصيرة جداً، ولكن سأوقف السيارة في المنزل أولاً.

بينما كانت سمر تنتظر نهلة في الشارع حتى تدخلا معاً، تحدثت

إلى راي. حدثته عن الملصق الذي رأته في محل الفيديو. كان إعلاناً عن فيلم أميركي. حدثته عن كيف ترجم عنوان الفيلم من الإنكليزية إلى العربية. صار في الترجمة: «أنا وأمي وترافولتا.» ضحك وقال: «هذا الاسم Look Who's Talking أفضل كثيراً من الأصل.» كان يضحك عندما ظهرت حنان من الزاوية. كان أمير في المقعد الأمامي وداليا في المقعد الخلفي. عندما وقعت عيونهما على سمر وهي تقف أمام المنزل، لوّحا لها بالأيادي الصغيرة.

فتحت البوابة الحديدية السوداء، حتى تُدخل حنان سيارتها تحت المظلة. كانت البوابة ثقيلة تنسحب بصعوبة على الأرض، وتحدث بعض الأثلام والخطوط.

أوقفت حنان السيارة والمحرك. قفز أمير وداليا من السيارة واختلطت أصوات التحية مع أصوات الأبواب وهي تصطفق. قالت داليا:

- جئنا برسالة لك.

خاطر الأمل، سريع مثل رمشة العين.

تناولت سمر المظروف. وجه الملكة البلاتيني. الجواهر حول عنقها. ولكنها تعرف خطه. هذا ليس خطه. ما كان لها أن تأمل. هذا ليس خط يده. كان اسمها مكتوباً بالعربية، والرسالة مختومة بأستيرلنغ. قلبها يخفق بسرعة. من يبعث إليها برسالة إلى مكان كهذا غير راي. لم تكن تدري ماذا يدور من حولها: حفيف ورق المظروف وهو يُفَضّ، أصوات الأطفال، ونهلة تحيّي حنان.

التوقيع أولاً: فريد. فريد خليفة؟ لماذا يكتب لها؟ الذكرى

الخاطفة للقائه في أبردين، وراي يقدمه لها. يا للأسئلة التي يسألها. أسئلة كثيرة متلاحقة. كان صحافياً، وقد سجنه الإسرائيليون.

قال راي:

- قضى وقتاً عصيباً وهو في قبضتهم. كان وقتاً عصيباً بحق.

نظرات خاطفة على أسطر التحايا المهذبة، البحث الملهوف عن كلمة واحدة. كان اسم راي موجوداً بين السطور. أخيراً إذاً! بعد هذه الشهور العديدة التي كانت تريد رؤية اسمه وسماع صوته لا غير. هذا هو الموضوع:

«أكتب إليك إنابة عن صديقي راي آيلز.»

تنزلق العين سريعاً على السطور:

فقد صار... قبل أربعة أشهر... في منزلي... سعادتي بأن الله قد شرح قلبه لهذا... رمضان... السماح... إذا كنت موافقة...

ترجع مرة أخرى إلى الكلمات واحدة إثر أخرى، حتى تصدق معانيها. سريان هذه المعرفة، الشعور بالتسامي، بالارتفاع إلى الذرى. تستطيع أن ترى نفسها، رأسها محني فوق الرسالة، ابتسامتها. الورود الحمراء على وشاحها تتساقط على كتفيها. الجاكيت الأزرق، الأزرار المفكوكة، النظارات الشمسية بارزة من الجيب. تنورتها تلامس سيور صندلها الباهتة، مغضنة من أثر الجلوس بالسيارة، والسهولة التي انفلتت بها بعيداً عن الأطفال، بعيداً عن حنان ونهلة، بعيداً عن مظلة السيارات إلى الحديقة. فهي مكرّمة اليوم. نالت شرفاً وثواباً. إنها وحدها الآن، في حضرة المعجزة التي

لا يعرفها أحد سواها. انشقَّت السماء، كوة صغيرة، واخترق حياتها شيء ما. تسجد تحت شجرة الصبَّار وتتمتم بصوت خفيض على وقع تغريد العصافير، وروائح الفيكس النفاذة تنبعث من الأوراق التي في الظل ومن النجيلة.

٢٢

في وقت لاحق من اليوم نفسه، كانت تفكر كيف تجد حيزاً شخصياً في هذا المنزل؟ بعيداً عن صراخ الأطفال، بعيداً عن النساء المشحونات بالأسئلة؟ لم يكن قد رأينها على هذه الحالة من قبل: مضيئة ومخلوقة من جديد. اعتدن على رؤيتها شبحاً، تهوم في المنزل، تقوم بالأعمال اليومية، بينما عقلها في مكان آخر، فاترة الروح، مفتقرة إلى ما يغريها بأن تحب الحياة. أما الآن فقد صرن يوجِّهن إليها الأسئلة. ولكنها لن تكشف لهن سرها... لن تفسر ابتسامتها الحالمة... أين تجد مكانها الخاص في هذا المنزل؟ أين تجد وقتاً من اليوم لا يحتاج إليها أحد. لا يشعر فيه أحد بغيابها... أين تذهب؟ أين تجد مكاناً بارداً ومعتماً وهادئاً؟

كان التلفاز هو صديقها. أنقذها فيلم «الطفل الحكيم». كان الجميع يشاهدون وهم مأخوذون بسحر ترافولتا؛ بجمال الأم المثالية؛ بالكلمات الحكيمة التي كان يتفوه بها الطفل. كان كل ذلك مترجَماً إلى العربية، كلمات بيضاء في أسفل الشاشة. كانت محاسن مستلقية على السرير، ترفع رأسها على راحة يدها، بينما تجلس حنان على

السرير الآخر: صورة شابة لأمها. زوجها على كرسي الجلوس، حسن في حضنه، الأطفال موزَّعون على الأرض، يلتهمون سندويتشات البَيض في أياديهم.

فتحت سمر باب المخزن. استقبلتها الرائحة العطنة لغرفة مهجورة لا يدخلها الهواء. رائحة الأرز والغبار. أضاءت المصباح الكهربائي. مصباح معلق يتدلى من الحائط. أرخى الغبار الذي علاه على الغرفة ضوءاً بنياً فاتراً. وبين الأكياس الضخمة للعدس والحبوب، وبين آنية الطبخ الهائلة الأحجام، التي لا تنشأ الحاجة إليها إلا في المناسبات؛ كانت هناك الحقيبة التي تحفظ ملابسها الشتوية الملفوفة. بدلتها الكتانية، فساتينها المخططة، قفازاتها، كل الملابس التي كانت ترتديها في أبردين. الملابس التي رآها راي وهي ترتديها. كانت الحقيبة مغطاة بالغبار. يمكنها أن تكتب اسمها على الغبار بخطوط كبيرة. ولكنها جاءت إلى هنا لتسطر رداً على خطاب فريد. الرسالة في جيبها الآن، وقد حملتها معها اليوم كلَّه، تعيد قراءتها مرة إثر أخرى. كانت الرسالة معها عندما عرضت نهلة البطاقات على محاسن، وأثناء الغداء، وعندما كانت تغسل الصحون بعد الغداء... وعندما كانت تصارع أمير وواجبه المدرسي. كانت الرسالة هي سرها... تُدخل يدها في جيبها لتتحسسها... ثم تخرجها كلما وجدت فرصة لذلك لتقرأها من جديد. صارت الآن رثة وجعداء: مبلَّلة بماء المطبخ، فقطع من البيض من سندويتشات الأطفال، وبصمات أمير حينما حاول أن ينتزعها من يدها، عندما كانت تساعده في حفظ جداول الضرب.

جلست على الحقيبة. قبل أربعة أشهر، كان هذا ما كتبه فريد:

صار راي مسلماً. نطق بالشهادتين عندما كان بمنزل فريد بإستيرلنغ. لماذا لم يبلغها راي قبل ذلك؟ لماذا انتظر أربعة أشهر؟ ربما لأنه كان يريد أن يتأكد تماماً. كان يريد أن يستوثق أن قراره لا رجعة فيه. كان حذراً هكذا دائماً. والآن يطلب منها. . . ابتسمت لكل ذلك. كان لديها كرّاسة خطابات، وقلم حبر جاف، وظرفان. ستكتب رسالتين في لغتين. ستقول الرسالتان الشيء نفسه ولكن الثانية لن تكون ترجمة للأولى. كتبت أولاً لفريد: فقرات طويلة ودودة، التحايا، الأمنيات بأن تكون زوجته وأولاده بخير وصحة جيدة. عندما فرغت منها طوت الورقات ووضعتها داخل المظروف، وكتبت العنوان في إستيرلنغ.

كتبت بعدها إلى راي. كتبت على ورقة شفافة من أوراق الخطابات بالبريد الجوي. عدة أسطر لا أكثر. وعلى الظرف كتبت العنوان: أبردين، اسكتلندا.

تناهى إليها صوت التلفاز: أنا وأمي وترافولتا. فتحت الحقيبة معالجة زمامها. نظرت إلى ملابسها الشتوية. فضت ثياب الصوف ففاحت رائحة الشتاء والسحب الأوروبية. أدخلت يديها في القفاز وأخرجتهما. تأملت جواربها. عام كامل لم ترتد هذه الجوارب. وقعت عيناها على جاكتة الكتان، ولونها الذي بلون الحناء، وحبكتها الحريرية. سترتديها مرة أخرى عندما ترجع إلى أبردين. عراها التي تقوم مقام الأزرار. وجدت في أحد الجيوب قنينة العطر، بشكلها البيضاوي، ولونها العميري. فتحت الزجاجة واستنشقت عطرها. نسيت الغبار ورائحة الحبوب المجفّفة والأرز، ومررت أصابعها على وشاح سيكون حاراً في الخرطوم، وتأملت تزويقاته من الأزهار البنية

كأنها تراه للمرة الأولى.

غداً، منذ الصباح الباكر، ستذهب إلى مكتب البريد. ستشتري الطوابع: طوابع كثيرة الألوان. خريطة السودان، أو غابة من الوحوش: الفيل، الخرتيت وفرس البحر. ستمسك الرسالتين في يديها، وستقف أمام مكتب البريد تحت أشعة الشمس الساطعة. ستتردد قليلاً قبل وضعها في صندوق البريد، ثم تعيش يوماً إثر يوم، تنغمس في التحضير لزواج نهلة، وتنتظر. ستنتظر. كتبت لراي: تعالَ لتزورني من فضلك. من فضلك... أنا هنا حيث تجدني.

٢٣

بعد أسبوعين، حينما فتحت البوابة في صعوبة ورأته، ضحكا كلاهما. كأنما كل شيء كان يستأهل هذا الضحك. لم تكن خجولة كما كانت تعتقد. لم تكن خرقاء. كان يبدو أكبر سناً مما كان عليه عندما رأته آخر مرة، ولكنه كان ممتلئاً شباباً. كان شعره أكثر بياضاً ولكنه يبدو شاباً. لم يُرهقه طول الرحلة، فلم يبدُ عليه تعبٌ، كأنما قطع مسافة داخل الخرطوم ذاتها، ولم يأتِ من أبردين الباردة إلى هنا. قال:

- قضيتُ اليوم كله أبحث عن المنزل.

كان ذلك مضحكاً أيضاً. اليوم بطوله وهو يبحث عن المنزل، منزلها هي. اليوم كله وهو يبحث عنها، وهي لم تكن متخفية، لم تكن تلبس قناعاً، كانت ترغب في أن يعثر عليها. كانت هناك أسئلة كثيرة تريد أن توجهها إليه: ما الذي جعله يضلّ الطريق؟ أين كان يقيم؟ ولكن الأسئلة كلها ما عادت مهمة. ما عادت عاجلة بأي معنى من المعاني. الحاضر وحده هو المهم. بوابة الحديد التي ما زالت ممسكة بها، تحنو عليها أشعة الشمس، وهي تجرها لتغلقها عليه.

خطواتهما على إسمنت المظلة، ملابسهما تلامس الغبار في عربة حنان. تخطيا دراجة أمير الملقاة على الدرجات المؤدية إلى الحديقة. نظرت إليه. جرّح شعاع الشمس عينيها. أسرعت الخطى عندما سمعت جرس البوابة. كانت تخشى أن يستيقظ الآخرون، ولذلك نسيت أن تضع نظارتها الشمسية.

لم يكن ذلك هو الوقت العادي الذي يرن فيه الجرس مؤذناً بقدوم الزوار. كان بعد الغداء، عندما يكون ظل كل شيء مساوياً لقامته. وهي تعرف أن الآخرين جميعاً كانوا نياماً حتى الأطفال. هددتهم قائلة:

- ناموا وإلا فإن أياً منكم لن يذهب إلى زفاف حنان.

ولذلك ناموا مباشرة.

تركت راي بالخارج، وذهبت لإحضار المساند لكراسي الحديقة، ومفرش الطربيزة. كان عليها أن تتحرك بحذر شديد حتى لا توقظ أي شخص. ترددت في المطبخ ماذا تحضر لراي: بيبسي أم ميراندا؟ أيهما سيحب أكثر؟ كان يجب أن تسأله، وعليها الآن أن تخمن. تناولت زجاجة البيبسي من الثلاجة ومكعبات الثلج. توخّت ألاّ تُحْدِث أي صوت عندما تحاول إخراج الثلج فوق الحوض. كان الماء يصب على الثلج من الحنفية، بينما كانت تفكر في الخطوة التالية: الكوب، الصينية، إخراج الثلج... هذا زمن البحبوحة، يجيء بعد زمن الشح والنشاز.

سكبت البيبسي في الكوب فامتلأ بالزبد: حبيبات صغيرة تتطاير على المفرش أثناء الفوران والهسيس. صار الحديث سهلاً الآن: عن

الطربيزة ذات الأرجل المتأرجحة، عن الجمعية التعاونية على الجانب الآخر من الشارع، عن أطروحة دايان التي فرغت منها مؤخراً.

مايري سقطت عن الحصان ولكنها بخير حالياً. أصابها رعب حقيقي. تحدث عن طلابه الجدد، وعن بلدانهم ورسائلهم البحثية. قال لها:

- حالياً أعد كتاباً أكاديمياً. عنوانه: «مقدمة لسياسات شمال أفريقيا». فضّلت أن أكتب كتاباً أكاديمياً بدلاً عن التركيز على تحليل الأوضاع السياسية الراهنة.

شرب البيبسي وبدأت مكعبات الثلج في الذوبان، حوافها رقيقة وملساء. قال:

- هل هذا هو ما تفعلينه هنا؟ تقدمين المشروبات إلى الضيوف بمجرد حضورهم بينما لا تشربين شيئاً معهم؟

ابتسمت وهزت رأسها موافقة. نعم، هذه هي العادة هنا. وسألته:

- في أية طائرة أتيت؟

- جئت بطائرة «كي أل أم». غيّرت الطائرات في أمستردام. من أبردين إلى أمستردام، ثم نزلنا في القاهرة، قضينا ساعة في الترانزيت. وصلت هنا الساعة الثانية صباحاً. كنت حينها نائمة. قال ذلك وهو يبتسم.

كانت عند الثانية صباحاً فعلاً نائمة. لم تسمع صوت الطائرة التي هبطت في المطار القريب من منزلها. ولكنها بعد ذلك الوقت سمعت صوت الأذان ونهضت لأداء صلاة الفجر. شفق آخر، صبح جديد. استغفرت وقالت «لا حول ولا قوة إلا بالله.» لم تكن تعرف ماذا

يمكن أن يحدث، لم تكن لديها فكرة عما يخبئه لها اليوم الجديد.

- هل سار كل شيء على ما يرام في المطار؟

تعرف أن الأجانب كثيراً ما يتعرضون لتجارب قاسية، إذ يخضع عفشهم للتفتيش الدقيق والبطيء، ويُوجَّه إليهم كثير من الأسئلة.

- كل شيء كان على ما يرام. لا مشاكل. ولكن حزام العفش كان معطَّلاً ولذلك استغرق العفش دهراً حتى يُفتَّش. ولكنه جاء على كل حال. إنها أكثر الرحلات يسراً في حياتي... ولا بد من أن الأمر كان هكذا لأن نواياي كانت خيّرة.

ابتسمت وظلا صامتين لبعض الوقت. كان يمسك الكوب بيده اليمنى، الثلج والبيبسي متساويان.

- لماذا طلبت من فريد أن يكتب لي؟ لماذا لم تكتب بنفسك؟

لم يحمل سؤالها شيئاً من العتاب أو الشكوى. كانت رسالة فريد مفيدة: كانت رسمية، ملتزمة بقواعد اللياقة، وكانت هي بالضبط ما تحتاج إليه. لم تشعر بحرج وهي تطلع وليد وحنان عليها وأن تقول لهما:

- عليكما الحديث مع محاسن. عليكما أن تفعلا ذلك لأن وقع المسألة سيكون سهلاً عليها عندما تعرفها منكما.

قال راي:

- أردت أن أفعل كل شيء حسب الأصول. كنت أخشى أن تكوني قد تزوجت. كان الذنب ذنبي لو حدث ذلك.

- لا، لا، جارتنا ستتزوج.

ما تزال الأقوال السخيفة تداهمها، ما تزال الأشياء غير المترابطة تجري على لسانها.

- ما اسمها؟

- نهلة.

طرأ لها الآن أن اسم نهلة اسم جميل. وأنه كان جميلاً أن تكون جارتهم وأن يكون زفافها هذه الليلة. الفناء العريض للنادي السوري، نغمات الموسيقى العالية، الهواء العليل والكل يرتدي الجاكتات والملابس الجديدة والجميلة. راي أيضاً يمكنه أن يذهب. ستقدمه إلى وليد وكل معارفها.

- هل نهلة صديقتك؟

- نعم، مع أنها أصغر مني بكثير. وستذهب إلى قطر حيث توجد ياسمين.

- هل قطر من الأماكن التي تريدين زيارتها؟

- نعم، يوما ما.

كانت في حالة من الانشراح العميق. تحاول أن تحتويه. كان من المفروض أن تعاتبه على الماضي، وأن تناقش معه التفاصيل والجوانب العملية. أين عقلها؟ النجيل المصفر. والأشجار غير المشذَّبة. الرائحة التي تعرفها: رائحة الياسمين والتراب. قال لها:

- أعتقد أننا يجب ألا نطيل هذا العذاب.

- أي عذاب؟

ضحك ومسح وجهه بيده. كان العذاب بالنسبة إليها يتمثَّل في

تلك الأيام التي سمعت فيها صوتاً منطقياً دنيوياً يقول لها إن شخصاً مثله لا يمكن أن يصير مسلماً. الصوت الذي كان يحدد بدقة متناهية المسافة الفاصلة بينهما، ويحصي الاحتمالات بأن يكون مع شخص آخر؛ امرأة عيناها أكثر انفتاحاً، وقلبها أكثر خفة.

- أقصد، إذا تزوجنا هذا الأسبوع، فيمكننا أن نسافر إلى مكان ما. سيكون لديّ وقت كاف، لأنني لست مضطراً إلى الرجوع إلى أبردين حتى منتصف يناير. كنت أفكر في أسوان. هل زرت أسوان؟

- لا. كان صوتها خافتاً نوعاً ما لأنها تذكرت الصوت الفظيع.

- أنا أيضاً لم أذهب إلى هناك.

قال ذلك وهو يراقبها، ويلحظ التغيير الذي طرأ على عينيها:

- السد العالي قرب المدينة. مشروع ناصر الكبير. عرفت أن جنوب مصر شبيه تماماً بالأحوال هنا، من ناحية المناخ والتضاريس. سيكون ذلك جميلاً. ما رأيك؟

ابتسمت وهي تقول:

- سيكون لطيفاً فعلاً.

- يمكن أن تتركي أمير مع عمتك، وسنحضر هنا مرة أخرى وبعدها نذهب جميعاً إلى أبردين.

ابتسمت، ولكن الأمر بدا لها معقداً. يذهبان شمالاً ثم يعودان مرة أخرى إلى الخرطوم.

- كانت الأمور أسهل في ذلك اليوم في أبردين.

تلاشى صوتها في الفراغ. كان من الخطأ أن تقول ذلك. فهو لن

يكون راغباً في الحديث عن ذلك اليوم.

عندما تكلم كان صوته هادئاً.

- وقتها لم أكن نقياً بما فيه الكفاية لأكون جديراً بك.

تحول بنظره وسمر في الوقت نفسه ناحيةَ المنزل. كانت داليا مقبلة وهي تنزل الدرجات. كان يبدو عليها النعاس. شعرها مبعثر وقد تفلّت من ضفائره. جاءت وجلست على ذراع كرسي سمر ووضعت رأسها على كتف سمر. كانت تحملق في راي، ولكنها كانت على درجة من النعاس عطلت لديها حب الاستطلاع.

سألتها سمر.

- أما تزالين تشعرين بالنعاس.

هزت داليا رأسها موافقة وهي تمسح أنفها.

- ألم تسلمي على الضيف؟

هزت داليا رأسها بالنفي.

- إنه يتحدث العربية. أنت تتحدث العربية، أليس كذلك؟

- القليل منها. ليس كثيراً.

همست داليا في أذن سمر قائلة:

- لا يتحدث بصورة صحيحة.

ضحكت سمر وقالت لها:

- يحتاج إلى مزيد من المران. ولكن كوني لطيفة وقولي: «السلام عليكم».

فعلت داليا ذلك وهي ترفع يدها قليلاً وقد استيقظت.

أجابها راي:

- وعليكم السلام.

ابتسمت واستقامت في وقفتها. وقعت عيناها على دراجة أمير. نظرا إليها وهي تبتعد عنهما. ملابسها المنزلية مغضنة وضيقة. السستة لم تكن مغلقة كلياً. امتطت الدراجة على مهل، غابت عن ناظريهما، خلف المنزل.

قال راي بنبرة تنم عن الحسم:

- ستفتقدك هذه الصبية.

أصبح واضحاً لدى سمر أنها ستغادر الخرطوم، وتعود معه إلى أبردين. ستترك داليا وراءها ولن تكون قريبة منها كما كانت. لن تتناولا الطعام معاً عما قريب، ولن تناما في السرير نفسه. ستفتقد علاقتهما الحميمة التي كانتها فترة وجودها في الخرطوم. ستأخذ أمير معها، بعيداً عن أبناء عمته، وعن جدته، وعن منزله. ستأخذه إلى مكان كله رمادي، أصواته مخنوقة بالسحب. ستأخذه إلى مدرسة جديدة، ربما يحب طلابها كثيراً. ربما يوجهون إليه تلك النظرات المستغربة. ستترك هذه المدينة برياحها الغبراء وروائحها.

قالت له بصوت مشوب بالحزن والمزاح:

- لو أنني شخص آخر، لو كنت قوية ومستقلة لكنت قلت لك الآن، إنني لا أريد أن أذهب معك، لا أريد أن أترك عائلتي، وإنني أحب وطني حباً عظيماً.

لم يستغرب كلامها. لم يندهش البتة. قال لها:

- أنت لست شخصاً آخر.

حلقت ذبابة فوق الصينية، وحطت على حافة الكباية الفارغة. انحنت سمر وطردتها.

- هذا فات أوانه على كل حال.

- أعرف ذلك.

لقد حانت أمامها الفرصة، ولكنها لم تستطع أن تختار بلادها بدلاً عنه. لم تكن قادرة على استبداله بأي شيء في الدنيا.

قال لها:

- ديننا ليس دين معاناة وعذاب، كما أنه ليس محصوراً في مكان من دون غيره من الأماكن.

أشعرتها كلماته بقربها الشديد منه. انجذبت إليه، صارت أكثر قرباً من أي يوم مضى. هل لأنه يتحدث الآن عن «ديننا،» وليس دينها وحدها، وهل لأنه صار يفهم أنه ليس ديناً للحزن والفداء والتضحية فحسب، وأنه يمكن أن يحمل السعادة أيضاً.

- اكتشفتُ في النهاية، أن المسألة لا علاقة لها بعدد الكتب التي قرأتها، أو بكمّ الحقائق التي عرفتها عن الإسلام. المعرفة ضرورية بالطبع، هذه حقيقة. ولكن الإيمان يجيء من الله مباشرة.

قالت لنفسها إن هذه معجزة. منذ أن تلقت رسالة فريد، صارت تصحو في منتصف الليل، تبتسم لنفسها في الظلام، مأخوذة بهذا الذي حدث، وغير قادرة على النوم مرة أخرى.

قال لها:

- عندما غادرتِ أبردين، قلت لنفسي، إذا لم يكن هذا حافزاً كافياً لي لأعتنق الإسلام، فإنني لن أجد مطلقاً مثل هذا الحافز في ما

بعد. شعرت بالدوار. كنت أترنح، أطوّح من هنا إلى هناك. فقدت توازني بصورة كاملة.

قال إنه في إحدى المرات، تخلف عن رحلته إلى باريس مع أنه كان بالمطار. تخلف عن مؤتمر آخر، ولم يقدم الورقة التي كان يجب عليه أن يقدمها. كان قد قرأ اسم البوابة خطأً وتأخر عن الموعد المحدد. كان يجري، متقطع الأنفاس، في الممرات المزدحمة بالقادمين من إجازاتهم. وجوه مشرقة بألوانها البرونزية الجديدة، وأطفال يحملون بالونات ميكي ماوس أكبر من أحجامهم. ولكن عندما وصل إلى البوابة الصحيحة كان الأوان قد فات. تساقط على كرسي وأخرج «الإنهيلر»، حتى يتمكن من التنفس. مجرد التنفس وهو يرى طائرته، من خلال النافذة، تدور على أعقابها وتغيب في الأفق.

قال ضاحكاً وواضعاً وجهه في يده:

- كان شعوراً مريراً. . . كل ذلك الجري من دون طائل.

عندما رفع عينيه رآها تبتسم لوصفه للممرات المزدحمة ببالونات ميكي ماوس.

وحكى بعد ذلك عن مرضه. نوبة أخرى من نوبات الربو. كانت الرياح العاتية تهز الأشجار في أبردين، وهو بالداخل لا يستطيع التنفس. كانت تمر عليه الليالي طويلةً كدهر. كيف يمكن أن يكون الليل قاسياً من دون أن يقدر على إغفاءة قصيرة؟ وكيف بامتصاص هواء لا يرد أن يمر، ويرفض أن يتسرب إلى الداخل؟ في هذه اللحظة من الضعف الشديد، في هذا التوقيت المهين، داهمته الرغبة

في الدعاء. كان ذلك ما شعر به. لم تكن لحظة من التسامي، أو الصفاء. لم يكن دعاء من أجل خير الإنسانية جمعاء، ولم يكن من أجل النجاح في الحياة. كان فقط من أجل الرغبة في التنفس.

- ما أندم عليه أكثر من أي شيء آخر، هو أنني كنت أكتب أشياء من قبيل: «يعطي الإسلام الكرامة لأولئك الذين لا يمكنهم أن يحصلوا عليها في حياتهم بدونه.» كأنما لم أكن أنا أحتاج إلى الكرامة.

حلقت ذبابة فوق الصينية مرة أخرى، تطن وهي تدور. لوحت سمر بيديها لتطردها. استطرد يقول:

- اندهشت بعض الشيء. لم أكن أعتقد أنني سأصبح مشغولاً بالأمور الروحية.

- كنت أعتقد ذلك. كنت أشعر بأن هناك شيئاً عميقاً داخلك... شيئاً ثقيلاً وساكناً.

- أهو البعد الديني الذي يوجد لدى الجميع؟

- ربما.

تراءى لها شيء نائم نوماً عميقاً، لا يتحرك. شيء كانت ترغب في الاقتراب منه، والبقاء بجانبه، حتى يصحو من السبات. قال

- حدث ذلك بخطوة واحدة اتخذتها. أردت ذلك لنفسي بمعزل عن الوظيفة. ثم هجم عليّ الأمر دفعة واحدة. كان الأمر على هذا المنوال.

سألته:

- ماذا كان رد فعل الناس في الشعبة؟ هل أبلغتهم؟

- نعم... أخبرتهم... وهم يعتقدون أن هذا يرجع إلى أزمة منتصف العمر.

ضحك ضحكة قصيرة ونظر إلى التعاونية عبر الشارع.

انتابها قلق غامض بأنه ربما يكون فقد مصداقيته كمراقب موضوعي لشؤون الشرق الأوسط. أخبرته أن ياسمين قالت ذات يوم، إنك إذا اعتنقت الإسلام، فإن هذا يعني انتحاراً مهنياً. قاطعها قائلاً:

- لقد صرت معروفاً... كونت لنفسي اسماً. لا تقلقي. أنا لست قلقاً.

ما قال هو عين الحقيقة يجب ألا تقلق. الزرق من الله. وسيأتي من الله. يجب ألا تقلق أبداً. قالت له:

- أنا معجبة بك كثيراً.

قالت ذلك وأشاحت بوجهها إلى النجيل. وعندما رفعت رأسها رأت بريق حنان في عينيه، وسمعت نغمةً عذبة في صوته.

كانت داليا تدور بدراجتها حول المنزل. يتناهى إليهما صرير الإطارات على إسمنت الحوش. نظرت إلى سمر وراي، واختفت مرة أخرى خلف المنزل.

قال لها:

- هناك فأر في غرفة فندقي.

ضحكت، رعباً ودهشة. سألته، وكانت قد نسيت أن تسأله من قبل، عن اسم الفندق الذي ينزل فيه؟

أخبرها عن الفندق الذي يسكن فيه. تعرف أنه فندق قديم باهت

يطل على النيل. ليس من أفضل الفنادق بالطبع، ولكنها لم تكن تتصور أن الفئران ستجد طريقها إلى غرفه. سمع حركة الفأر أثناء الليل، على الحائط قريباً من الدولاب.

قالت شبه معتذرة:

- هذا شيء فظيع.

هذا وطنها على كل حال، وهو ضيفها في هذه البلاد.

- الدش لا يعمل... وهذ أفظع من الفأر... في اعتقادي.

- هل شكوت للإدارة؟

هز رأسه بالإيجاب.

- وعدوا باصلاح الدش. وأعطوني جردلاً وكوباً في هذه الأثناء. ولكنهم لم ينزعجوا لوجود الفأر.

قالت في خضم الحرج.

- أنا آسفة.

كانت متعاطفة معه بصورة كاملة، خاصة أنه كان مستسلماً نوعاً ما.

- ولكن المشهد كان رائعاً. الغرفة لديها بلكونة... وفي الفجر رأيت النيل. كان منظره أخّاذاً.

تخيلته وهو يقف على البلكونة وينظر إلى النيل. كان الفندق شيده البريطانيون في فترة الاستعمار. كان في يوم من الأيام، لامعاً وبهياً. ولكنه صار الآن مبنى خاملاً آيلاً إلى السقوط، متسامحاً إزاء جمهرة الفئران. الحمامات فيه لا تعمل كما كانت تعمل في الماضي. ولكن

المشهد الطبيعي ظل كما هو. مشهد طبيعي يمور بالحياة. إنها الاندفاعات الأخيرة للنيل الأزرق، قبل أن ينحني ويلتقي بالنهر الآخر، ويغير لونه ليجري شمالاً.

تحدث عن المشهد من البلكونة. عن انطباعاته الأولى عن الخرطوم. وصل أثناء الليل. لاحظ الهدوء، والأنوار الخافتة للمطار. قال له سائق التأكسي إن هناك حظراً للتجوال، ولكن سيارات الأجرة من وإلى المطار لديها تصاريح للمرور. في طريقهم إلى الفندق، أوقفوهم في نقطة تفتيش على الشارع. كان رجل الشرطة يرتدي بدلة رمادية، مع بندقية تتدلى من كتفه. أخذ التصريح من السائق، وفحصه على ضوء مصباح السيارة الأمامي. ولكنه لم يطلب أوراقاً ثبوتية من راي.

قال راي:

- كانت الشوارع مظلمة، كما وصفتها أنت مرة... هذا مدهش... هذا الاعتماد على القمر والنجوم.

لن ينسى هذه المدينة. سيذكرها مدى حياته. هناك شيء في هوائها، شيء غامض ورقيق يشدُّه إليها، تكثفه الصحراء المنبسطة والسماء المرخية بهاءَها على المشهد بكامله. سألها عن أمدرمان، وهل هي بعيدة؟

قالت له:

- أمدرمان أجمل من الخرطوم، عبر النهر، على الطريق الممتد من الفندق الذي تنزل فيه. تجد هناك قبور الصالحين.

- عندما كنت صغيراً، كان أبي يحتفظ بخرائط قديمة. خرائط تعرفت فيها إلى تضاريس أريتريا وفلسطين. كنت أحب تأمل تلك

الخرائط، كنت أرى اسم أمدرمان مكتوباً بالقرب من الخط الأزرق للنيل. لطالما ردّدت بيني وبين نفسي: أمدرمان. . . أمدرمان، عدة مرات. لكأني كنت أعد نفسي بالذهاب إليها.

سيذهبان لزيارة أمدرمان إذاً، قبل سفرهما. هناك منازل قديمة يجب رؤيتها. سوق للجِمال.

قالت:

- أخشى أن يكون كل هذا الغبار مضراً لصدرك.

- هذا لا يزعجني، فأزمة الربو التي تنتابني عميقة ومزمنة. الطقس الجاف ينفعني. لاحظت أن الجو جاف جداً هنا. وهذا جيد لتقوية عظام الإنسان.

- أهو العمر يهرول مسرعاً؟

ضحك وهو يقول:

- عندما بدأتُ الصلاة، كانت ركبتاي تؤلمانني. وقلت حينها إنه العمر قد دنا من خريفه. ولكنهما لا تؤلمانني حالياً بالقدر نفسه.

- فاتني هذا. . . فاتني الوقت الذي كنت تتعلم فيه الصلاة.

سمعت أصواتاً تتردّد من الحديقة، صوت سيارة من بعيد.

- إنه شيء خاص، لا يمكن للمرء أن يتفاداه.

- ماذا؟

- طريق الروح. كل شخص يكون وحيداً هنا.

كانت داليا تحاول أن ترفع الدراجة على المصطبة. وقد نجحت بعد لأي. شاهداها وهي تقود الدراجة بين أصص الصبار وبين الجهنميات. كانت الإطارات تنسحب بلطف على الأرضية.

قالت له:

- دعنا نلعب لعبة.

كنت أريد أن تتألق عيناي، وأن أرضيه.

قال:

- سنعطي بعضنا أفكاراً. ستخرج هذه الأفكار منا وستتخذ لها أشكالاً وألواناً. ستصبح هدايا، محسوسة وماثلة.

قال:

- أنتِ أولاً. ماذا استلمت مني؟

أريتُه ثلاث قطع من القماش. بسطتُ حريراً في لون الصحارى، وصوفاً من شجر المهوغني، وقطناً أبيض من سحابة دانية.

قلت:

- أعطيتني حريراً لأنني خُلقت مثله. وأعطيتَني صوفاً لتُدفئني.

قال:

- أعطيتك صوفاً لأنني أريد أن أحميك. وأعطيتك قطناً لأنك نقية وصافية.

ثم نظرتُ إلى ما تلقّاه مني. إناء أملس تنزلق العين عليه. داخله سائل لبني، برائحة المسك.

سألت:

- أهو عطر؟

كأنني وُلدت، وأريد أن أعرف هل الطفل الذي حملته شهوراً كان ولداً أم بنتاً؟

قال:

- لا.

ثم صمت برهة وتحدث على مهل:

- إنه شيء منك يجعلني قوياً.

وعندما سمّاه، أدار وجهه بعيداً، كأنه يدير وجهه من الحياء:

- منحتني الحبّ.

سمر أرملة سودانية شابة تعمل مترجمة في إحدى الجامعات الاسكتلندية. مات زوجها في حادث سير وترك لها طفلاً يعيش بعيداً عنها مع جدته لوالده في السودان فانجرفت في حزن وأسىً عميقين، وعاشت وحشة الغربة ومرارتها بكل ما يلازمهما من إحساس بالنفي والاقتلاع من الجذور.

تستعيد سمر ألق الحياة ونبضها بعد أن وقعت في غرام راي؛ وهو اسكتلندي مطلّق مرتين وجدت فيه سمر عزاءً لغربتها ووطأة شعورها بالوحدة، وأحسّت بأنها تنتمي إليه برغم ما يفصل بين عالميهما من هواجس وحواجز جغرافية وثقافية ودينية.

«المترجمة» رواية تُعلي لغة الحب وتحرّض عليه، وقد نالت نسختها الأصلية الإنكليزية جائزة «الأميركان بوكر» لعام ٢٠٠٠.

«إذا رأينا في بطل أستاذنا الطيب صالح في رواية «موسم الهجرة إلى الشمال» نموذجاً للبطل المحترق في أتون «صِدام الحضارات»، فإن سمر، بطلة رواية ليلى أبو العُلا، برزت قوية في تفاعل وحوار الحضارات».

«الحياة»

ISBN 1 85516 435 3

DAR AL SAQI

دار الساقي